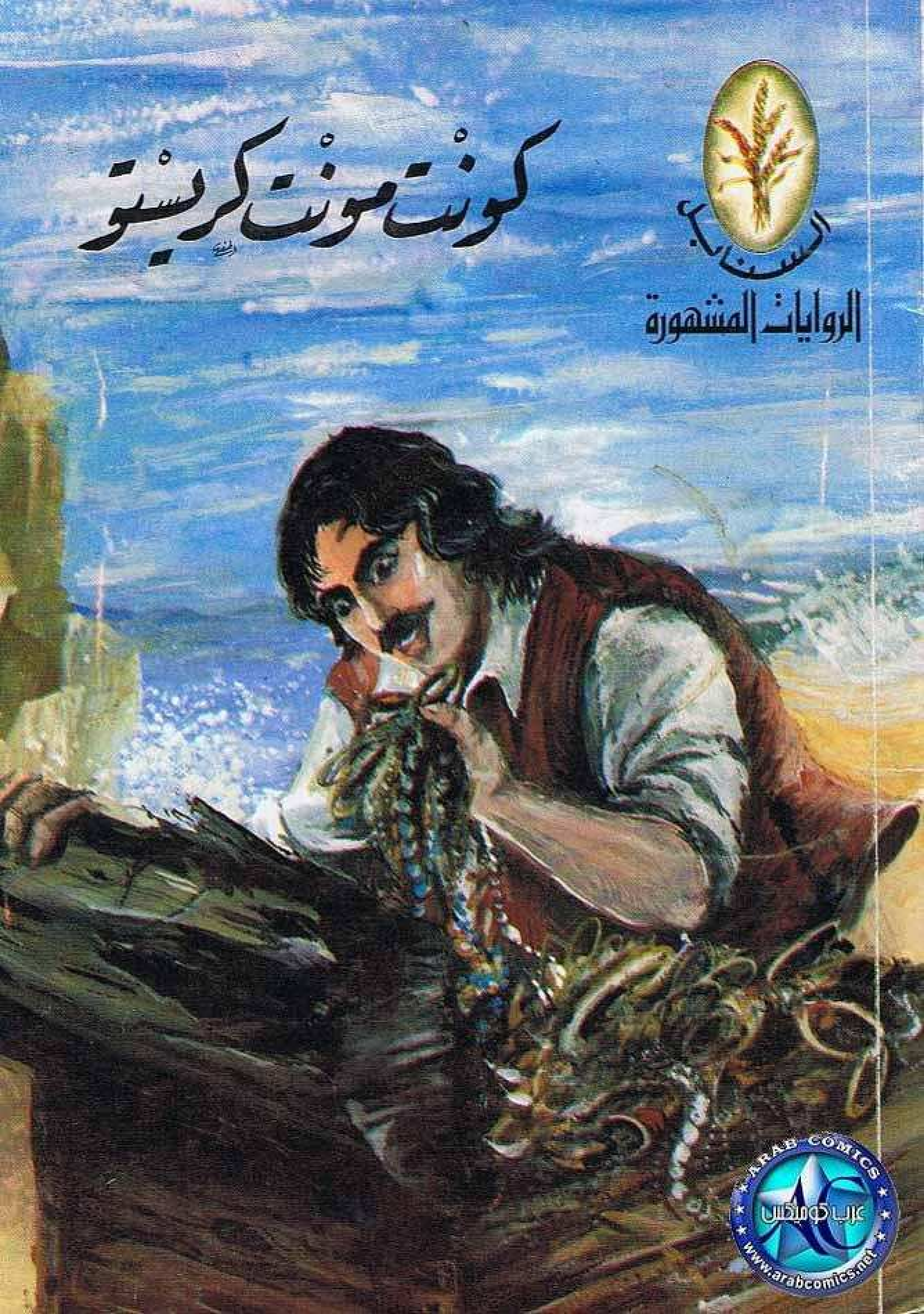
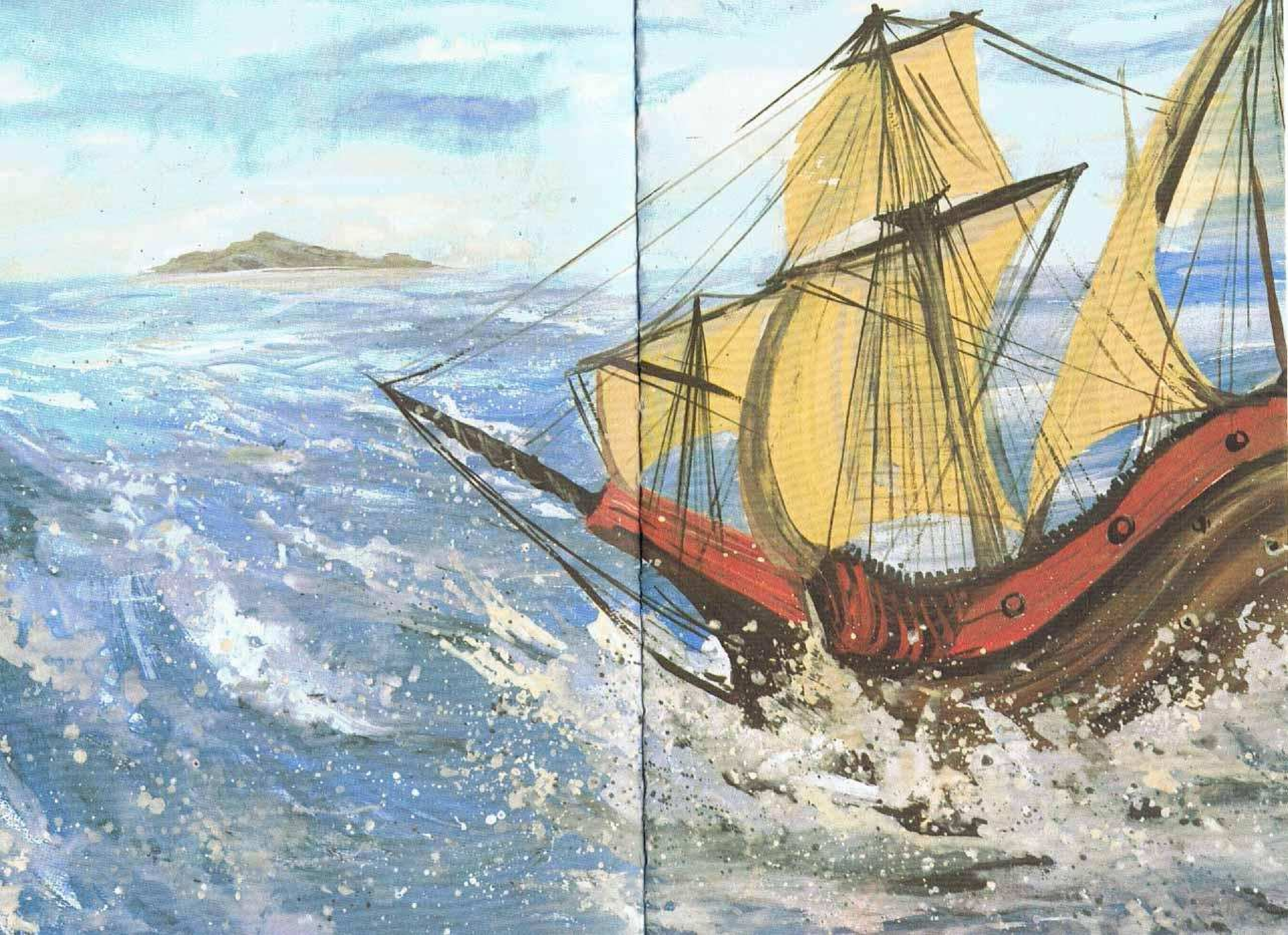
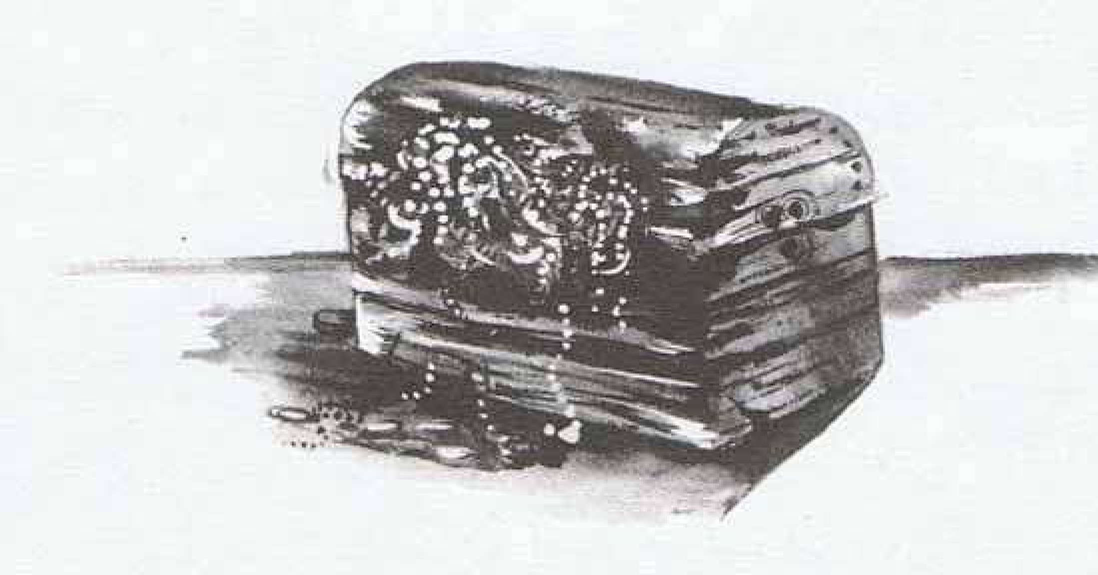

كونت مونت كريستو
السنابل
الروايات المشهورة
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net



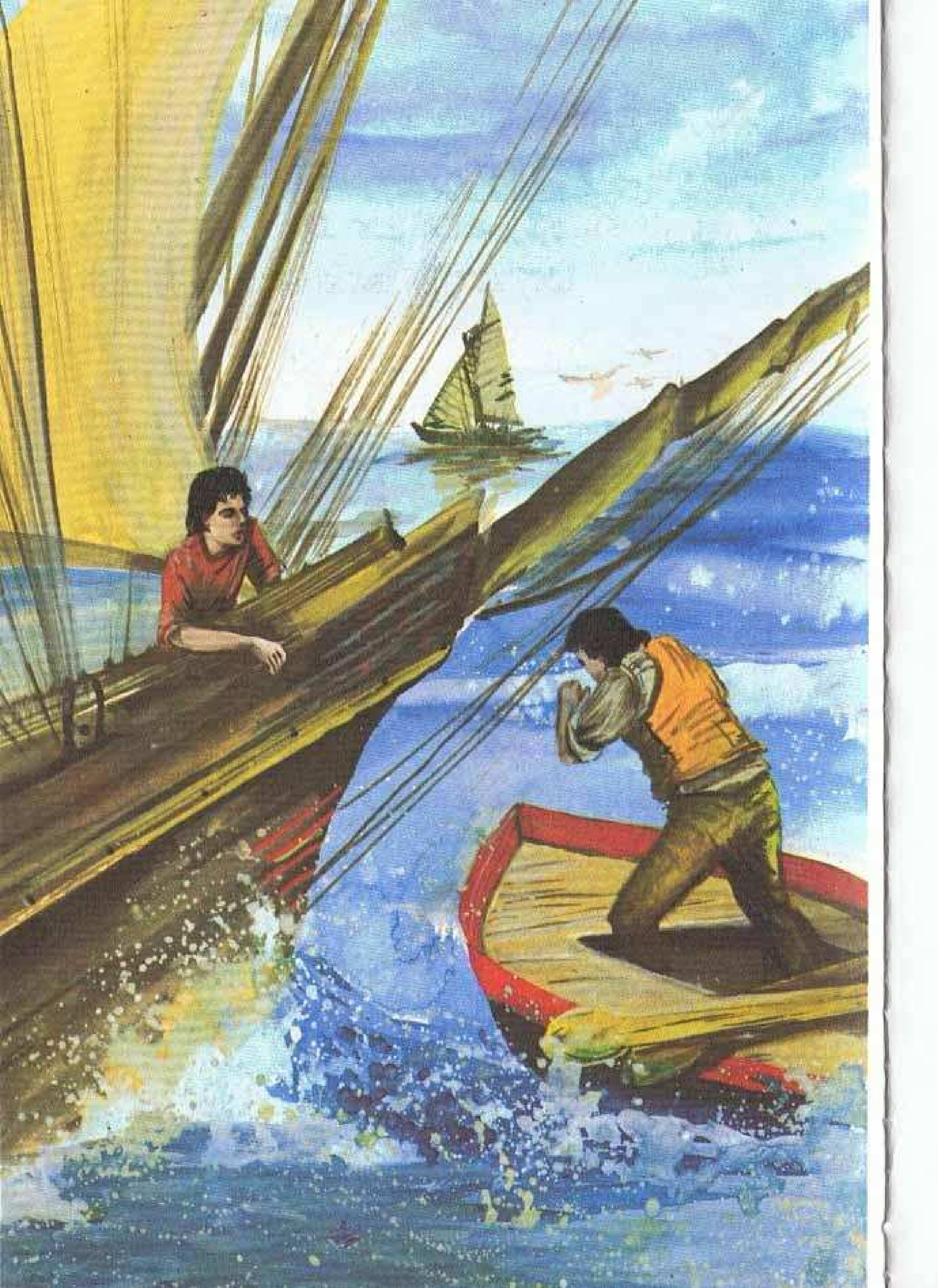


كونت مونت كريستو



تأليف : ألكسندر دماس
إعداد : سمعان اسكندر
رسوم : فتنة حسام الدين

مكتبة لبنان
بيروت



الفصــــل ٱلأَوَّل

عَوْدَةُ ٱلسَّفينَةِ إلى ٱلوَطَن

إدْمُــون دانْتِــي

في ٱلرّابعِ وَٱلعِشْرينَ مِنْ مايو سَنَةَ ١٨١٥ ، وَقُبَيْلَ فِرارِ نابُلْيون مِنْ جَزيرَةِ إلْبا ، شوهِدَتِ ٱلسَّفينَةُ « فِرْعَوْن » عَلى مَقْرَبَةٍ مِنْ مارْسيلْيا ، وَكانَ عَلى ٱلشّاطِئِ رَجُلٌ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَصْبِرَ حَتّى تَصِلَ ٱلسَّفينَةُ إلى ٱلشّاطِئِ ؛ فَقَفَزَ في قارِبٍ حَمَلَهُ إلى هُناكَ .

وَبَيْنَما كانَ ٱلقارِبُ يَقْتَرِبُ مِنَ ٱلسَّفينَةِ ظَهَرَ عَلى جانِبِها شابٌّ كانَ يَبْدو عَلَيْهِ أَنَّهُ هُوَ ٱلرُّبّانُ . كانَ في ٱلعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ أَسْوَدَ ٱلشَّعْرِ وَٱلعَيْنَيْنِ ، وَكانَتْ تَصَرُّفاتُهُ ٱلهادِئَةُ هِيَ تَصَرُّفاتِ رَجُلٍ ٱعْتادَ مُواجَهَةَ ٱلأَخْطارِ .

صاحَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذي بِٱلقارِبِ : « أَهٰذا أَنْتَ يا دانْتِي ؟ ماذا حَدَثَ ؟ »

فَأَجابَ ٱلشّابُّ : « لَقَدْ حَدَثَ شَيْءٌ جِدُّ مُحْزِنٍ يا سَيِّدُ مورِيل ،

فَقَدْ فَقَدْنا رُبّانَنا ٱلشُّجاعَ لُكْلِرْك عِنْدَما كانَتِ ٱلسَّفينَةُ بِٱلقُرْبِ مِنْ سيڤيتاڤِتْشيا . » وَٱلْتَفَتَ إلى رِجالِهِ وَأَصْدَرَ إلَيْهِمْ أَمْرًا سَريعًا ، ثُمَّ عادَ فَٱلْتَفَتَ إلى موريل . لَقَدْ كانَتِ ٱلسَّفينَةُ فِرْعَوْن مِلْكًا لِموريل ، أَمّا إدْمون دانْتِي فَقَدْ كانَ ٱلضّابِطَ ٱلأَوَّلَ بَعْدَ رُبّانِها .

قالَ موريل : « وَلٰكِنْ يا إدْمون ، إنَّنا جَميعًا صائِرونَ إلى ٱلمَوْتِ يَوْمًا ، وَلا بُدَّ أَنْ يُفْسِحَ ٱلشُّيوخُ ٱلطَّريقَ لِلشَّبابِ . وَٱلآنَ ، ماذا عَنِ ٱلبَضائِعِ ٱلَّتي عَلى ٱلسَّفينَةِ ؟ »

أَجابَهُ إدْمون : « إنَّها جَميعًا في أَمانٍ تامٍّ يا سَيِّدُ موريل ، وَإنَّها لَتُساوي كَثيرًا مِنَ ٱلمالِ . وَٱلآنَ تَفَضَّلْ بِٱلصُّعودِ إلى ٱلسَّفينَةِ ، فَهُنا دانْغلَرْز ، وَهُوَ ٱلَّذي يَضْطَلِعُ بِعَمَلِيّاتِ ٱلبَيْعِ وَٱلشِّراءِ . أَمّا أَنا فَعَلَيَّ أَنْ أَنْصَرِفَ لِتَفَقُّدِ شُؤونِ ٱلسَّفينَةِ . »

فَصَعِدَ موريل إلى ظَهْرِ ٱلسَّفينَةِ بِسُرْعَةٍ حَيْثُ لَقِيَهُ دانْغلَرْز .

رِسالَـــةٌ

كانَ دانْغلَرْز شابًّا في نَحْوِ ٱلخامِسَةِ وَٱلعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَكانَ وَجْهُهُ وَتَصَرُّفاتُهُ يَبْعَثانِ عَلى ٱلنُّفورِ . وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ بَحّارَةِ ٱلسَّفينَةِ فِرْعَوْن مَنْ يُحِبُّهُ .

قالَ دانْغلَرْز : « أَهْلًا يا سَيِّدُ موريل ! طَبْعًا سَمِعْتَ بِوَفاةِ ٱلرُّبّانِ

لُكْلِرْك ٱلفاجِعَةِ ؟ »

أَجابَ موريل : « نَعَمْ ، لَقَدْ كانَ رَجُلًا شُجاعًا وَطَيِّبًا . »

فَقالَ دانْغلَرْز : « وَبَحّارًا مُمْتازًا كَبيرَ ٱلسِّنِّ حَكيمًا ، كَما يَنْبَغي لِرَجُلٍ يَعْمَلُ في شَرِكَةِ موريل وَوَلَدِهِ . »

قالَ موريل : « وَلٰكِنْ لا حاجَةَ بِٱلإنْسانِ إلى أَنْ يَكونَ كَبيرَ ٱلسِّنِّ كَيْ يَسْتَطيعَ ٱلقِيامَ بِعَمَلِهِ . إنَّ صَديقَنا إدْمون — مَثَلًا — يَبْدو أَنَّهُ يَعْرِفُ عَمَلَهُ جَيِّدًا . »

قالَ دانْغلَرْز وَهُوَ يَحْدِجُ إدْمون دانْتِي بِنَظْرَةٍ نَمَّتْ عَنْ عَدَمِ حُبِّهِ لَهُ : « نَعَمْ .. نَعَمْ ! إنَّهُ شابٌّ ، وَفَوْقَ ذٰلِكَ فَهُوَ واثِقٌ مِنْ نَفْسِهِ ؛ فَما إنْ تُوُفِّيَ ٱلرُّبّانُ حَتّى بادَرَ بِقِيادَةِ ٱلسَّفينَةِ دونَ أَنْ يَسْتَشيرَ أَحَدًا . وَعَلى هٰذا فَقَدْ تَسَبَّبَ في تَعْطيلِنا يَوْمًا وَنِصْفَ ٱلْيَوْمِ في جَزيرَةِ إلْبا بَدَلًا مِنَ ٱلمَجيءِ مُباشَرَةً إلى مارْسيلْيا . »

قالَ موريل : « إنَّ تَوَلّي قِيادَةِ ٱلسَّفينَةِ هُوَ واجِبُهُ لِأَنَّهُ كانَ ٱلضّابِطَ ٱلأَوَّلَ ، وَقَدْ كانَ خَطَأً مِنْهُ أَنْ يُبَدِّدَ ٱلوَقْتَ في جَزيرَةِ إلْبا لَوْ أَنَّ ٱلسَّفينَةَ كانَتْ سَليمَةً لا تَحْتاجُ إلى أَيَّةِ إصْلاحاتٍ . »

قالَ دانْغلَرْز : « لَقَدْ كانَتِ ٱلسَّفينَةُ في أَحْسَنِ حالٍ ، أَمّا تَبْديدُ ٱلوَقْتِ فَقَدْ كانَ لِمُجَرَّدِ ٱلاسْتِمْتاعِ بِٱلنُّزولِ إلى ٱلشّاطِئِ . »

فَنادى صاحِبُ ٱلسَّفينَةِ صائِحًا : « تَعالَ إلى هُنا يا دانْتِي ! »

فَأَجابَ دانْتِي : « لَحْظَةً يا سَيِّدُ مُورِيل . »

ثُمَّ أَصْدَرَ أَمْرًا إلى رِجالِهِ ، وَتَحَرَّكَتِ ٱلسَّفينَةُ عَلى إِثْرِهِ إلى ٱلمَكانِ ٱلمُخَصَّصِ لَها ، ثُمَّ شُدَّتْ بِرِباطٍ وَثيقٍ . وَبَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ ، جاءَ دانْتِي إلى مُورِيل قائِلًا : « لَقَدْ فَرَغْتُ مِنْ عَمَلي ، وَهٰأَنَذا في خِدْمَتِكَ . »

عِنْدَئِذٍ تَراجَعَ دانْغلَرْز بِضْعَ خُطُواتٍ ، وَقالَ مُورِيل : « أُحِبُّ أَنْ أَعْرِفَ ٱلسَّبَبَ ٱلَّذي حَدا بِكَ إلى ٱلتَّوَقُّفِ في جَزيرَةِ إِلْبا . »

« الحَقيقَةُ أَنّي لا أَعْرِفُ يا سَيِّدُ مُورِيل . لَقَدْ كانَ ذٰلِكَ آخِرَ أَمْرٍ أَصْدَرَهُ إِلَيَّ ٱلرُّبّانُ لُكْلِرْك . لَقَدْ أَعْطاني وَهُوَ في ٱلنَّزْعِ ٱلأَخيرِ رِسالَةً لِلْمارْشال بِرْتران . »

فَتَلَفَّتَ مُورِيل حَوْلَهُ ، ثُمَّ جَذَبَ دانْتِي إِلَيْهِ ، وَسَأَلَهُ بِصَوْتٍ خافِتٍ : « وَكَيْفَ حالُ نابُلْيون ؟ »

« إِنَّهُ عَلى قَدْرِ ما رَأَيْتُ في أَحْسَنِ حالٍ . »

« هَلْ تَحَدَّثْتَ إِلَيْهِ ؟ »

أَجابَ دانْتِي : « بَلْ هُوَ ٱلَّذي تَحَدَّثَ إِلَيَّ . لَقَدْ سَأَلَني عَنِ

ٱلسَّفينَةِ ، وَمَتى غادَرَتْ مارْسِيلْيا . كَما ٱسْتَفْسَرَ عَمّا تَحْمِلُ مِنْ بَضائِعَ . وَأَظُنُّ أَنَّهُ لَوْ لَمْ تَكُنِ ٱلسَّفينَةُ تَحْمِلُ شَيْئًا وَكانَتْ مِلْكي أَنا لَكانَ قَدِ ٱبْتاعَها مِنّي . بَيْدَ أَنّي أَخْبَرْتُهُ أَنَّني لَسْتُ إِلّا ٱلضّابِطَ ٱلأَوَّلَ عَلَيْها ، أَمّا صاحِباها فَهُما مُورِيل وَوَلَدُهُ . عِنْدَئِذٍ قالَ لي : آهٍ ! إِنَّني أَعْرِفُهُما . إِنَّ آلَ مُورِيل أَصْحابُ سُفُنٍ مُنْذُ سِنينَ طَويلَةٍ ، وَلٰكِنَّ أَحَدَهُمْ كانَ جُنْدِيًّا مَعي في سَرِيَّتي في ڤالِنْس ' . »

فَصاحَ مُورِيل مُبْتَهِجًا : « هٰذا صَحيحٌ ! إِنَّهُ عَمّي بُوليكار مُورِيل ، ٱلَّذي أَصْبَحَ بَعْدَ ذٰلِكَ نَقيبًا في ٱلجَيْشِ . لا بُدَّ يا دانْتِي مِنْ أَنْ تُخْبِرَ عَمّي بِأَنَّ نابُلْيون لا يَزالُ يَذْكُرُهُ ، وَلَسَوْفَ تَرى عَيْنَيْهِ تَبْرُقانِ مِنَ ٱلفَرْحَةِ . لَقَدْ أَحْسَنْتَ صُنْعًا يا دانْتِي أَنْ نَفَّذْتَ ما أَمَرَكَ بِهِ ٱلرُّبّانُ لُكْلِرْك ، وَلٰكِنْ لَنْ أُخْفِيَ عَنْكَ أَنَّهُ لَوْ عَرَفَ ٱلنّاسُ أَنَّكَ حَمَلْتَ رِسالَةً إِلى ٱلمارْشال بِرْتران ، وَأَنَّكَ تَحَدَّثْتَ مَعَ نابُلْيون ، فَقَدْ يَجُرُّ هٰذا عَلَيْكَ ٱلمَتاعِبَ . »

فَسَأَلَهُ دانْتِي : « وَلٰكِنْ لِماذا ؟ إِنَّني لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ حَتّى مَضْمونَ ٱلرِّسالَةِ ، كَما أَنَّ ٱلأَسْئِلَةَ ٱلَّتي سَأَلَنيها نابُلْيون كانَ سَيَسْأَلُها أَيُّ إِنْسانٍ آخَرَ . »

زيارَتـــانِ

سَأَلَهُ صاحِبُ ٱلسَّفينَةِ : « حَسَنٌ يا عَزيزي دانْتِي : هَلْ فَرَغْتَ ٱلآنَ

مِنْ عَمَلِكَ ؟ »

« نَعَمْ يا سَيِّدُ مُورِيل . »

« هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذًا أَنْ تَأْتِيَ لِتَتَناوَلَ ٱلعَشاءَ مَعي ؟ »

« أَشْكُرُكَ يا سَيِّدُ مُورِيل ، لٰكِنْ لا بُدَّ مِنْ أَنْ أَزُورَ والِدي أَوَّلًا . وَبِٱلْمُناسَبَةِ ، هَلْ لَدَيْكَ أَنْباءٌ عَنْهُ ؟ »

« أَعْتَقِدُ أَنَّهُ بِصِحَّةٍ طَيِّبَةٍ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَهُ مُؤَخَّرًا . »

« نَعَمْ ، إِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَعْتَكِفَ في غُرْفَتِهِ ٱلصَّغِيرَةِ . »

« وَهٰذا يَدُلُّكَ عَلى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِحاجَةٍ إِلى شَيْءٍ طَوالَ غِيابِكَ . أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

أَجابَ دانْتِي : « نَعَمْ ، فَإِنَّ كِبْرِياءَ أَبي شَدِيدَةٌ ، وَحَتّى لَوْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ ما يَسُدُّ بِهِ رَمَقَهُ لِما سَأَلَ أَحَدًا إِلّا ٱللهَ . »

« فَلْيَكُنْ كَما تُحِبُّ ، عَلى أَنْ أَراكَ بَعْدَ أَنْ تَقُومَ بِزِيارَةِ أَبِيكَ . »

« مَرَّةً أُخْرى أَشْكُرُكَ يا سَيِّدُ مُورِيل . لٰكِنَّ ثَمَّةَ شَخْصًا لا بُدَّ لي مِنْ زِيارَتِهِ بَعْدَ ذٰلِكَ . »

« بِٱلطَّبْعِ يا دانْتِي ، لَقَدْ نَسِيتُ ذٰلِكَ . إِنَّها مِرْسِيدِيس ٱلجَمِيلَةُ

طَبْعًا . لَقَدْ سَأَلَتْني ثَلاثَ مَرّاتٍ في غِيابِكَ عَمّا إِذا كانَ لَدَيَّ أَخْبارٌ عَنِ ٱلسَّفِينَةِ فِرْعَوْن . إِنَّكَ مَحْظُوظٌ يا إِدْمُون أَنْ كانَتْ لَكَ حَبِيبَةٌ جَمِيلَةٌ بِهٰذا ٱلشَّكْلِ . »

فَأَجابَ ٱلبَحّارُ ٱلشّابُّ : « إِنَّها لَمْ تَعُدِ ٱلآنَ مُجَرَّدَ حَبِيبَةٍ ، فَقَدْ قَبِلَتْ أَنْ تَتَزَوَّجَني . »

قالَ صاحِبُ ٱلسَّفِينَةِ : « حَسَنٌ ، حَسَنٌ يا عَزِيزي إِدْمُون . يَنْبَغي أَنْ أَتْرُكَكَ إِذًا . هَلْ أَنْتَ بِحاجَةٍ إِلى نُقُودٍ ؟ »

« كَلّا ، شُكْرًا ، فَمَعي مُرَتَّبُ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ لَمْ أُنْفِقْهُ بَعْدُ . »

« كَمْ أَنْتَ مُدَبِّرٌ يا إِدْمُون ! »

« إِنَّ أَبي فَقِيرٌ كَما تَعْرِفُ يا سَيِّدُ مُورِيل . »

« نَعَمْ ... نَعَمْ . وَأَنْتَ وَلَدٌ بارٌّ . وَٱلآنَ أَسْرِعْ لِتَرى أَباكَ . »

« شُكْرًا يا سَيِّدُ مُورِيل . وَبِٱلْمُناسَبَةِ ، أَرْجو أَنْ تَسْمَحَ لي بِأُسْبوعَيْنِ إِجازَةً . »

« لِكَيْ تَتَزَوَّجَ ؟ »

« نَعَمْ ، لِكَيْ أَتَزَوَّجَ أَوَّلًا ، ثُمَّ لِأَذْهَبَ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلى بارِيس . »

« مُوافِقٌ طَبْعًا . خُذْ ما تَشاءُ مِنْ إجازَةٍ . وَلٰكِنْ يا دانْتِي لا بُدَّ أَنْ تَعودَ في غُضونِ شَهْرٍ ؛ إِذْ لا يُمْكِنُ أَنْ تُبْحِرَ ٱلسَّفينَةُ بِدونِ رُبّانِها . »

فَصاحَ دانْتِي وَعَيْناهُ تَبْرُقانِ حُبورًا : « بِدونِ رُبّانِها ؟! »

وَشَدَّ عَلى يَدِ صاحِبِ ٱلسَّفينَةِ قائِلًا : « أَحَقًّا سَتَجْعَلُني رُبّانَها يا سَيِّدُ مُورِيل ؟ إِنّي أَشْكُرُكَ أَجْزَلَ ٱلشُّكْرِ بِٱلنِّيابَةِ عَنْ كُلٍّ مِنْ أَبي وَمِرْسِيدِيس . »

« العَفْوَ يا إِدْمُون . وَٱلآنَ ٱذْهَبْ إِلى والِدِكَ ، ثُمَّ ٱذْهَبْ فَزُرْ مِرْسِيدِيس ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ أَراكَ . »

« هَلْ تُحِبُّ أَنْ آخُذَكَ مَعي إِلى ٱلشّاطِئِ ؟ »

« كَلّا ، شُكْرًا . إِنَّني سَأَبْقى قَليلًا لِلْقِيامِ بِبَعْضِ ٱلأَعْمالِ مَعَ دانْغلَرْز . قُلْ لي هَلْ سَرَّتْكَ صُحْبَتُهُ في هٰذِهِ ٱلرِّحْلَةِ ؟ »

« أَتَعْني : هَلْ هُوَ صَديقٌ مُخْلِصٌ ؟ الجَوابُ إِذًا : لا ، بَلْ إِنّي لا أَظُنُّ أَنَّهُ يُحِبُّني أَبَدًا مُنْذُ أَنْ نَشِبَتْ بَيْنَنا مُشادَّةٌ في إِحْدى ٱلمَرّاتِ بِٱلقُرْبِ مِنْ جَزيرَةِ مونْت كرِيسْتو . وَلٰكِنْ إِذا كُنْتَ تَقْصِدُ : هَلْ كانَ يُؤَدّي عَمَلَهُ كَما يَنْبَغي ؟ فَلَيْسَ عِنْدي ما آخُذُهُ عَلَيْهِ مِنْ هٰذِهِ ٱلنّاحِيَةِ . »

« وَلٰكِنْ قُلْ لي يا إِدْمُون : هَبْ أَنَّكَ رُبّانُ ٱلسَّفينَةِ فِرْعَوْن أَكُنْتَ

تُبْقي عَلى دانْغلَرْز ؟ »

« ما دُمْتَ أَنْتَ راضِيًا عَنْ عَمَلِهِ فَإِنّي عَنْهُ راضٍ . »

« إِنَّكَ حَقًّا لَنِعْمَ ٱلرَّجُلُ يا دانْتِي . »

« هَلْ تَسْمَحُ لي بِٱسْتِخْدامِ قارِبِكَ يا سَيِّدُ مُورِيل ؟ »

« بِكُلِّ سُرورٍ . »

« مَرَّةً أُخْرى ، أَشْكُرُكَ أَجْزَلَ ٱلشُّكْرِ يا سَيِّدُ مُورِيل . »

ثُمَّ شَيَّعَهُ صاحِبُ ٱلسَّفينَةِ بِنَظَراتِهِ إِلى أَنْ بَلَغَ ٱلشّاطِئَ ، وَٱنْدَسَّ وَسْطَ ٱلزِّحامِ . أَمّا دانْغلَرْز فَقَدْ كانَ يَقِفُ خَلْفَهُ ، يُشَيِّعُ ٱلشّابَّ أَيْضًا ، وَلٰكِنْ بِنَظَراتٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمامًا .

الفَصْلُ الثّاني
الأَبُ وَآبْنُـــه

الأَبُ العَجـــوز

اِنعَطَفَ دانْتي في شارِعٍ ضَيِّقٍ ، وَدَخَلَ مَنْزِلًا صَغيرًا ، ثُمَّ انْتَظَرَ لَحْظَةً أَمامَ الحُجْرَةِ الَّتي يَقْطُنُها أَبوهُ ، وَكانَ البابُ مُوارَبًا ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ العَجوزُ يَعْرِفُ أَنَّ السَّفينَةَ فِرْعَوْن قَدْ وَصَلَتْ ، فَصاحَ عِنْدَما فوجِئَ بِآبْنِهِ أَمامَهُ : « أَ هُوَ أَنْتَ يا إِدْمون ؟ يا آبْنِي العَزيزَ ! إِنَّني لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ وُصولَكَ الآنَ ، تَعالَ وَأَخْبِرْني بِكُلِّ ما حَدَثَ لَكَ . »

« لَقَدْ ماتَ الرُّبّانُ الطَّيِّبُ لُكْلِرْك يا أَبَتاهُ ، وَأَنا في أَشَدِّ الحُزْنِ لِذٰلِكَ ، بَيْدَ أَنَّ السَّيِّدَ موريل قَدْ أَخْبَرَني أَنَّني سَآخُذُ مَكانَهُ . أَ تَعْرِفُ يا أَبي ما مَعْنى هٰذا ؟ فَكِّرْ قَليلًا ، إِنَّ مَعْناهُ أَنَّني سَأَكونُ رُبّانًا وَأَنا لا أَزالُ في العِشْرينَ مِنْ عُمْري ، وَبِمُرَتَّبٍ مُغْرٍ ، أَ لَيْسَ ذٰلِكَ أَكْثَرَ مِمّا كانَ يَحْلُمُ بِهِ بَحّارٌ فَقيرٌ مِثْلي ؟ إِنَّني أَنْوي أَنْ أَشْتَرِيَ لَكَ بِأَوَّلِ نُقودٍ أَقْبِضُها بَيْتًا جَديدًا ... وَلٰكِنْ يا أَبَتاهُ ، ماذا هُنالِكَ ؟ خَبِّرْني : هَلْ

تَشْكو مِنْ شَيْءٍ ؟ لا بُدَّ أَنَّكَ جَوْعانُ أَوْ عَطْشانُ ، أَيْنَ الطَّعامُ وَالشَّرابُ هُنا ؟ »

فَأَجابَ الأَبُ العَجوزُ : « لَيْسَ في البَيْتِ طَعامٌ أَوْ شَرابٌ . وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّني لا أَحْتاجُ إِلى شَيْءٍ ما دُمْتَ مَعي . »

« لَقَدْ أَعْطَيْتُكَ كَثيرًا مِنَ النُّقودِ عِنْدَما تَرَكْتُكَ قَبْلَ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ . »

« نَعَمْ ، هٰذا صَحيحٌ ، وَلٰكِنَّكَ نَسيتَ أَنَّهُ كانَ لا بُدَّ أَنْ نُسَدِّدَ ما عَلَيْنا مِنْ دَيْنٍ لِصَديقِنا كادِيرُوس . لَقَدْ طالَبَني بِالتَّسْديدِ وَإِلّا ذَهَبَ إِلى السَّيِّدِ موريل وَأَخَذَ مِنْهُ النُّقودَ ، فَأَعْطَيْتُهُ ما طَلَبَ . »

« وَلٰكِنْ يا أَبي ، لَقَدْ كانَ ما عَلَيْنا لَهُ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ المَبْلَغِ الَّذي تَرَكْتُهُ لَكَ ! مَعْنى هٰذا أَنَّكَ عِشْتَ طيلَةَ الأَشْهُرِ الثَّلاثَةِ عَلى نِصْفِ ما أَعْطَيْتُكَ . لِماذا فَعَلْتَ ذٰلِكَ ؟ خُذْ يا أَبي ، خُذْ هٰذا المالَ وَأَرْسِلْ مَنْ يَشْتَري طَعامًا في الحالِ . »

قالَ ذٰلِكَ وَهُوَ يَضَعُ عَلى المائِدَةِ كُلَّ ما كانَ مَعَهُ مِنْ مالٍ : اِثْنَتَي عَشْرَةَ قِطْعَةً ذَهَبِيَّةً ، وَخَمْسَ قِطَعٍ أَوْ سِتًّا فِضِّيَّةً ، وَبَعْضَ العُمْلاتِ الأُخْرى .

قالَ الأَبُ العَجوزُ : « كَلّا ، كَلّا ، إِنَّني لا أَحْتاجُ إِلى كُلِّ هٰذا . وَلٰكِنْ ها هُوَ ذا كادِيرُوس : لَقَدْ سَمِعَ بِعَوْدَتِكَ فَجاءَ يُرَحِّبُ بِكَ . »

« آهِ ! إنَّ لِسانَهُ يَقولُ شَيْئًا عَلى حينِ يُفكِّرُ في شَيْءٍ آخَرَ . وَلٰكِنَّهُ جارُنا عَلى كُلِّ حالٍ ، فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ مَدَّ يَدَ ٱلْمُساعَدَةِ إِلَيْنا مَرَّةً ، فَأَهْلًا بِهِ إِذًا . »

وَما إِنْ أَتَمَّ كَلامَهُ حَتّى ظَهَرَ رَأْسُ كادِيرُوس ٱلْأَسْوَدُ مِنْ خِلالِ ٱلْبابِ .

كادِيرُوس

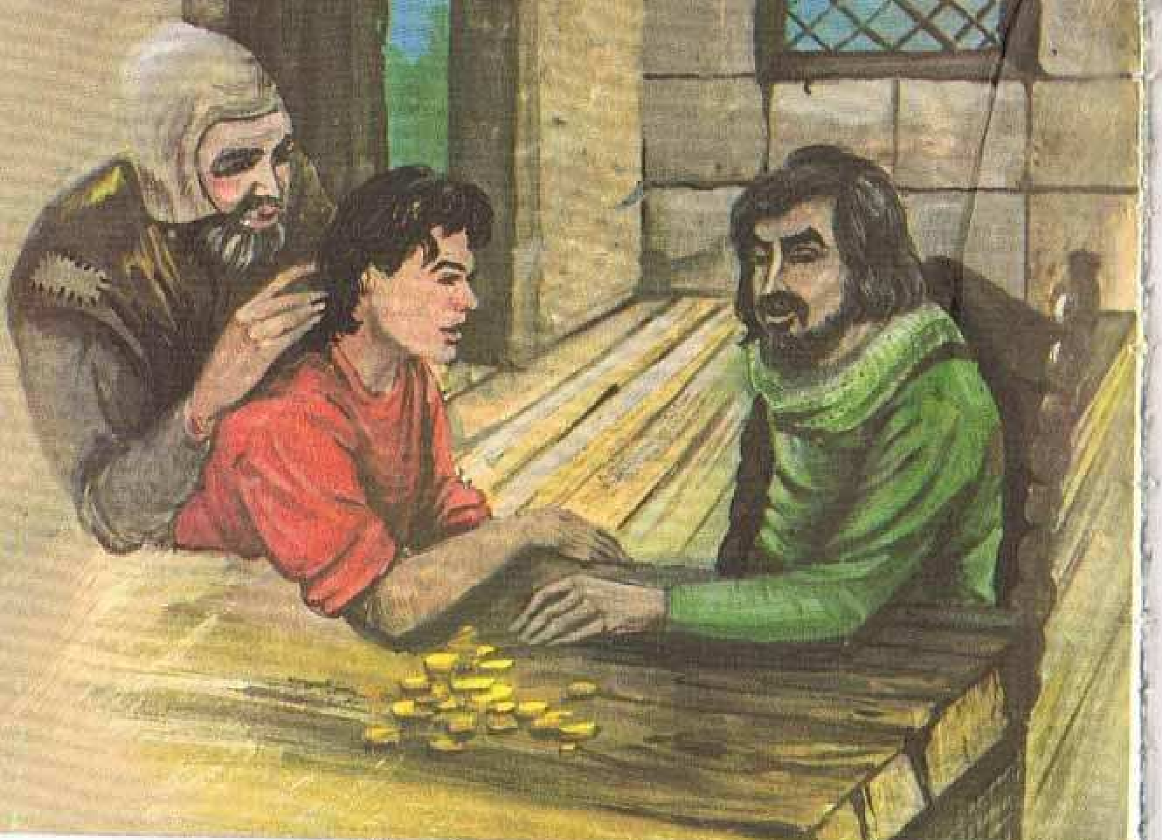
قالَ كادِيرُوس : « ها أَنْتَ ذا قَدْ عُدْتَ يا إِدْمُون ! أَهْلًا بِكَ ! »

أَجابَ دانْتِي مُحاوِلًا أَنْ يُخْفِيَ مَشاعِرَهُ ٱلْحَقيقِيَّةَ نَحْوَ كادِيرُوس : « نَعَمْ أَيُّها ٱلْجارُ . لَقَدْ عُدْتُ ، وَإِنّي عَلى ٱسْتِعْدادٍ لِأَنْ أُقَدِّمَ لَكَ ٱلْعَوْنَ بِأَيِّ سَبيلٍ . »

صاحَ كادِيرُوس وَهُوَ يُسَدِّدُ بِعَيْنَيْهِ نَظَراتٍ شَرِهَةً إِلى ٱلنُّقودِ ٱلذَّهَبِيَّةِ ٱلْمُلْقاةِ عَلى ٱلْمائِدَةِ : « لَقَدْ عُدْتَ يا صَديقي وَمَعَكَ كَثيرٌ مِنَ ٱلْمالِ . »

قالَ دانْتِي وَقَدْ أَدْرَكَ مَعْنى نَظَراتِ كادِيرُوس إِلى ٱلنُّقودِ : « إِنَّها لَيْسَتْ نُقودِي بَلْ هِيَ نُقودُ أَبي . أَعِدْها يا أَبي إِلى ٱلصُّنْدوقِ . أَمّا إِذا ٱحْتاجَ جارُنا ٱلْعَزيزُ إِلى شَيْءٍ مِنْها ، فَسَوْفَ يَسُرُّنا أَنْ نُقْرِضَهُ . »

« شُكْرًا ، شُكْرًا . فَلَسْتُ في حاجَةٍ إِلى شَيْءٍ . لَقَدْ جِئْتُ لِأَسْعَدَ



بِلِقائِكَ ، بَعْدَ أَنْ قابَلْتُ صَديقِي دانْغلارْز ٱلَّذي أَخْبَرَني بِعَوْدَتِكَ . »

صاحَ ٱلْأَبُ ٱلْعَجوزُ : « يا لَكَ مِنْ رَجُلٍ طَيِّبٍ يا كادِيرُوس ! » ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلى ٱبْنِهِ ٱلْواقِفِ إِلى جِوارِهِ وَقالَ لَهُ : « إِنَّهُ نِعْمَ ٱلصَّديقُ لَنا يا وَلَدي ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

وَبَدَتْ عَلى وَجْهِ كادِيرُوس نَظْرَةٌ خَبيثَةٌ وَهُوَ يَقولُ لِإِدْمُون : « لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ مُوريل مَسْرورٌ بِكَ ، وَأَنَّكَ تَأْمُلُ في أَنْ تُصْبِحَ ٱلرُّبّانَ ٱلْجَديدَ . »

« نَعَمْ ، أَتَوَقَّعُ ذٰلِكَ . » ثُمَّ أَبْدى رَغْبَتَهُ في مُغادَرَةِ ٱلْمَكانِ ، قائِلًا لِأَبيهِ : « وَٱلْآنَ يا أَبي ، بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُكَ وَٱطْمَأْنَنْتُ عَلَيْكَ ، عَلَيَّ أَنْ أَقومَ

بِزِيارةٍ أُخرى . »

« إذْهَبْ يا وَلَدي . بارَكَ ٱللهُ لَكَ في زَوْجَتِكَ ! »

صاحَ كادِيرُوس ساخِرًا : « زَوْجَتُهُ ؟! إنَّها لَمْ تُصْبِحْ بَعْدُ زَوْجَتَهُ . فَمِرْسِيدِيس فَتاةٌ جَميلَةٌ وَمِنْ عادَةِ ٱلجَميلاتِ أَنْ يَحومَ حَوْلَهُنَّ شُبّانٌ كَثيرونَ . وَلٰكِنْ بِما أَنَّكَ سَوْفَ تَكونُ ٱلرُّبّانَ ... »

وَقاطَعَهُ دانْتِي قائِلًا : « كَفى ! إنَّني أُحْسِنُ ٱلظَّنَّ بِٱلنِّساءِ ، وَخاصَّةً بِمِرْسِيدِيس ، ٱلَّتي أَنا عَلى يَقينٍ أَنَّها سَتَكونُ صادِقَةً مَعي سَواءٌ أَكُنْتُ أَنا ٱلرُّبّانَ أَوْ لَمْ أَكُنْ . » وَغادَرَ ٱلحُجْرَةَ .

أَمّا كادِيرُوس فَقَدْ ظَلَّ في مَكانِهِ لِعِدَّةِ دَقائِقَ ، ثُمَّ خَرَجَ هُوَ ٱلآخَرُ مُتَوَجِّهًا إلى ٱلنّاصِيَةِ ٱلقَريبَةِ حَيْثُ قابَلَ دانْغلَرْز ٱلَّذي كانَ يَنْتَظِرُهُ .

قالَ كادِيرُوس : « إنَّني عائِدٌ مِنْ عِنْدِهِ لِتَوّي . »

« هَلْ تَحَدَّثَ عَنْ أُمْنِيَّتِهِ في أَنْ يُصْبِحَ رُبّانًا ؟ »

« لَقَدْ وَعَدَهُ مُوريل بِذٰلِكَ . »

« إذًا فَهُوَ مَسْرورٌ بِهٰذا ٱلوَعْدِ . »

« بِٱلتَّأْكيدِ . وَلَقَدْ عَرَضَ أَنْ يُساعِدَني كَأَنّي أَنا ٱلجارُ ٱلفَقيرُ وَهُوَ ٱلرَّجُلُ ٱلثَّرِيُّ . »

قالَ دانْغلَرْز بِهُدوءٍ : « إنَّهُ لَمْ يُصْبِحِ ٱلرُّبّانَ بَعْدُ ؛ لِذا يُمْكِنُنا أَنْ نوقِفَ ذٰلِكَ لَوْ شِئْنا . أَلا يَزالُ يُحِبُّ تِلْكَ ٱلفَتاةَ ؟ »

« نَعَمْ ، لٰكِنَّني أَعْتَقِدُ أَنَّهُ رُبَّما لا تَزالُ ثَمَّةَ بَعْضُ ٱلعَقَباتِ ، فَفي كُلِّ مَرَّةٍ أَرى مِرْسِيدِيس أَجِدُها في صُحْبَةِ ذٰلِكَ ٱلفَتى فِرْنان ، ٱلَّذي تَقولُ عَنْهُ إنَّهُ ٱبْنُ أَخٍ أَبيها . »

قالَ دانْغلَرْز : « هَلُمَّ نَبْرَحْ هٰذا ٱلمَكانَ ، وَلْنَذْهَبْ إلى مَقْهى لارِيزِيرْف لِنَشْرَبَ ٱلشّايَ وَنَنْتَظِرَ أَنْ نَسْمَعَ .. ما سَوْفَ نَسْمَعُ . »

« هَلُمَّ بِنا عَلى أَنْ تَدْفَعَ أَنْتَ ثَمَنَ ٱلشّايِ . »

الفَصْـلُ ٱلثَّالِـثُ

مَـرْسِيدِيـــــس

فِرْنـان وَمِرْسِيدِيـس

كانَ دانْغلَرْز وَكادِيرُوس يَجْلِسانِ مَعًا إلى مائِدَةٍ واحِدَةٍ في ظِلِّ شَجَرَةٍ . وَفي أَحَدِ ٱلبُيوتِ ٱلَّتي تَبْعُدُ عَنْهُما حَوالى مِئَةِ مِتْرٍ كانَتْ تَقِفُ فَتاةٌ جَميلَةٌ عَلى مَقْرَبَةٍ مِنَ ٱلحائِطِ . كانَ شَعْرُها فاحِمًا كَسَوادِ ٱللَّيْلِ وَعَيْناها حالِكَتَيْنِ وَرائِعَتَيْنِ ، وَبِٱلقُرْبِ مِنْها وَقَفَ شابٌّ في ٱلعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ كانَ يَبْدو عَلى وَجْهِهِ ٱلغَضَبُ وَٱلخَوْفُ . قالَ لَها :

« مِرْسِيدِيس ، لَقَدْ حَلَّ شَهْرُ مايو مَرَّةً أُخْرى فَأَخْبِريني : أَ هٰذا هُوَ ٱلمَوْعِدُ ٱلَّذي ٱتَّفَقْنا عَلى ٱلزَّواجِ فيهِ ؟ »

« لَقَدْ أَجَبْتُكَ يا فِرْنان عَنْ هٰذا ٱلتَّساؤُلِ مِئاتِ ٱلمَرّاتِ ، وَكانَتْ إجاباتي في كُلِّ مَرَّةٍ واحِدَةً كَما تَعْلَمُ ، أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

« إِذًا قوليها مَرَّةً أُخْرى ، قوليها لَعَلّي في آخِرِ ٱلمَطافِ أُصَدِّقُ

ما تَقولينَ . أَخْبِريني ثانِيَةً أَنَّهُ رَغْمَ أَنَّ أُمَّكِ قَدْ مَنَحَتْني ٱلأَمَلَ في أَنْ تَكوني شَريكَةَ حَياتي ، فَإِنَّكِ تَرْفُضينَني . إِنَّكِ تَعْبَثينَ بِسَعادَتي ، وَلا تَعْني حَياتي أَوْ مَوْتي شَيْئًا بِٱلنِّسْبَةِ لَكِ . لَقَدْ ظَلِلْتُ أَحْلُمُ عَشَرَةَ أَعْوامٍ بِأَنْ أَكونَ زَوْجَكِ ، وَبَنَيْتُ حَياتي عَلى هٰذا ٱلأَمَلِ . »

أَجابَتْ مِرْسِيدِيس : « أَنا لَمْ أَعْبَثْ بِكَ قَطُّ ، وَكُنْتُ دائِمًا أَقولُ لَكَ إِنّي أُحِبُّكَ كَما أُحِبُّ أَخي ، وَلٰكِنْ لا تَتَوَقَّعْ مِنّي أَكْثَرَ مِنْ حُبِّ ٱلأُخْتِ لِأَخيها . كَذٰلِكَ قُلْتُ لَكَ إِنَّ قَلْبي لَيْسَ لَكَ بَلْ لِشَخْصٍ آخَرَ . أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ يا فِرْنان ؟ »



« بلى يا مِرْسِيدِيس ، لَقَدْ قُلْتِ ذٰلِكَ لي مِرارًا . لٰكِنَّني أَسْأَلُكِ ٱلآنَ وَلِلْمَرَّةِ ٱلأَخيرَةِ أَ هٰذا هُوَ قَرارُكِ ٱلنِّهائِيُّ ؟ »

وَجاءَ رَدُّ مِرْسِيدِيس هادِئًا وَهِيَ تَقولُ : « أَنا أُحِبُّ إِدْمُون دانْتِي ، وَلَنْ أَكونَ زَوْجَةً لِسِواهُ . »

عَـــــدُوٌّ

أَحسَّ فِرْنان بِٱلهَزيمَةِ ، فَنَكَسَ رَأْسَهُ ، وَفَجْأَةً نَظَرَ إِلى مِرْسِيدِيس وَسَأَلَها : وَلْنَفرِضْ أَنَّه ماتَ ؟ »

« إِذا ماتَ فَسَأَموتُ أَنا أَيْضًا . »

« وَإِذا كانَ قَدْ نَسِيَكِ ؟ »

وَكَأَنَّ ٱلقَدَرَ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ أَرادَ أَنْ يَسْخَرَمِنْ فِرْنان ؛ إِذْ سَمِعا صَوْتًا يُناديها مِنْ خارِجِ ٱلبَيْتِ مَمْلوءًا بَهْجَةً وَحُبورًا : « مِرْسِيدِيس ! مِرْسِيدِيس ! »

كانَ ٱلنِّداءُ مُفاجَأَةً لِمِرْسِيدِيس ، فَأَشْرَقَ وَجْهُها بِٱلحُبِّ وَقالَتْ لِفِرْنان : « إِنَّهُ لَمْ يَنْسَني يا فِرْنان ! لَمْ يَنْسَني كَما كُنْتَ تَقولُ لي مُنْذُ لَحْظَةٍ . ها هُوَ ذا إِدْمُون ! وَأَسْرَعَتْ نَحْوَ ٱلبابِ تَفْتَحُهُ قائِلَةً : « هٰأَنَذا يا إِدْمُون ! هٰأَنَذا ! »

وَتَعانَقَ إِدْمُون وَمِرْسِيدِيس ، كَأَنْ لَيْسَ في العالَمِ أَحَدٌ غَيْرَهُما ، على حينَ راحَتْ أَشِعَّةُ شَمْسِ مارْسِيلْيا ٱلذَّهَبِيَّةُ تَغْمُرُها كَأَنَّها نورٌ مِنَ ٱلسَّماءِ .

وَٱنْطَلَقَ فِرْنان خارِجًا مِنَ ٱلبَيْتِ يَجْري كَٱلمَجْنونِ وَيَصيحُ : « آهٍ ! ما أَشَدَّ حَماقَتي ! مَنْ يُنْقِذُني مِنْ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ ؟ »

وَوَصَلَ إِلى سَمْعِهِ صَوْتٌ يُناديهِ : « فِرْنان ! إِلى أَيْنَ تَعْدو ؟ »

تَوَقَّفَ فِرْنان عَنِ ٱلعَدْوِ ، فَرَأى كادِيرُوس جالِسًا مَعَ دانْغلَرْز إِلى مائِدَةٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ .

قالَ لَهُ كادِيرُوس مُعاتِبًا : « أَ بَلَغَتْ بِكَ ٱلعَجَلَةُ حَدًّا جَعَلَكَ لا تَرى صَديقَيْكَ ؟ »

فَٱتَّجَهَ نَحْوَهُما فِرْنان يَجُرُّ قَدَمَيْهِ في خُطًى بَطيئَةٍ مُتَثاقِلَةٍ .

وَعِنْدَما دَنا مِنْهُما رَمَقَ كادِيرُوس صَديقَهُ دانْغلَرْز بِنَظْرَةٍ غَريبَةٍ ، ثُمَّ قَدَّمَ لَهُ فِرْنان قائِلًا : « هٰذا فِرْنان يا دانْغلَرْز . إِنَّهُ واحِدٌ مِنْ أَمْهَرِ صَيّادي ٱلسَّمَكِ في مارْسِيلْيا . وَهُوَ يُحِبُّ فَتاةً جَميلَةً ٱسْمُها مِرْسِيدِيس ، لٰكِنَّ ٱلأُمورَ لا تَسيرُ وَفْقَ هَواهُ ؛ فَهِيَ تُحِبُّ إِدْمُون دانْتِي ٱلضّابِطَ ٱلأَوَّلَ في ٱلسَّفينَةِ فِرْعَوْن . لَقَدْ أُصْبَحَ لِلضّابِطِ ٱلأَوَّلِ ، فيما يَبْدو ، عَدُوٌّ آخَرُ . »

سَأَلَ دانْغلَرْز : « مَتى سَيَتِمُّ آلزَّواجُ ؟ »

أَجابَ فِرْنان : « لَمْ يَتَحَدَّدْ بَعْدُ . »

لٰكِنَّ كادِيرُوس قالَ مُؤَكِّدًا : « بَلْ سَوْفَ يَتَحَدَّدُ ، كَما سَيَتِمُّ بِآلتَّأْكِيدِ تَعْيِينُ دانْتِي رُبّانًا لِلسَّفِينَةِ فِرْعَون ، أَلَيْسَ ذٰلِكَ صَحِيحًا يا دانْغلَرْز ؟ »

قالَ دانْغلَرْز : « حَسَنٌ ! فَلْيَحيا آلرُّبّانُ إِدْمُون دانْتِي زَوْجُ مِرْسِيدِيس آلجَمِيلَةِ ! »

كَسَتْ عَيْنَيْ فِرْنان مَسْحَةُ بُؤْسٍ بَدَتْ واضِحَةً عَلى وَجْهِهِ . وَفي تِلْكَ آللَّحْظَةِ ظَهَرَ إِدْمُون وَمِرْسِيدِيس يَتَأَبَّطُ أَحَدُهُما ذِراعَ آلآخَرِ في سَعادَةٍ بالِغَةٍ .

قامَ كادِيرُوس مِنْ مَقْعَدِهِ وَهُوَ يَصِيحُ قائِلًا : « أَلا تَرى أَصْدِقاءَكَ يا إِدْمُون ؟ أَمْ أَنَّ كِبْرِياءَكَ تَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تَتَحَدَّثَ إِلَيْهِمْ ؟ »

أَجابَ إِدْمُون : « لا يا صَدِيقِيَ آلعَزِيزَ ، إِنَّنِي لَسْتُ مُتَكَبِّرًا ، وَلٰكِنَّنِي سَعِيدٌ وَقَدْ غَمَرَتْنِي آلسَّعادَةُ حَتّى حَجَبَتْ عَنِّي رُؤْيَتَكُمْ . »

قالَ دانْغلَرْز : « صَحِيحٌ ! وَهٰذا سَبَبٌ وَجِيهٌ ! لٰكِنْ مَتى يَتِمُّ

آلزَّواجُ »

« بِأَسْرَعِ ما يُمْكِنُ : رُبَّما غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ ، هُنا في لارِيزِيرْف . وَنَأْمُلُ أَنْ تَحْضُرَ أَنْتَ وَكادِيرُوس . »

اِلْتَقَطَ كادِيرُوس خَيْطَ آلحَدِيثِ فَتَساءَلَ ضاحِكًا : « وَماذا عَنْ فِرْنان ؟ أَمَدْعُوٌّ هُوَ أَيْضًا إِلى آلحَفْلِ ؟ »

أَجابَ إِدْمُون : « بِآلطَّبْعِ فَهُوَ أَخِي ، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ أَخٍ لِزَوْجَتِي ، وَلَنْ تَكْتَمِلَ سَعادَتُنا إِلّا بِحُضُورِهِ حَفْلَ زَواجِنا . »

وَأَرادَ فِرْنان أَنْ يَقُولَ شَيْئًا ، وَلٰكِنَّ لِسانَهُ لَمْ يُسْعِفْهُ بِكَلِمَةٍ . أَمّا دانْغلَرْز فَقالَ : « غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ ! إِنَّكُما في عَجَلَةٍ أَيُّها آلرُّبّانُ . »

قالَ إِدْمُون : « أَنا لَسْتُ رُبّانًا بَعْدُ يا دانْغلَرْز . أَمّا أَنَّنا في عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِنا فَهٰذا صَحِيحٌ ، إِذْ عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ إِلى بارِيس . »

« بارِيس ؟ هَلْ تَعْنِي أَنَّ لَدَيْكَ عَمَلًا هُناكَ ؟ »

« لَيْسَ عَمَلًا خاصًّا بِي ، لٰكِنَّهُ أَمْرٌ يَخُصُّ آلرُّبّانَ لُكْلِرك كَلَّفَنِي بِهِ وَهُوَ يُحْتَضَرُ . »

قالَ دانْغلَرْز : « نَعَمْ ! نَعَمْ ! مَفْهُومٌ ! » ثُمَّ أَضافَ قائِلًا لِنَفْسِهِ : « إِلى بارِيس ، لِتَحْمِلَ رِسالَةَ آلمارْشالِ بِرْتران إِلى هُناكَ ، ما في ذٰلِكَ

شَكٌّ . لَقَدْ خَطَرَتْ لي فِكْرَةٌ . إنَّكَ لَمْ تُصْبِحْ رُبّانًا لِلسَّفينَةِ فِرْعَوْن بَعْدُ يا صَديقي دانْتِي . » ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إلى إدْمُون ٱلَّذي كانَ يَبْتَعِدُ مُغادِرًا ٱلْمَكانَ ، وَصاحَ بِهِ : « رِحْلَةً سَعيدَةً يا إدْمُون ! » فَرَدَّ عَلَيْهِ إدْمُون في صَوْتٍ وَدودٍ : « شُكْرًا ! » ثُمَّ مَضى ٱلعاشِقانِ في طَريقِهِما وَقَدْ فاضَ قَلْباهُما حُبورًا .

مُهِمَّةٌ قَذِرَة

نادى دانْغلَرْز عَلى صَبِيِّ ٱلْمَقْهى وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُحْضِرَ لَهُ قَلَمًا وَوَرَقًا ، فَلَمّا جاءَهُ بِهِما قالَ كادِيرُوس : « غَريبٌ أَنْ يَكونَ ٱلقَلَمُ أَشَدَّ فَتْكًا لِلرَّجُلِ مِنْ بَلْطَةٍ تَتَرَبَّصُ لَهُ بِها في ظَلامِ ٱللَّيْلِ ! »

وَسَأَلَهُما فِرْنان : « ماذا تُزْمِعانِ أَنْ تَفْعَلا ؟ »

أَجابَهُ دانْغلَرْز : « سَأُخْبِرُكَ بِٱلأَمْرِ . لَقَدْ عادَ دانْتِي لِتَوِّهِ مِنْ رِحْلَةٍ تَوَقَّفَ خِلالَها في جَزيرَةِ إلْبا . سَوْفَ نُرْسِلُ خِطابًا إلى مَسْئولٍ في ٱلْحُكومَةِ نَقولُ فيهِ إنَّ دانْتِي مِنْ رِجالِ نابُلْيون ، وَإنَّهُ يَعْمَلُ عَلى إعادَتِهِ إلى فَرَنْسا حاكِمًا لَها بَدَلًا مِنْ مَليكِنا ٱلْمُعَظَّمِ . »

صاحَ فِرْنان عَلى ٱلفَوْرِ : « سَوْفَ أَكْتُبُ أَنا هٰذا ٱلخِطابَ . » غَيْرَ أَنَّ دانْغلَرْز قاطَعَهُ قائِلًا : « كَلّا يا فِرْنان ، لا تَفْعَلْ ! وَإلّا خَسِرْتَ قَلْبَ مِرْسيدِيس إلى ٱلأَبَدِ . فَمِنَ ٱلأَفْضَلِ أَنْ أَخُطَّهُ أَنا بِيَدِيَ ٱلْيُسْرى . »

وَبَدَأَ دانْغلَرْز يَكْتُبُ :



« يَعْتَقِدُ أَحَدُ أَصْدِقاءِ ٱلْمَلِكِ أَنَّ مِنْ مَصْلَحَةِ أَعْوانِ ٱلْمَلِكِ أَنْ يُحاطوا عِلْمًا بِأَنَّ إدْمُون دانْتِي ، أَحَدَ بَحّارَةِ ٱلسَّفينَةِ فِرْعَوْن قَدْ أَحْضَرَ مَعَهُ مِنْ جَزيرَةِ إلْبا رِسالَةً لِيُسَلِّمَها إلى نابُلْيون في باريس ، وَإذا قَبَضْتُمْ عَلَيْهِ فَسَوْفَ تَعْثُرونَ عَلى ٱلرِّسالَةِ في حَوْزَتِهِ أَوْ في مَنْزِلِ أَبيهِ أَوْ داخِلَ غُرْفَتِهِ بِٱلسَّفينَةِ . »

فَرَغَ دانْغلَرْز مِنْ كِتابَةِ ٱلخِطابِ ، وَوَضَعَهُ داخِلَ ظَرْفٍ كَتَبَ عَلَيْهِ ٱسْمَ « فِيلْفُور » ، ثُمَّ تَنَفَّسَ ٱلصُّعَداءَ وَهُوَ يَقولُ : « بِهٰذا نَكونُ قَدْ فَرَغْنا مِنَ ٱلأَمْرِ ! »

فَعقَّبَ كادِيرُوس بِقَوْلِهِ : « نَعَمْ فَرَغْنا مِنْهُ ، وَلٰكِنَّها مُهِمَّةٌ قَذِرَةٌ . » ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ لِيَأْخُذَ ٱلخِطابَ .

فَقالَ دانْغلَرْز : « إِذًا فَلَنْ نُرْسِلَهُ . » ثُمَّ أَلْقى بِهِ عَلى ٱلأَرْضِ .

قالَ كادِيرُوس : « وَهُوَ كَذٰلِكَ . هَيَّا بِنا . » ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلى فِرْنان سائِلًا : « أَ لَنْ تَأْتِيَ مَعَنا يا فِرْنان ؟ »

أَجابَهُ فِرْنان : « نَعَمْ ، سَأَبْقى هُنا . »

اِنْطَلَقَ دانْغلَرْز وَكادِيرُوس صَوْبَ ٱلميناءِ ، وَما كادا يَبْتَعِدانِ قَليلًا حَتّى ٱلْتَفَتَ دانْغلَرْز وَراءَهُ ، فَرَأى فِرْنانَ يَلْتَقِطُ ٱلخِطابَ مِنَ ٱلأَرْضِ ، وَراحَ يَعْدو بِهِ نَحْوَ ٱلمَدينَةِ .

بِٱسْمِ ٱلقانـونِ

أَشْرَقَتْ شَمْسُ الصَّباحِ صافِيَةً جَميلَةً ، فَصَبَغَتِ ٱلسَّماءَ بِلَوْنِ ٱلذَّهَبِ ، وَكَسَتْ زَبَدَ ٱلبَحْرِ بَياضًا ناصِعًا كَٱلثَّلْجِ .

وَكانَتْ قَدْ أُعِدَّتْ في مَقْهى لارِيزِيرْف وَليمَةٌ شَهِيَّةٌ ٱحْتِفالًا بِالزَّواجِ ، وَكانَ هُناكَ كَثيرونَ مِنْ بَحّارَةِ ٱلسَّفينَةِ فِرْعَوْن ، وَأَصْدِقاءُ آخَرونَ لِدانْتِي مُرْتَدينَ جَميعُهُمْ أَفْخَمَ ٱلثِّيابِ .

وَعَلَتِ ٱلأَصْواتُ مُعْلِنَةً مَقْدَمَ مُورِيل ، ٱلَّذي فَهِمَ بَحّارَةُ ٱلسَّفينَةِ مِنْ

حُضورِهِ ٱلعُرْسَ أَنَّ دانْتِي هُوَ رُبّانُ ٱلسَّفينَةِ ٱلمُنْتَظَرُ . وَكانَ دانْتِي مَوْضِعَ حُبٍّ وَتَقْديرٍ مِنَ ٱلجَميعِ ، وَمِنْ ثَمَّ ٱرْتَفَعَتْ أَصْواتُهُمْ وَقْتًا طَويلًا تُعْلِنُ عَنْ بَهْجَتِهِمْ .

وَسَأَلَتْ مِرْسِيدِيس بِصَوْتٍ عَذْبٍ رَنّانٍ : « هَلْ نَبْدَأُ ؟ إِنَّها ٱلثّانِيَةُ ٱلآنَ ، وَٱلنّاسُ في ٱنْتِظارِنا . »

فَقامَ ٱلمَدْعُوّونَ وَأَخَذوا يَنْتَظِمونَ صَفًّا واحِدًا ، في ٱللَّحْظَةِ ٱلَّتي وَصَلَ فيها إِلى أَسْماعِهِمْ صَوْتُ ثَلاثِ طَرَقاتٍ عَلى ٱلبابِ ، وَصَوْتُ رَجُلٍ يَقولُ : « افْتَحوا بِٱسْمِ ٱلقانونِ . » ثُمَّ دَخَلَ ضابِطٌ يَتْبَعُهُ أَرْبَعَةُ جُنودٍ ، وَسَأَلَ : « أَيْنَ ٱلمَدْعُوُّ إِدْمُون دانْتِي ؟ »

أَجابَ إِدْمُون : « هٰأَنَذا ! لٰكِنْ لِماذا تَطْلُبونَني ؟ »

« لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُخْبِرَكَ . وَلٰكِنَّكَ سَوْفَ تَعْرِفُ ٱلسَّبَبَ فيما بَعْدُ . »

اِلْتَفَتَ إِدْمُون إِلى ٱلمَدْعُوّينَ قائِلًا : « لا داعِيَ لِلْقَلَقِ أَيُّها ٱلأَصْدِقاءُ . لا بُدَّ أَنَّ ثَمَّةَ لُبْسًا ، وَسَوْفَ يَزولُ هٰذا ٱللُّبْسُ حالًا . هٰذا كُلُّ ما هُنالِكَ ، وَأَنا مِنْهُ عَلى يَقينٍ . »

قالَ دانْغلَرْز : « بِٱلتَّأْكيدِ ثَمَّةَ لُبْسٌ ما لَيْسَ إِلّا . »

وَهَبَطَ دانْتِي إِلى ٱلفِناءِ يَتْبَعُهُ ٱلجُنودُ ، عَلى حينَ صَرَخَتْ مِرْسِيدِيس



قائِلَةً : « كانَ اللهُ مَعَكَ يا أَعَزَّ النّاسِ . »

فَقالَ لَها دانْتِي وَهُوَ يَبْتَعِدُ : « وَمَعَكِ أَنْتِ أَيْضًا يا مِرْسِيدِيس .
لا تَقْلَقي ، فَسَوْفَ أَعودُ حالًا . »

الفَصْلُ الرّابِعُ

القاضي

« أَلَكَ أَعْداء ؟ »

مَدَّ القاضي ڤِيلْفور يَدَهُ وَتَناوَلَ وَرَقَةً مِنْ أَحَدِ رِجالِهِ ، وَقالَ لَهُ :
« أَدْخِلِ السَّجينَ . »

وَدَخَلَ دانْتِي .

سَأَلَهُ القاضي : « ما اسْمُكَ وَما وَظيفَتُكَ ؟ »

فَأَجابَ الشّابُّ : « اِسْمي إِدْمُون دانْتِي وَأَعْمَلُ ضابِطًا لِلسَّفينَةِ فِرْعَوْن ، إِحْدى سُفُنِ مُورِيل . »

« عُمْرُكَ ؟ »

« عِشْرونَ عامًا . »

« ماذا كُنْتَ تَفْعَلُ لَحْظَةَ أَنْ قُبِضَ عَلَيْكَ ؟ »

« كُنْتُ أَحْتَفِلُ بِزِفافي . » ثُمَّ تَهَدَّجَ صَوْتُهُ . فَقَدْ كانَتْ فِكْرَةُ آلانْتِقالِ مِنَ آلسَّعادَةِ آلَّتي كانَ فيها إِلى حَيْثُ هُوَ آلآنَ أَقْسى مِمّا يَحْتَمِلُ .

« تَحْتَفِلُ بِزِفافِكَ ؟! »

« نَعَمْ يا سَيِّدي ، كُنْتُ أوشِكُ أَنْ أَتَزَوَّجَ فَتاةً أُحِبُّها مُنْذُ ثَلاثِ سَنَواتٍ . »

وَشَعَرَ ڤيلْفور بِحُزْنٍ شَديدٍ عِنْدَ سَماعِهِ هٰذا ، لٰكِنَّهُ آسْتَمَرَّ في آسْتِجْوابِهِ :

« هَلْ كُنْتَ جُنْدِيًّا تَحْتَ قِيادَةِ نابُلْيون ؟ »

« لَقَدْ كُنْتُ عازِمًا عَلى آلانْضِمامِ لِإِحْدى سُفُنِهِ عِنْدَما سَقَطَ عَنْ كُرْسِيِّ آلحُكْمِ . »

« يُقالُ إِنَّكَ رَجُلٌ خَطِرٌ ، وَإِنَّكَ تَعْمَلُ عَلى عَوْدَةِ نابُلْيون إِلى آلحُكْمِ ، فَما قَوْلُكَ ؟ »

« أَنا ؟ خَطِرٌ ؟ إِنَّ سِنّي لا تَتَجاوَزُ آلعِشْرينَ ، وَلا أَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ هٰذِهِ آلأُمورِ وَلا أُفَكِّرُ فيها . إِنَّ ثَلاثَةَ أَشْياءَ فَقَطْ هِيَ آلَّتي تَشْغَلُني : حُبّي لِأَبي ، وَحُبّي لِموريل ، ثُمَّ حُبّي آلأَكْبَرُ لِمِرْسيدِيس . ذٰلِكَ يا سَيِّدي هُوَ كُلُّ ما أَسْتَطيعُ أَنْ أَقولَهُ لَكَ . »

« أَ لَكَ أَعْداءٌ ؟ »

« أَعْداءٌ ؟ ! لَسْتُ مُهِمًّا إِلى آلحَدِّ آلَّذي يَكونُ لي فيهِ أَعْداءٌ . صَحيحٌ أَنَّ هُناكَ عَلى آلسَّفينَةِ عَشَرَةَ رِجالٍ أَوْ أَكْثَرَ قَليلًا يَخْضَعونَ لِأَوامِري ، لٰكِنَّكَ لَوْ رُحْتَ تَسْأَلُهُمْ عَنّي لَأَجْمَعوا كُلُّهُمْ عَلى أَنَّهُمْ يُحِبّونَني ، لا كَوالِدٍ لَهُمْ ، فَأَنا أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ ، بَلْ كَأَخٍ أَكْبَرَ . »

« إِنَّكَ توشِكُ أَنْ تُصْبِحَ رُبّانًا لِسَفينَةٍ وَأَنْتَ لا تَزالُ في آلعِشْرينَ مِنْ عُمْرِكَ ، وَسَتَتَزَوَّجُ فَتاةً جَميلَةً تُحِبُّكَ . فَلَعَلَّ هٰذا هُوَ آلسَّبَبُ في أَنَّ ثَمَّةَ مَنْ يُعاديكَ . »

« قَدْ يَكونُ هٰذا صَحيحًا يا سَيِّدي آلقاضي ، فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِآلنّاسِ مِنّي . »

وَقَدَّمَ ڤيلْفور وَرَقَةً لِإِدْمون قائِلًا : « لَقَدْ جاءَتْني هٰذِهِ آلوَرَقَةُ ، فَهَلْ تَعْرِفُ خَطَّ مَنْ هٰذا ؟ »

قَرَأَ دانْتِي آلوَرَقَةَ ، وَسُرْعانَ ما كَسَتْ وَجْهَهُ سَحابَةٌ مِنَ آلحُزْنِ ، وَأَجابَ : « كَلّا يا سَيِّدي ، لا يُمْكِنُني أَنْ أَتَعَرَّفَ عَلى كاتِبِ هٰذِهِ آلرِّسالَةِ ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَمِنَ آلواضِحِ أَنَّهُ عَدُوٌّ لَدودٌ لي . »

وَلَمّا كانَ ڤيلْفور قاضِيًا نافِذَ آلبَصيرَةِ ، فَقَدِ آسْتَطاعَ أَنْ يَسْتَشِفَّ مِنْ وَراءِ كَلِماتِ دانْتِي آلرَّقيقَةِ صَلابَةً وَعَزْمًا ، وَقالَ : « وَآلآنَ خَبِّرْني



لا كَسَجينٍ لِقاضيهِ ، بَلْ كَرَجُلٍ لِرَجُلٍ : ما مَدى ٱلصِّدْقِ في هٰذِهِ ٱلرِّسالَةِ ؟ »

« لَيْسَ فيها ذَرَّةٌ مِنَ ٱلصِّدْقِ يا سَيِّدي ، وَسَوْفَ أُخْبِرُكَ بِٱلحَقيقَةِ كامِلَةً . عِنْدَما سَقَطَ ٱلرُّبّانُ لُكْلِرْك مَريضًا ، كُنّا قَدْ غادَرْنا ميناءَ نابولي ، غَيْرَ أَنَّهُ في ٱلْيَوْمِ ٱلثّالِثِ عِنْدَما ٱشْتَدَّ عَلَيْهِ مَرَضُهُ وَأَحَسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ ناداني قائِلًا : ' يا عَزيزي دانْتي ، عِدْني أَنْ تَفْعَلَ ما أَطْلُبُهُ مِنْكَ ، إِنَّهُ أَمْرٌ جِدُّ هامٍّ ' . وَلَمّا وَعَدْتُهُ أَنْ أَفْعَلَ مَضى في حَديثِهِ قائِلًا : ' إِنَّكَ سَتَكونُ ٱلرُّبّانَ بَعْدَ مَوْتي . اِذْهَبْ إِلى جَزيرَةِ إِلْبا ، وَٱبْحَثْ عَنِ ٱلمارْشال

بِرْتران ، ثُمَّ سَلِّمْهُ هٰذِهِ ٱلرِّسالَةَ وَٱنْتَظِرْ ، فَقَدْ يُعْطيكَ هُوَ بِدَوْرِهِ رِسالَةً أُخْرى وَيَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تُسَلِّمَها إِلى شَخْصٍ ما . وَهٰكَذا تَكونُ قَدْ قُمْتَ بِٱلْمُهِمَّةِ ٱلَّتي كُنْتُ سَأَقومُ أَنا بِها لَوْ أَنّي بَقيتُ حَيًّا ' . »

« ماذا فَعَلْتَ عِنْدَئِذٍ ؟ »

« قُمْتُ بِما طُلِبَ مِنّي ، وَفي مِثْلِ ظُروفي لَمْ يَكُنْ لِأَيِّ شَخْصٍ أَنْ يَفْعَلَ غَيْرَ ما فَعَلْتُ ، فَإِذا كانَ ٱلعُرْفُ قَدْ قَضى في كُلِّ مَكانٍ أَنْ يَسْتَجيبَ ٱلنّاسُ لِرَغَباتِ إِنْسانٍ يُحْتَضَرُ ، فَإِنَّ ٱلأَمْرَ بِٱلنِّسْبَةِ لِلْبَحّارَةِ يَكونُ أَشَدَّ ؛ إِذْ تَصيرُ رَغَباتُ ٱلرُّبّانِ ٱلأَخيرَةُ أَوامِرَ .

« وَعِنْدَما وَصَلْتُ إِلْبا ذَهَبْتُ وَحْدي إِلى ٱلشّاطِئِ ، وَسَلَّمْتُ ٱلرِّسالَةَ لِلْمارْشال بِرْتران ، فَأَعْطاني هُوَ بِدَوْرِهِ رِسالَةً لِأُسَلِّمَها إِلى شَخْصٍ في باريس . فَجِئْتُ إِلى هُنا لِأَزورَ خَطيبَتي ، وَنُعِدَّ مَعًا حَفْلَ زِفافِنا ٱلَّذي بَدَأَتْ مَراسِمُهُ بِٱلفِعْلِ ، وَكُنْتُ أَنْوي أَنْ أَتَوَجَّهَ إِلى باريس غَدًا . »

نوارْتييه

اِسْتَطاعَ ڤيلْفور أَنْ يَسْتَشِفَّ ٱلصِّدْقَ ثانِيَةً وَراءَ كَلِماتِ دانْتي ، فَقالَ لَهُ : « يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّكَ تَقولُ ٱلحَقيقَةَ ، غَيْرَ أَنَّ هُناكَ ما آخُذُهُ عَلَيْكَ : لَقَدْ كانَتْ طاعَتُكَ لِرَئيسِكَ عَمْياءَ ، فَلَمْ تَكُنْ حَصيفًا بِحَيْثُ تَتَرَوّى أَوْ تَبْحَثُ ٱلأُمورَ بِحِكْمَةٍ مِمّا جَلَبَ عَلَيْكَ ٱلمَتاعِبَ ٱلكَثيرَةَ . أَعْطِني

ٱلرِّسالَةَ ٱلَّتي أُحْضَرْتَها مَعَكَ مِنْ إِلْبا ، وَعِدْني أَنْ تَمْثُلَ أَمامي مَرَّةً أُخْرى إِذا ما ٱسْتَدْعَيْتُكَ . وَتَسْتَطيعُ ٱلآنَ أَنْ تَنْصَرِفَ وَتَرْجِعَ إِلى أَصْدِقائِكَ . »

صاحَ دانْتي فَرِحًا : « أَيَعْني ذٰلِكَ أَنّي حُرٌّ ؟ »

« نَعَمْ ، عَلى أَنْ تُسَلِّمَني ٱلرِّسالَةَ ٱلَّتي مَعَكَ . »

« لٰكِنَّ ٱلرِّسالَةَ في حَوْزَتِكَ فِعْلًا يا سَيِّدي ٱلقاضي ، فَقَدْ أَخَذوها مِنّي ضِمْنَ رَسائِلَ أُخْرى أَراها هُناكَ عَلى ٱلمِنْضَدَةِ . »

مَدَّ دانْتي يَدَهُ يَأْخُذُ قُبَّعَتَهُ لِيَمْضِيَ ، فَٱسْتَوْقَفَهُ ڤيلْفور وَسَأَلَهُ : « ما ٱسْمُ ٱلشَّخْصِ ٱلمُرْسَلَةِ إِلَيْهِ ٱلرِّسالَةُ ؟ »

« نوارْتييه ، بِشارِعِ هِرُون بِباريس . »

لَوْ أَنَّ سَقْفَ ٱلحُجْرَةِ لَحْظَتَها سَقَطَ عَلى ٱلأَرْضِ ، لَما ٱنْتابَ ڤيلْفور ما ٱنْتابَهُ مِنْ دَهْشَةٍ .

فَقَدْ راحَ يُرَدِّدُ بِصَوْتٍ خَفيضٍ كَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ إِلى نَفْسِهِ : « نوارْتييه ! نوارْتييه ! » مِمّا جَعَلَ دانْتي يَقْتَرِبُ مِنْهُ وَيَسْأَلُهُ : « نَعَمْ يا سَيِّدي ! هَلْ تَعْرِفُهُ ؟ »

أَجابَهُ ڤيلْفور : « كَلّا بِالطَّبْعِ ، وَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَكونَ خادِمٌ أَمينٌ

لِلْمَلِكِ مِثْلي عَلى مَعْرِفَةٍ بِمَنْ يَعْمَلونَ عَلى تَجْريدِهِ مِنْ سُلْطانِهِ وَإِعادَةِ نابُليون إِلى ٱلحُكْمِ ؟ »

إِسْتَبَدَّ ٱلخَوْفُ بِدانْتي ، وَمَلَأَتْهُ كَلِماتُ ڤيلْفور رُعْبًا ، فَراحَ يَسْأَلُ مُسْتَفْسِرًا : « هَلْ حَقًّا أَرادوا ذٰلِكَ يا سَيِّدي ؟ لَقَدْ سَبَقَ لي يا سَيِّدي ٱلقاضِيَ أَنْ قُلْتُ لَكَ إِنّي لا أَعْرِفُ شَيْئًا عَمّا جاءَ في ٱلرِّسالَةِ . »

« نَعَمْ ، لٰكِنَّكَ تَعْرِفُ ٱسْمَ ٱلشَّخْصِ ٱلمُرْسَلَةِ إِلَيْهِ ٱلرِّسالَةُ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

« بِٱلطَّبْعِ ، فَقَدْ قَرَأْتُهُ كَيْ أَعْرِفَ إِلى مَنْ سَأُسَلِّمُها . »

وَبَدَتْ عَلى وَجْهِ ڤيلْفور صُفْرَةٌ كَصُفْرَةِ ٱلمَوْتِ وَهُوَ يَسْأَلُ دانْتي : « هَلْ أَطْلَعْتَ أَحَدًا عَلى ٱلرِّسالَةِ ؟ »

« لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْها أَحَدٌ يا سَيِّدي . »

وَقَرَأَ ڤيلْفور ٱلرِّسالَةَ ثُمَّ غَطّى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ ، وَأَخَذَ يُفَكِّرُ : « آهِ لَوْ عَرَفَ هٰذا ٱلشّابُّ ما تَحْتَويهِ ٱلرِّسالَةُ ! آهِ لَوْ عَرَفَ أَنّي ٱسْتَبْدَلْتُ بِٱسْمي ٱسْمًا آخَرَ ، وَأَنَّ نوارْتييه هٰذا هُوَ أَبي ! إِذًا لَضِعْتُ ! »

« دَعْني أَتَأَكَّدُ »

نَظَرَ ڤيلْفور إِلى عَيْنَيْ دانْتي مُحاوِلًا أَنْ يَقْرَأَ أَفْكارَهُ ثُمَّ قالَ لَهُ :

« كُنتُ آمُلُ أَنْ أُفرِجَ عَنكَ ٱللَّيْلَةَ ، لٰكِنَّنِي لا أَستَطيعُ . وَعَلَيَّ أَنْ أُبقِيَكَ لِبَعضِ ٱلوَقْتِ ، وَسَوْفَ أُحاوِلُ أَنْ يَكونَ بَقاؤُكَ هُنا أَقصَرَ ما يُمْكِنُ ؛ إِذْ لَيْسَ ثَمَّةَ دَليلٌ ضِدَّكَ غَيْرَ هٰذا ٱلخِطابِ ، وَهٰأَنذا كَما تَرى أُلْقيهِ في ٱلنّارِ . »

قالَ ذٰلِكَ ، وَأَخَذَ ٱلرِّسالَةَ ٱلمَوْضوعَةَ أَمامَهُ عَلى ٱلمِنضَدَةِ ، وَأَلْقى بِها في نارِ ٱلمِدْفَأَةِ ٱلمُشْتَعِلَةِ ، وَٱنْتَظَرَ حَتّى ٱحْتَرَقَتْ تَمامًا .

وَصاحَ دانْتِي مُبْتَهِجًا وَهُوَ يَرى دَليلَ ٱتِّهامِهِ يَحْتَرِقُ : « ما أَطْيَبَ قَلْبَكَ يا سَيِّدي ٱلقاضِيَ ! »

غَيْرَ أَنَّ ڤِيلْفور قالَ لَهُ : « أَنصِتْ إِلَيَّ : بِمَقْدورِكَ أَنْ تَثِقَ بي بَعْدَ ٱلَّذي فَعَلْتُهُ ٱلآنَ . وَسَتَبْقى هُنا ٱللَّيْلَةَ ، وَإِذا ٱسْتَجْوَبَكَ أَحَدٌ ، فَلا تُخْبِرْهُ بِشَيْءٍ عَنْ هٰذِهِ ٱلرِّسالَةِ ، وَلا تَنْطِقْ بِٱسْمِ نوارْتِييه . »

« أَعِدُكَ سَيِّدي ٱلقاضِيَ . »

« أَهِيَ ٱلرِّسالَةُ ٱلوَحيدَةُ ٱلَّتي كانَتْ مَعَكَ ؟ »

« نَعَمْ . »

وَدَقَّ ڤِيلْفور جَرَسًا أَمامَهُ فَدَخَلَ أَحَدُ ٱلجُنودِ ، فَأَمَرَ ٱلقاضي دانْتِي أَنْ يَتْبَعَ ٱلجُنْدِيَّ . وَما إِنْ أُغْلِقَ ٱلبابُ وَراءَهُما حَتّى ٱرْتَمى ڤِيلْفور عَلى مَقْعَدٍ قائِلًا : « أَهٰكَذا دائِمًا يا أَبي تَحولُ بَيْني وَبَيْنَ سَعادَتي ؟ تُرى

ماذا كانَ يَحْدُثُ لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ عَرَفَ أَمْرَ ٱلرِّسالَةِ ؟ أَلا تَكونُ هٰذِهِ هِيَ نِهايَتي ؟ لٰكِنْ عَلَيَّ أَنْ أَتَأَكَّدَ ، تَمامًا ، أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَعْرِفَ أَمْرَ تِلْكَ ٱلرِّسالَةِ . »

الفَصْلُ ٱلخامِسُ

السِّجْـــــنُ

أيْـــنَ ؟

اقْتِيدَ دانْتِي إلى حُجْرَةٍ صَغيرَةٍ نَظيفَةٍ ، بِها نافِذَةٌ واحِدَةٌ بِقُضْبانٍ حَديدِيَّةٍ . وَحَلَّ ٱلمَساءُ ، وَمَعَهُ ٱلظَّلامُ ، وَجَلَسَ دانْتِي في ٱلظُّلْمَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ فَقَدَ ٱلأَمَلَ تَمامًا ، فَكانَ دائِمًا يُسْرِعُ صَوْبَ ٱلبابِ مَعَ كُلِّ صَوْتٍ يَصِلُ إلى أُذُنَيْهِ مِنَ ٱلخارِجِ .

وَفي حَوالى ٱلعاشِرَةِ كانَ ٱليَأْسُ قَدْ بَدَأَ يَتَمَلَّكُهُ لٰكِنْ لَمْ تَمْضِ لَحْظَةٌ حَتّى وَصَلَ إلى أَسْماعِهِ وَقْعُ خُطُواتٍ عِنْدَ ٱلبابِ وَدَوَرانُ ٱلمِفْتاحِ فيهِ .

وَدَخَلَ ضابِطٌ وَمِنْ خَلْفِهِ أَرْبَعَةُ جُنودٍ ، فَأَخَذوهُ مَعَهُمْ إلى ٱلخارِجِ ، ثُمَّ ٱنْطَلَقوا بِهِ عَبْرَ طُرُقاتِ ٱلمَدينَةِ حَتّى ٱنْتَهى بِهِمُ ٱلمَطافُ إلى شاطِئِ ٱلبَحْرِ . وَكانَ هُناكَ جُنودٌ آخَرونَ ، فَأَخَذوا يَنْظُرونَ إلى دانْتِي بِفُضولٍ بَيْنَما كانَ يَتِمُّ إنْزالُهُ في قارِبٍ صَغيرٍ سُرْعانَ ما ٱنْطَلَقَ بِهِ .



في ٱلدَّقائِقِ ٱلأُولى غَمَرَ دانْتِي سُرورٌ طاغٍ وَهُوَ يَتَنَسَّمُ هَواءَ ٱللَّيْلِ ٱلمُنْعِشَ ، غَيْرَ أَنَّ إحْساسًا بِٱلحُزْنِ داخَلَهُ عِنْدَما جاوَزَ ٱلقارِبُ لارِيزِيرْف .

وَسَأَلَ : « إلى أَيْنَ تَقْتادونَني ؟ »

لَمْ يَتَلَقَّ غَيْرَ رَدٍّ مُقْتَضَبٍ مِنْ كَلِمَتَيْنِ : « سَوْفَ تَعْرِفُ . »

فَحاوَلَ أَنْ يَعْتَرِضَ قائِلًا : « وَلٰكِنْ ... »

غَيْرَ أَنَّ ٱلضّابِطَ عاجَلَهُ بِقَوْلِهِ : « غَيْرُ مَسْموحٍ لَنا أَنْ نَرُدَّ عَلى أَيَّةِ أَسْئِلَةٍ . »

وَٱنْتابَتْهُ ٱلْهَواجِسُ وَٱلْأَفْكارُ ٱلسَّوْداءُ : أَ مِنَ ٱلْمُمْكِنِ أَنْ يَكونوا مُتَّجِهينَ بِهِ صَوْبَ نُقْطَةٍ بَعيدَةٍ عَنِ ٱلشّاطِئِ ؟ أَ لَيْسَ مِمّا يَدْعو إِلى ٱلاطْمِئْنانِ أَنَّ ٱلْقارِبَ صَغيرٌ لا يَقْوى عَلى ٱلْإِبْحارِ لِمَسافَةٍ طَويلَةٍ ؟ وَٱلْقاضي ، أَ لَمْ يُهَدِّئْ مِنْ روعِهِ وَيُنَبِّئْهُ بِأَنَّهُ لا شَيْءَ يَدْعوهُ إِلى ٱلْخَوْفِ إِذا لَمْ يُصَرِّحْ بِٱسْمِ نوارْتييه ؟ أَ لَمْ يَكُنِ ٱلرَّجُلُ كَريمًا مَعَهُ إِذْ أَحْرَقَ أَمامَهُ مُسْتَنَدَ إِدانَتِهِ ٱلْوَحيدَ ؟

وَٱنْتَظَرَ دانْتي صامِتًا مُحاوِلًا ٱلتَّحْديقَ في ٱلظَّلامِ ، فَٱكْتَشَفَ أَنَّهُمْ يَتَّجِهونَ بِهِ إِلى عُرْضِ ٱلْبَحْرِ بَعيدًا عَنْ كُلِّ مَنْ هُوَ حَبيبٌ إِلى نَفْسِهِ .

وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهْدَأَ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ، فَٱتَّجَهَ إِلى أَقْرَبِ جُنْدِيٍّ إِلَيْهِ وَأَمْسَكَ بِيَدِهِ قائِلًا : « مِنْ فَضْلِكَ يا صَديقي ، أَخْبِرْني إِلى أَيْنَ نَحْنُ ذاهِبونَ ؟ إِنَّ ٱسْمِي إِدْمون دانْتي ، وَأَشْتَغِلُ بَحّارًا ، وَأُحِبُّ رَبِّي وَمَليكِي . قُلْ لي : إِلى أَيْنَ أَنْتُمْ ماضونَ بي ؟ »

سَأَلَهُ ٱلْجُنْدِيُّ بِدَهْشَةٍ : « كَيْفَ تَكونُ مِنْ مَواليدِ مارْسيلْيا ، وَتَعْمَلُ بَحّارًا ، وَلا تَعْرِفُ مَعَ ذٰلِكَ إِلى أَيْنَ أَنْتَ ذاهِبٌ ؟ »

« أَنا بِٱلْفِعْلِ لا أَعْرِفُ شَيْئًا . »

« إِذًا تَلَفَّتْ حَوْلَكَ . »

وَوَقَفَ دانْتي يَنْظُرُ أَمامَهُ ، فَرَأى عَلى مَسافَةِ مِئَةِ مِتْرٍ صَخْرَةً عالِيَةً . تَبَيَّنَها فَإِذا هِيَ تِلْكَ ٱلصَّخْرَةُ ٱلسَّوْداءُ ٱلرَّهيبَةُ ٱلَّتي شُيِّدَتْ عَلَيْها قَلْعَةُ « إِف » ٱلشَّهيرَةُ ، وَهِيَ سِجْنٌ بُنِيَ مُنْذُ نَحْوِ ثَلاثِمِئَةِ عامٍ .

إِذًا فَهُنا خاتِمَةُ ٱلْمَطافِ ! هُنا في هٰذا ٱلْمَكانِ ٱلَّذي تُرْوى ٱلْأَساطيرُ حَوْلَهُ وَحَوْلَ ٱلسُّجَناءِ ٱلَّذينَ يَدْخُلونَهُ فَلا يَعودونَ مِنْهُ أَبَدًا .

وَتَمَزَّقَتْ بِٱلنِّسْبَةِ لَهُ كُلُّ خُيوطِ ٱلْأَمَلِ في ٱلنَّجاةِ .

قَلْعَةُ إِف

لَمْ يُصَدِّقْ دانْتي عَيْنَيْهِ ، فَصَرَخَ : « لِماذا نَحْنُ ذاهِبونَ إِلى هُناكَ ؟ » فَضَحِكَ ٱلْجُنْدِيُّ .

وَمَضى دانْتي قائِلًا : « إِنَّكُمْ لَنْ تَسْجُنوني هُنا . أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ إِنَّ هٰذا ٱلسِّجْنَ مُخَصَّصٌ فَقَطْ لِلسُّجَناءِ ٱلْخَطِرينَ ، أَعْداءِ ٱلْمَلِكِ . تُرى هَلْ ثَمَّةَ قُضاةٌ في قَلْعَةِ إِف ؟ »

فَرَدَّ عَلَيْهِ ٱلْجُنْدِيُّ : « أَيُّ قُضاةٍ ؟ لَقَدْ رَآكَ ٱلْقاضي وَٱسْتَجْوَبَكَ . »

« لٰكِنَّ ٱلسَّيِّدَ ڤيلْفور وَعَدَني ... »

« لَسْتُ أَعْرِفُ شَيْئًا عَمّا قَدَّمَهُ لَكَ ٱلسَّيِّدُ ڤيلْفور مِنْ وُعودٍ لٰكِنَّني أَعْرِفُ شَيْئًا واحِدًا هُوَ أَنَّنا ماضونَ بِكَ إِلى قَلْعَةِ إِف . »

فَقَفَزَ دانْتي مُحاوِلًا أَنْ يُلْقِيَ بِنَفْسِهِ في ٱلبَحْرِ ، فَصاحَ ٱلجُنْدِيُّ طالِبًا ٱلنَّجْدَةَ . وَفي ٱلحالِ أَمْسَكَ بِدانْتي أَرْبَعَةُ رِجالٍ أَشِدّاءَ وَأَلْقَوا بِهِ في قاعِ ٱلقارِبِ وَهُوَ يَصيحُ وَيُقاوِمُ .

وَوَصَلَ ٱلقارِبُ إلى ٱلشّاطِئِ ، فَقَفَزَ مِنْهُ جُنْدِيٌّ ، وَأَسْرَعَ ٱلباقونَ وَقَبَضوا عَلى ذِراعَيْ دانْتي وَأَكْرَهوهُ عَلى صُعودِ بَعْضِ ٱلدَّرَجاتِ ، ثُمَّ مَرّوا مِنْ خِلالِ بابٍ أُغْلِقَ خَلْفَهُمْ ، وَأَحَسَّ أَنَّهُ في حُلْمٍ ، وَخُيِّلَ إِلَيْهِ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَلُفُّهُ ٱلضَّبابُ .

وَتَوَقَّفوا لَحْظَةً ، وَراحَ دانْتي يُفَكِّرُ وَيَنْظُرُ حَوْلَهُ : وَجَدَ نَفْسَهُ في



فِناءٍ تُحيطُ بِهِ ٱلجُدْرانُ ٱلعالِيَةُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ . وَوَصَلَ إلى أَسْماعِهِ صَوْتُ أَقْدامِ جُنودٍ يَتَجَوَّلونَ في نَوْبَةِ حِراسَةٍ .

وَٱنْتَظَروا عَشْرَ دَقائِقَ ، بَعْدَ أَنْ أَطْلَقوا ذِراعَيْ دانْتي ، فَقَدْ كانوا موقِنينَ أَنَّهُ يَسْتَحيلُ عَلَيْهِ ٱلفِرارُ .

وَٱرْتَفَعَ صَوْتٌ يَقولُ : « أَيْنَ ٱلسَّجينُ ؟ أَهُوَ أَنْتَ ؟ ٱتْبَعْني . »

وَتَبِعَهُ دانْتي ، فَقادَهُ صاحِبُ ٱلصَّوْتِ إلى حُجْرَةٍ تَقَعُ تَحْتَ ٱلأَرْضِ . وَكانَتِ ٱلمِياهُ تَسيلُ عَلى جُدْرانِها عَلى شَكْلِ قَطَراتٍ كَبيرَةٍ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ دانْتي أَنْ يَتَبَيَّنَ قَسَماتِ وَجْهِ ٱلحارِسِ إِلّا بِصُعوبَةٍ ، عَلى ضَوْءِ ٱلمِصْباحِ ٱلَّذي كانَ يَحْمِلُهُ .

وَقالَ ٱلحارِسُ لِدانْتي : « تِلْكَ هِيَ حُجْرَتُكَ لِهٰذِهِ ٱللَّيْلَةِ . الوَقْتُ مُتَأَخِّرٌ ، وَمَأْمورُ ٱلسِّجْنِ نائِمٌ ، وَغَدًا رُبَّما يُمْكِنُهُ أَنْ يَنْقُلَكَ إلى مَكانٍ آخَرَ . لَدَيْكَ هُنا خُبْزٌ وَماءٌ ، وَبَعْضُ ٱلحَشائِشِ ٱلجافَّةِ لِتَنامَ فَوْقَها . تُصْبِحُ عَلى خَيْرٍ . »

وَقَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ دانْتي فَمَهُ بِكَلِمَةٍ ، وَقَبْلَ أَنْ يَرى أَيْنَ وَضَعَ ٱلحارِسُ ٱلخُبْزَ وَٱلماءَ ، أَوْ يَسْتَطيعَ أَنْ يَتَبَيَّنَ مَوْضِعَ فِراشِهِ ، كانَ ٱلرَّجُلُ قَدِ ٱخْتَفى بِمِصْباحِهِ ٱلَّذي يَحْمِلُهُ ، تارِكًا دانْتي وَحْدَهُ في ٱلظَّلامِ وَٱلصَّمْتِ .

وَمَعَ أَوَّلِ شُعاعِ ضَوْءٍ مِنَ ٱلنَّهارِ عادَ ٱلحارِسُ وَمَعَهُ أَوامِرُ بِأَنْ يَظَلَّ دانْتِي كَما هُوَ في ٱلحُجْرَةِ ذاتِها ، غَيْرَ أَنَّ ٱلحارِسَ فوجِئَ بِدانْتِي كَما تَرَكَهُ ٱللَّيْلَةَ ٱلماضِيَةَ . فَقَدْ أَمْضى دانْتِي ٱللَّيْلَ دونَ أَنْ يَنامَ . وَٱقْتَرَبَ ٱلحارِسُ مِنْهُ فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ فَلَمَسَ ذِراعَهُ وَسَأَلَهُ : « أَ لَمْ تَنَمْ ؟ »

أَجابَهُ دانْتِي : « لا أَعْلَمُ ! »

نَظَرَ إِلَيْهِ ٱلحارِسُ وَسَأَلَهُ : « أَ لَسْتَ جائِعًا ؟ »

« لا أَعْلَمُ . »

« أَ تَحْتاجُ شَيْئًا ؟ »

« أُريدُ أَنْ أُقابِلَ مَأْمورَ ٱلسِّجْنِ . »

ضَحِكَ ٱلحارِسُ ضِحْكَةً قَصيرَةً وَغادَرَ ٱلحُجْرَةَ .

تَبِعَهُ دانْتِي بِعَيْنَيْهِ ، وَمَدَّ ذِراعَيْهِ نَحْوَ ٱلبابِ ٱلمَفْتوحِ ، لٰكِنَّ ٱلبابَ أُغْلِقَ لِتَوِّهِ . عِنْدَئِذٍ جاشَتْ نَفْسُهُ بِأَحاسيسَ عَنيفَةٍ ، فَأَلْقى بِنَفْسِهِ عَلى ٱلأَرْضِ وَراحَ يَبْكي سائِلًا نَفْسَهُ ما ٱلَّذي جَناهُ حَتّى يَلْقى تِلْكَ ٱلمُعامَلَةَ غَيْرَ ٱلكَريمَةِ .

وَمَضى ٱلْيَوْمُ دونَ أَنْ يَذوقَ شَيْئًا مِنَ ٱلطَّعامِ ، وَلَمْ يَكُفَّ عَنِ ٱلغُدُوِّ

وَٱلرَّواحِ داخِلَ حُجْرَتِهِ كَما لَوْ كانَ وَحْشًا حَبيسًا في قَفَصٍ .

وَجاءَهُ ٱلحارِسُ مَرَّةً أُخْرى صَباحَ ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي ، وَسَأَلَهُ : « أَ ثَمَّةَ تَحَسُّنٌ تُحِسُّ بِهِ ٱلْيَوْمَ ؟ »

لَمْ يُجِبْ دانْتِي .

فَمَضى ٱلحارِسُ قائِلًا : « تَشَجَّعْ يا رَجُلُ . هَلْ تُريدُ شَيْئًا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْعَلَهُ لَكَ ؟ »

« أُريدُ أَنْ أُقابِلَ مَأْمورَ ٱلسِّجْنِ . »

« هٰذا غَيْرُ مَسْموحٍ بِهِ . »

« ما هُوَ ٱلمَسْموحُ بِهِ إِذًا ؟ »

« طَعامٌ أَفْضَلُ ، إِذا دَفَعْتَ ثَمَنَهُ ، وَكُتُبٌ ، وَٱلتَّجَوُّلُ في فِناءِ ٱلسِّجْنِ . »

صاحَ دانْتِي : « لا أُريدُ كُتُبًا ، وَٱلطَّعامُ ٱلَّذي تُقَدِّمونَهُ لي جَيِّدٌ بِما فيهِ ٱلكِفايَةُ ، أَمّا ٱلتَّجَوُّلُ فَلا رَغْبَةَ لي فيهِ ، كُلُّ ما أُريدُهُ أَنْ أُقابِلَ مَأْمورَ ٱلسِّجْنِ . »

قالَ لَهُ ٱلحارِسُ : « لا تُلِحَّ في طَلَبِ ما لا يُمْكِنُكَ ٱلحُصولُ عَلَيْهِ ، وَإِلّا مَسَّكَ ٱلجُنونُ في غُضونِ شَهْرٍ . »

« هَلْ تَظُنُّ ذٰلِكَ ؟ »

« لَسْتُ أَظُنُّهُ ، لٰكِنَّنِي واثِقٌ مِنْهُ ، فَلَقَدْ كانَ مَعَنا هُنا ، وفي هٰذِهِ ٱلْحُجْرَةِ ذاتِها ، رَجُلٌ كانَ دائِمًا يَعْرِضُ عَلى مُديرِ ٱلسِّجْنِ أَنْ يَمْنَحَهُ كَنْزًا هائِلًا في مُقابِلِ ٱلإِفْراجِ عَنْهُ . »

« وَمَتى غادَرَ ٱلْحُجْرَةَ ؟ »

« مُنْذُ سَنَتَيْنِ . »

« هَلْ كانَ ذٰلِكَ إِفْراجًا عَنْهُ ؟ »

« كَلّا بَلْ وُضِعَ في حُجْرَةٍ تَحْتَ ٱلأَرْضِ . »

« اِسْمَعْ ، إِنَّني لَسْتُ مَجْنونًا . رُبَّما مَسَّنِيَ ٱلْجُنونُ فيما بَعْدُ ، لٰكِنَّني ٱلآنَ في كامِلِ قُوايَ ٱلْعَقْلِيَّةِ ، وَلا بُدَّ أَنْ أَرى مَأْمورَ ٱلسِّجْنِ . »

قالَ ٱلْحارِسُ وَهُوَ يَتَراجَعُ إِلى ٱلْوَراءِ خُطُواتٍ : « إِنَّكَ في طَريقِكَ إِلى ٱلْجُنونِ بِٱلتَّأْكيدِ . هٰكَذا بَدَأَ زَميلُكَ ٱلَّذي حَدَّثْتُكَ عَنْهُ . وَلَسَوْفَ نَلْقى ٱلْمَتاعِبَ مِنْكَ في خِلالِ ثَلاثَةِ أَيّامٍ ، وَلٰكِنْ هُناكَ ٱلأَماكِنُ ٱلَّتي ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّها تَقَعُ تَحْتَ ٱلأَرْضِ . »

كانَ ثَمَّةَ مَقْعَدٌ بِٱلْقُرْبِ مِنْ دانْتي فَأَمْسَكَ بِهِ وَرَفَعَهُ إِلى أَعْلى مُحاوِلًا أَنْ يُحَطِّمَ بِهِ رَأْسَ ٱلْحارِسِ ، ٱلَّذي صاحَ قائِلًا : « يا إِلٰهي ! نَعَمْ سَوْفَ



تُقابِلُ مَأْمورَ ٱلسِّجْنِ حالًا . »

وَخَرَجَ ، غَيْرَ أَنَّهُ سُرْعانَ ما عادَ وَمَعَهُ أَرْبَعَةٌ مِنَ ٱلْجُنودِ ، وَصاحَ فيهِمْ : « بِناءً عَلى أَوامِرِ مَأْمورِ ٱلسِّجْنِ ، خُذوا هٰذا ٱلسَّجينَ ، وَضَعوهُ في ٱلْحُجْرَةِ ٱلَّتي تَقَعُ تَحْتَ هٰذِهِ مُباشَرَةً . »

سَأَلَهُ واحِدٌ مِنَ ٱلْجُنودِ : « تَحْتَ ٱلأَرْضِ ؟ »

« نَعَمْ ، إِذْ لا بُدَّ أَنْ نَجْمَعَ ٱلْمَجانينَ مَعًا . »

أَمْسَكَ ٱلجُنودُ بِدانْتِي ، فَذَهَبَ مَعَهُمْ بِهُدوءٍ . وَهَبَطوا خَمْسَ عَشْرَةَ دَرَجَةً حَتّى وَصَلوا إِلى حُجْرَةٍ فَتَحوا لَهُ بابَها ، وَأَلْقَوْا بِهِ فيها ، ثُمَّ أَغْلَقوها عَلَيْهِ وَمَضَوْا .

وَتَقَدَّمَ دانْتِي إِلى ٱلأَمامِ وَقَدْ مَدَّ ذِراعَيْهِ يَتَحَسَّسُ طَريقَهُ فِي ٱلظَّلامِ حَتّى لَمَسَ ٱلجِدارَ . عِنْدَئِذٍ جَلَسَ عَلى ٱلأَرْضِ فِي أَحَدِ ٱلأَرْكانِ ، وَأَخَذَ يَنْتَظِرُ حَتّى أَلِفَتْ عَيْناهُ ٱلظَّلامَ .

كانَ ٱلحارِسُ مُصيبًا : فَقَدْ أَوْشَكَ دانْتِي أَنْ يُصابَ بِٱلجُنونِ تَمامًا .

الفَصْلُ ٱلسّادِسُ

تَحْتَ ٱلأَرْض

المُديرُ ٱلعامُّ لِلسُّجون

مَضَتْ فَتْرَةٌ قامَ بَعْدَها ٱلمُديرُ ٱلعامُّ لِلسُّجونِ بِزِيارَةٍ لِسِجْنِ إِفْ . وَكانَ يَصِلُ إِلى سَمْعِ دانْتِي ، حَتّى وَهُوَ تَحْتَ ٱلأَرْضِ ، أَصْواتُ ٱلتَّرْتيباتِ وَٱلاسْتِعْداداتِ ٱلَّتي تَتِمُّ لِاسْتِقْبالِ تِلْكَ ٱلشَّخْصِيَّةِ ٱلكَبيرَةِ . وَهِيَ أَصْواتٌ ما كانَ يُمْكِنُ لِأَيِّ أُذُنٍ أَنْ تَلْتَقِطَها سِوى أُذُنَيْ سَجينٍ . بَيْدَ أَنَّ سَجينَنا ٱلمُلْقى تَحْتَ ٱلأَرْضِ كانَ قَدْ أَصْبَحَ بِمَقْدورِهِ فِي ذٰلِكَ ٱلحينِ أَنْ يَلْتَقِطَ حَتّى صَوْتَ قَطْرَةِ ٱلماءِ ٱلَّتي تَسْقُطُ كُلَّ ساعَةٍ مِنْ سَقْفِ ٱلحُجْرَةِ .

كانَ دانْتِي يَعْرِفُ أَنَّ ثَمَّةَ شَيْئًا غَيْرَ عادِيٍّ يَحْدُثُ فِي عالَمِ ٱلأَحْياءِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمّا كانَ قَدِ ٱبْتَعَدَ مُنْذُ زَمَنٍ عَنْ هٰذا ٱلعالَمِ ، فَقَدْ باتَ يُؤْمِنُ تَمامًا أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ واحِدًا مِنْهُمْ ، وَأَنَّ أُمورَهُمْ لَمْ تَعُدْ تُهِمُّهُ . فَقَدْ صارَ يَنْتَمي إِلى عالَمِ ٱلمَوْتى .

وَقَدْ قامَ ٱلْمُديرُ ٱلعامُّ لِلسُّجونِ بِزِيارَةِ ٱلسُّجَناءِ ٱلَّذينَ رَشَّحَهُمْ مُديرُ ٱلسِّجْنِ ، مِمَّنْ لا يُخْشى مِنْهُمْ عَلى أَحَدٍ ، مُتَوَسِّمًا فيهِمْ هُدوءَ ٱلْمَسْلَكِ وَٱلطِّباعِ . وَسَأَلَهُمُ ٱلرَّجُلُ عَنِ ٱلطَّعامِ ٱلَّذي يُقَدَّمُ لَهُمْ ، وَعَمّا إِذا كانوا يُريدونَ أَيَّ شَيْءٍ ، فَأَجْمَعوا عَلى أَنَّ ٱلطَّعامَ رَديءٌ ، وَأَنَّهُمْ لا يُريدونَ شَيْئًا غَيْرَ أَنْ يُطْلَقَ سَراحُهُمْ . فَلَمّا سَأَلَهُمْ عَمّا إِذا كانوا يُريدونَ شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ ذٰلِكَ ، كانَ ٱلإِجْماعُ مُنْصَبًّا عَلى أَنَّ حُرِّيَّتَهُمْ هِيَ حُلْمُهُمْ وَمَعْقِدُ آمالِهِمْ ؛ إِذْ ماذا يُمْكِنُ أَنْ يُريدوا غَيْرَ أَنْ يُطْلَقَ سَراحُهُمْ ؟

وَضَحِكَ ٱلرَّجُلُ وَسَأَلَ مَأْمورَ ٱلسِّجْنِ : « إِذا كانَ كُلُّ سَجينٍ يَعافُ ٱلطَّعامَ ٱلَّذي يُقَدَّمُ لَهُ ، وَيَدَّعي أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ بِسَبَبِهِ أَنْ يُسْجَنَ ، وَيَطْلُبُ إِطْلاقَ سَراحِهِ ، فَما سَبَبُ حِرْصِ ٱلْحُكومَةِ عَلى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلزِّياراتِ ؟ »

وَلَمّا كانَ عَلَيْهِ أَنْ تُغَطِّيَ زِيارَتُهُ كُلَّ ٱلسُّجَناءِ ؛ لِذا سَأَلَ مَأْمورَ ٱلسِّجْنِ : « هَلْ ثَمَّةَ سُجَناءُ آخَرونَ؟ » فَلَمّا قيلَ لَهُ إِنَّ هُناكَ ٱلْخَطِرينَ وَمَنْ مَسَّهُمُ ٱلْجُنونُ ، قالَ عَلى ٱلْفَوْرِ : « هَلُمَّ بِنا إِلَيْهِمْ ، فَمِنْ واجِبي أَنْ أَتَفَقَّدَ ٱلْجَميعَ .»

أَرْسَلَ مَأْمورُ ٱلسِّجْنِ في طَلَبِ جُنْدِيَّيْنِ ، وَهَبَطَ ٱلْجَميعُ دَرَجًا ، فَاصْطَدَموا بِجَوٍّ خانِقٍ رَهيبٍ ، وَظَلامٍ ٱشْتَمّوا فيهِ رائِحَةَ ٱلْمَوْتِ .

وَتَساءَلَ ٱلْمُديرُ ٱلعامُّ لِلسُّجونِ : « مَنْ ذا ٱلَّذي يَقْدِرُ عَلى ٱلْعَيْشِ هُنا ؟ »

« إِنَّهُ سَجينٌ شَديدُ ٱلْخَطَرِ أُمِرْنا أَنْ نُشَدِّدَ ٱلرِّقابَةَ عَلَيْهِ . »

« هَلْ هُوَ وَحْدَهُ ؟ »

« طَبْعًا . »

« كَمْ مَضى عَلَيْهِ مِنَ ٱلْوَقْتِ في هٰذا ٱلْمَكانِ ؟ »

« حَوالى سَنَةٍ . »

« هَلْ وُضِعَ هُنا مُنْذُ لَحْظَةِ دُخولِهِ ٱلسِّجْنَ ؟ »

« كَلّا ، فَنَحْنُ لَمْ نَأْتِ بِهِ إِلى هُنا إِلّا بَعْدَ أَنْ حاوَلَ قَتْلَ حارِسِهِ . »

« قَتْلَ حارِسِهِ ؟! »

« نَعَمْ ، ذٰلِكَ ٱلْحارِسُ ٱلَّذي يَحْمِلُ ٱلْمِصْباحَ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ يا أَنْطُوان ؟ »

« بَلى يا سَيِّدي ، لَقَدْ حاوَلَ قَتْلي . »

« لا بُدَّ أَنَّ مَسًّا مِنَ ٱلْجُنونِ قَدْ أَصابَهُ . »

« لَيْسَ مَجْنونًا فَحَسْبُ ، بَلْ في غايَةِ ٱلشَّرِّ وَٱلْخُطورَةِ أَيْضًا . »

« أَ تَرى أَنَّهُ يَنْبَغي عَلَيَّ أَنْ أُقَدِّمَ لِلْمَسْئولينَ تَقْريرًا عَنْهُ ؟ »

« لَيْسَ ثَمَّةَ ما يَدْعو إِلى ذٰلِكَ يا سَيِّدي ، فَلَنْ يَمْضِيَ عامٌ إِلّا وَيَكونَ قَدْ فَقَدَ عَقْلَهُ تَمامًا . »

قالَ ٱلْمُديرُ ٱلعامُّ لِلسُّجونِ : « سَيَكونُ ذٰلِكَ أَفْضَلَ لَهُ كَثيرًا ، إِذْ سَتَخِفُّ حِدَّةُ مُعاناتِهِ . »

« أَنْتَ عَلى حَقٍّ يا سَيِّدي . كَلِماتُكَ تُنْبِئُ عَنْ أَنَّكَ قَدْ قَلَّبْتَ ٱلأَمْرَ عَلى كُلِّ وُجوهِهِ . وفي تِلْكَ ٱلحُجْرَةِ ٱلَّتي هُناكَ عَلى بُعْدِ سِتَّةِ أَمْتارٍ مِنْ هُنا ، يَنْزِلُ زَعيمٌ لِأَحَدِ ٱلأَحْزابِ ٱلإيطالِيَّةِ . إِنَّهُ هُنا مُنْذُ عامِ ١٨١١ ، وَقَدْ فَقَدَ عَقْلَهُ بَعْدَ عامَيْنِ مِنْ حَبْسِهِ . لَقَدْ كانَ هٰذا أَفْضَلَ لَهُ ، إِذْ أَصْبَحَ ٱلآنَ شَديدَ ٱلهُدوءِ . »

صاحَ مُديرُ ٱلسُّجونِ عَلى ٱلفَوْرِ : « لا بُدَّ أَنْ أَرى كِلَيْهِما ، فَهٰذا واجِبي . »

السَّجينُ

كانَتْ هٰذِهِ أَوَّلَ زِيارَةٍ لِلْمُديرِ ٱلعامِّ لِلسُّجونِ ، وَقَدْ أَرادَ أَنْ يُظْهِرَ أَهَمِّيَّتَهُ . قالَ : « السَّجينُ رَقْمُ ٣٤ : لِنَقُمْ بِزِيارَتِهِ أَوَّلًا . »

كانَ دانْتِي قابِعًا في أَحَدِ أَرْكانِ حُجْرَتِهِ عِنْدَما سَمِعَ صَوْتَ ٱلمِفْتاحِ يَدورُ في ٱلبابِ . فَرَفَعَ رَأْسَهُ ، وَرَأى أَمامَهُ شَخْصًا غَريبًا وَجُنْدِيَّيْنِ يَصْحَبُهُمْ مَأْمورُ ٱلسِّجْنِ وَقَدْ خَلَعَ قُبَّعَتَهُ ؛ فَأَدْرَكَ دانْتِي أَنَّ ٱلزّائِرَ ٱلغَريبَ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ شَخْصِيَّةً هامَّةً ، فَهَبَّ مِنْ مَكانِهِ لِيَلْقاهُ .

اِعْتَرَضَهُ ٱلجُنْدِيّانِ ، وَحَمَلاهُ عَلى أَنْ يَتَراجَعَ . وَشَعَرَ دانْتِي أَنَّ ٱلمُديرَ ٱلعامَّ لِلسُّجونِ قَدْ أُفْهِمَ أَنَّهُ رَجُلٌ خَطِرٌ ، فَبَدَأَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ مُحاوِلًا أَنْ يَكونَ رَقيقَ ٱلصَّوْتِ مُهَذَّبَ ٱلنَّظَراتِ إِلى أَقْصى حَدٍّ مُمْكِنٍ لِيَمَسَّ قَلْبَهُ ، ثُمَّ ٱخْتَتَمَ حَديثَهُ قائِلًا : « لَسْتُ أَسْأَلُ يا سَيِّدي غَيْرَ أَنْ تُخْبِروني بِنَوْعِ ٱلجُرْمِ ٱلَّذي دَخَلْتُ ٱلسِّجْنَ بِسَبَبِهِ . كَما أُطالِبُ بِٱلمُثولِ أَمامَ أَحَدِ ٱلقُضاةِ ، وَأَنْ أَعْرِفَ ما ٱلَّذي سَيَحْدُثُ لي . »

أَجابَهُ ٱلرَّجُلُ : « سَوْفَ نَبْحَثُ ٱلأَمْرَ . » ثُمَّ ٱتَّجَهَ إِلى مَأْمورِ ٱلسِّجْنِ ٱلواقِفِ إِلى جِوارِهِ وَقالَ لَهُ : « يَنْبَغي أَنْ تُطْلِعَني عَلى كُلِّ ما كُتِبَ في سِجِلّاتِكَ عَنْ هٰذا ٱلمِسْكينِ . »

« نَعَمْ يا سَيِّدي ، سَوْفَ أَفْعَلُ ذٰلِكَ . »

لَمْ يَعْبَأْ دانْتِي بِٱلرِّجالِ مِنْ حَوْلِهِ فَمَضى فى حَديثِهِ إِلى ٱلزّائِرِ ٱلكَبيرِ قائِلًا : « أَنا أَعْلَمُ يا سَيِّدي أَنَّكَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تُطْلِقَ سَراحي ، لٰكِنْ مِنْ فَضْلِكَ ، أَخْبِرْني عَلى ٱلأَقَلِّ أَنَّهُ لا يَزالُ ثَمَّةَ أَمَلٌ . »

« لا يُمْكِنُني أَنْ أَقولَ لَكَ هٰذا . كُلُّ ما أَسْتَطيعُهُ هُوَ أَنْ أَعِدَكَ

بِحَثِّ أَمْرِكَ . مَنِ ٱلَّذي أَمَرَ بِإيداعِكَ ٱلسِّجْنَ ؟ »

« السَّيِّدُ فِيلفور . »

« هَلْ لَدَيْهِ ما يَدْعو إلى أَنْ يَكونَ عَدُوًّا لَكَ ؟ »

« كَلّا يا سَيِّدي . لَقَدْ كانَ رَقيقًا جِدًّا مَعي . »

« مَعْنى ذٰلِكَ أَنَّهُ يُمْكِنُني ٱلاعْتِمادُ عَلى ٱلتَّقْريرِ ٱلَّذي كَتَبَهُ عَنْكَ ؟ »

« نَعَمْ . »

وَخَرَجَ ٱلرَّجُلُ ، فَأَغْلَقوا ٱلبابَ وَراءَهُ ، وَلٰكِنْ بَعْدَ أَنْ كانَ قَدْ دَخَلَ ٱلحُجْرَةَ شَيْءٌ جَديدٌ لَمْ يَكُنْ مَوْجودًا بِها مِنْ قَبْلُ : الأَمَلُ

فاريــا

عِنْدَ بابِ حُجْرَةِ ٱلسَّجينِ ٱلآخَرِ قالَ مَأْمورُ ٱلسِّجْنِ لِلزّائِرِ ٱلكَبيرِ : « هُنا يَعيشُ ٱلسَّجينُ ٱلآخَرُ ، وَجُنونُهُ أَشَدُّ غَرابَةً . فَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَدَيْهِ كَنْزًا عَظيمًا يَتَّخِذُهُ دائِمًا أَداةً لِلْمُساوَمَةِ . وَقَدْ عَرَضَ مَرَّةً عَلى ٱلسُّلُطاتِ ٱلحُكومِيَّةِ مَبالِغَ ضَخْمَةً مِنَ ٱلمالِ إذا أَفْرَجوا عَنْهُ : عَشَراتِ بَلْ مِئاتِ ٱلآلافِ . وَضاعَفَ عَرْضَهُ مَرَّتَيْنِ ، الأَمْرُ ٱلَّذي سَوْفَ يَفْعَلُهُ مَعَكَ بِٱلتَّأْكيدِ يا سَيِّدي . إِنَّهُ سَوْفَ يَنْتَحي بِكَ رُكْنًا ثُمَّ يَهْمِسُ في أُذُنِكَ بِمَوْضوعِ كَنْزِهِ ٱلعَظيمِ . »

قالَ ٱلمُديرُ ٱلعامُّ لِلسُّجونِ : « يا لَهُ مِنْ أَمْرٍ طَريفٍ ! ما ٱسْمُهُ ؟ »

« فارْيا . »

« رَقْمُ ٢٧ ؟ »

« نَعَمْ ، هُنا في هٰذِهِ ٱلحُجْرَةِ . اِفْتَحِ ٱلبابَ يا أَنْطوان . »

وَفُتِحَ ٱلبابُ وَدَخَلَ ٱلزّائِرُ ٱلكَبيرُ وَمَعَهُ مَأْمورُ ٱلسِّجْنِ يَتْبَعُهُما ٱلجُنْدِيّانِ . وَٱتَّجَهَ ٱلمُديرُ ٱلعامُّ لِلسُّجونِ إلى ٱلسَّجينِ ٱلمَجْنونِ وَسَأَلَهُ سُؤالَهُ ٱلمُعْتادَ : « هَلْ تُريدُ شَيْئًا ؟ »

« أَنا ؟ أَنا لا أُريدُ شَيْئًا . »

قالَ ٱلمُديرُ ٱلعامُّ لِلسُّجونِ : « لَقَدْ أَرْسَلَتْني ٱلحُكومَةُ لِزِيارَةِ ٱلسُّجَناءِ ، وَتَبَيُّنِ ٱحْتِياجاتِهِمْ . »

قالَ فارْيا : « إذًا فَٱلأَمْرُ يَخْتَلِفُ . اِسْمي فارْيا ، وَقَدْ وُلِدْتُ في روما ، وَخَدَمْتُ ٱلأَميرَ سْپادا مُدَّةَ عِشْرينَ عامًا ، وَسُجِنْتُ عامَ ١٨١١ لِسَبَبٍ لا أَعْرِفُهُ ، وَمُنْذُ ذٰلِكَ ٱلتّاريخِ وَأَنا أَلْتَمِسُ مِنَ ٱلسُّلُطاتِ مِرارًا وَتَكْرارًا ٱلإِفْراجَ عَنّي . »

أَحَسَّ ٱلمُديرُ ٱلعامُّ لِلسُّجونِ أَنَّ سُؤالَهُ ٱلَّذي طَرَحَهُ عَلى ٱلسَّجينِ مُنْذُ لَحْظَةٍ سَوْفَ يَمْضي بِلا إِجابَةٍ لَوْ ظَلَّ ٱلسَّجينُ يَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهِ عَلى ذٰلِكَ ٱلنَّحْوِ ، فَقالَ لَهُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ، لٰكِنَّني جِئْتُ لِأَعْرِفَ هَلْ يُحْسِنونَ هُنا مُعامَلَتَكَ أَوْ لا ؟ »

صاحَ ٱلسَّجينُ : « إنَّ ٱلطَّعامَ شَديدُ ٱلرَّداءَةِ ، شأْنُهُ في ذٰلِكَ شأْنُ ٱلطَّعامِ في كُلِّ ٱلسُّجونِ . وَٱلغُرْفَةُ كَما تَرى غَيْرُ صِحِّيَّةٍ — وَماذا تَتَوَقَّعُ في ٱلسِّجْنِ غَيْرَ ذٰلِكَ ؟ أنا لا أُريدُ أنْ أتَحَدَّثَ إلَيْكَ عَنْ هٰذِهِ ٱلأُمورِ . إنَّ ثَمَّةَ أُمورًا مُهِمَّةً أُخرى أَوَدُّ أنْ أُفْصِحَ لَكَ عَنْها . »

قالَ مأْمورُ ٱلسِّجْنِ : « أعْرِفُ ما تُريدُ أنْ تَقولَهُ . إنَّهُ عَنْ كَنْزِكَ ٱلهائِلِ ٱلمَخْبوءِ . أ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

فَنَظَرَ إلَيْهِ فارْيا عَلى نَحْوٍ كانَ كَفيلًا بِإقْناعِ أيِّ شَخْصٍ آخَرَ أنَّهُ أبْعَدُ ما يَكونُ عَنِ ٱلجُنونِ .

ثُمَّ قالَ : « طَبْعًا ؛ إذْ ما ٱلَّذي يُمْكِنُ أنْ أتَحَدَّثَ فيهِ غَيْرَ هٰذا ؟ »

وَٱنْتَهَتِ ٱلزِّيارَةُ لِيَبْقى كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما هُوَ عَلَيْهِ . وَظَلَّ فارْيا في سِجْنِهِ مَجْنونًا في رَأْيِ ٱلجَميعِ . أمّا دانْتي فَقَدْ أنْجَزَ ٱلمُديرُ ٱلعامُّ لِلسُّجونِ وَعْدَهُ لَهُ ، وَفَحَصَ سِجِلَّ ٱلسِّجْنِ فَوَجَدَ مَكْتوبًا ما يَلي :

« **إدْمون دانْتي**

رَجُلٌ خَطِرٌ . كانَ يَعْمَلُ عَلى عَوْدَةِ نابُلْيون مِنْ إلْبا . تُشَدَّدُ ٱلرِّقابَةُ عَلَيْهِ إلى أقْصى حَدٍّ . »

وَلَمْ يَسْتَطِعِ ٱلمُديرُ ٱلعامُّ لِلسُّجونِ أنْ يَفْعَلَ شَيْئًا لَهُ ، فاكْتَفى بِأنْ دَوَّنَ أمامَ ٱسْمِهِ في ٱلسِّجِلّاتِ عِبارَةً مُؤَدّاها : « لَيْسَ هُناكَ ما يُمْكِنُ عَمَلُهُ . »

الفَصْلُ السّابِعُ

السَّجينُ رَقْمُ ٣٤
وَٱلسَّجينُ رَقْمُ ٢٧

صَوتٌ في الجِدار

مَضَتِ ٱلأيّامُ وَٱلأسابيعُ ، وَبَدَأَ دانْتي يَعْتَقِدُ أنَّ زِيارَةَ ٱلمُديرِ ٱلعامِّ لِلسُّجونِ لَمْ تَكُنْ سِوى حُلْمٍ .

كانَ يَأْمُلُ أنْ يَتِمَّ ٱلإفْراجُ عَنْهُ بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ تِلْكَ ٱلزِّيارَةِ ، غَيْرَ أنَّ ٱلشَّهْرَ مَضى دونَ أنْ يَحْدُثَ ما كانَ يَأْمُلُ فيهِ ، فَقالَ لِنَفْسِهِ : « لا بُدَّ أنَّ ٱلمُديرَ ٱلعامَّ مَشْغولٌ ٱلآنَ بِزِيارَةِ ٱلسُّجونِ ٱلأُخرى ، وَمِنْ ثَمَّ لَنْ يَسْتَطيعَ أنْ يَفْعَلَ شَيْئًا إلّا إذا رَجَعَ إلى باريس ، ٱلأمْرُ ٱلَّذي قَدْ يَسْتَغْرِقُ مِنْهُ ثَلاثَةَ أشْهُرٍ عَلى ٱلأقَلِّ . »

لٰكِنَّ ٱلأشْهُرَ ٱلثَّلاثَةَ مَضَتْ دونَ أنْ يَتَحَقَّقَ ٱلأمَلُ . وَراحَ ٱلوَقْتُ يَمْضي .

وَذاتَ مَساءٍ ، حَوالى ٱلسّاعَةِ ٱلتّاسِعَةِ ، وَصَلَ إلى سَمْعِ دانْتِي صَوْتٌ آتٍ مِنَ ٱلجِدارِ ٱلمُلاصِقِ لِفِراشِهِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ وَبَدَأَ يُصْغي . كانَ ٱلصَّوْتُ أَشْبَهَ بِصَوْتِ حَيَوانٍ هائِلٍ يَقْرِضُ ٱلحِجارَةَ قَرْضًا . وَفي ٱلبِدايَةِ ظَنَّ أَنَّ ٱلأَمْرَ لَيْسَ سِوى حُلْمٍ ، لٰكِنَّ ٱلصَّوْتَ مَضى لِيَصِلَ إلى أُذُنَيْهِ بِٱلقُوَّةِ نَفْسِها حَتّى ٱرْتَطَمَ شَيْءٌ بِٱلأَرْضِ ، وَسادَ بَعْدَ ذٰلِكَ هُدوءٌ تامٌّ .

وَمَضَتْ عِدَّةُ ساعاتٍ لِيَعودَ ٱلصَّوْتُ مِنْ جَديدٍ ، لٰكِنَّهُ كانَ في هٰذِهِ ٱلمَرَّةِ أَقْرَبَ وَأَكْثَرَ وُضوحًا . وَدَخَلَ ٱلحارِسُ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ ، فَخافَ دانْتِي مِنْ أَنْ يَسْمَعَ ٱلحارِسُ ٱلصَّوْتَ ، فَيُمَزِّقَ هٰذا ٱلخَيْطَ ٱلأَخيرَ مِنْ خُيوطِ ٱلأَمَلِ .

كانَ ٱلحارِسُ قَدْ أَحْضَرَ لِدانْتِي ٱلإِفْطارَ ، فَأَخَذَ دانْتِي يَصْرُخُ غاضِبًا مِنْ رَداءَةِ ٱلطَّعامِ وَبُرودَةِ جَوِّ ٱلحُجْرَةِ . وَلٰكِنَّ ٱلحارِسَ وَضَعَ ٱلطَّعامَ عَلى ٱلمِنْضَدَةِ ، وَمَضى إلى حالِ سَبيلِهِ .

وَعادَ إِدْمون دانْتِي يُصْغي مِنْ جَديدٍ : لَقَدْ صارَتِ ٱلأَصْواتُ أَعْلى وَأَوْضَحَ . لَمْ يَشُكَّ لَحْظَةً فيما سَمِعَ ، وَأَخَذَ يَتَساءَلُ في نَفْسِهِ : إِمّا أَنَّهُ سَجينٌ يُحاوِلُ ٱلهَرَبَ ، أَوْ أَحَدُ ٱلعُمّالِ يُؤَدّي عَمَلًا أَمَرَهُ بِهِ مَأْمورُ ٱلسِّجْنِ — فَكَيْفَ يَتَمَكَّنُ مِنْ أَنْ يَتَبَيَّنَ ٱلأَمْرَ ؟

كانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ ٱلضَّعْفِ حَدًّا أَعْجَزَهُ عَنِ ٱلتَّفْكيرِ ، وَمَعَ ذٰلِكَ عادَ

يَتَحَدَّثُ إلى نَفْسِهِ : « إذا كانَ أَحَدُ ٱلعُمّالِ يُؤَدّي عَمَلًا وَخَبَطْتُ عَلى ٱلجِدارِ ، فَسَوْفَ يَتَوَقَّفُ لَحْظَةً عَنِ ٱلعَمَلِ — لِيَتَبَيَّنَ كُنْهَ ٱلخَبْطَةِ — ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ عَمَلَهُ . أَمّا إذا كانَ سَجينًا يُحاوِلُ ٱلهَرَبَ ، فَإِنَّ ٱلخَبْطَةَ سَتُخيفُهُ ، وَسَيَتَوَقَّفُ عَنِ ٱلمُحاوَلَةِ حَتّى يَنامَ ٱلجَميعُ . »

ذَهَبَ إِدْمون إلى رُكْنٍ في ٱلحُجْرَةِ ، ونَزَعَ قِطْعَةً مِنَ ٱلحَجَرِ وَراحَ يَطْرُقُ بِها ٱلحائِطَ ٱلَّذي تَصْدُرُ عَنْهُ ٱلأَصْواتُ ، وَفَعَلَ ذٰلِكَ ثَلاثَ مَرّاتٍ .

وَإِذا بِٱلصَّوْتِ يَتَوَقَّفُ تَمامًا . وَٱنْقَضى ٱلْيَوْمُ كُلُّهُ دونَ أَنْ يَسْمَعَ ٱلصَّوْتَ مَرَّةً أُخْرى .

« إِذًا لا بُدَّ أَنَّهُ سَجينٌ . »

وَتَأَكَّدَ لَهُ صِدْقُ ٱكْتِشافِهِ ٱلمُبْهِجِ عِنْدَما حَلَّ ٱلمَساءُ ، وَجاءَهُ ٱلحارِسُ يُقَدِّمُ لَهُ طَعامَ ٱلعَشاءِ .

فَقَدْ خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ سَمِعَ صَوْتًا خافِتًا ، فَأَلْصَقَ أُذُنَهُ بِٱلحائِطِ . مِنَ ٱلمُؤَكَّدِ أَنَّ شَيْئًا ما كانَ يَحْدُثُ خَلْفَ ٱلجِدارِ . كُلُّ ما هُنالِكَ أَنَّ ٱلسَّجينَ قَدِ ٱسْتَشْعَرَ ٱلخَطَرَ فَراحَ يَعْمَلُ في هُدوءٍ شَديدٍ .

كُتْلَةٌ مِنَ ٱلخَشَبِ

أَحَسَّ دانْتِي بِسَبَبِ هٰذا ٱلاكْتِشافِ بِفَرَحٍ يَغْمُرُهُ ، وَتَمَلَّكَتْهُ رَغْبَةٌ

فِي أَنْ يُقَدِّمَ ٱلْعَوْنَ لِذٰلِكَ ٱلسَّجِينِ ، فَحَرَّكَ سَرِيرَهُ مِنْ مَوْضِعِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ حَوْلَهُ فِي ٱلْغُرْفَةِ يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ حادٍّ يَحْفِرُ بِهِ فِي ٱلْجِدارِ وَيَنْتَزِعُ أَحَدَ ٱلْحِجارَةِ مِنْ مَكانِهِ . وَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي ٱلْحُجْرَةِ سِوى ٱلْفِراشِ وَمَقْعَدٍ وَمِنْضَدَةٍ وَإِبْرِيقِ ماءٍ . وَلَمّا لَمْ يَجِدْ ما يَصْلُحُ لِمُهِمَّتِهِ غَيْرَ إِبْرِيقِ ٱلْماءِ ، فَقَدْ أَلْقى بِهِ عَلى ٱلْأَرْضِ فَتَناثَرَ قِطَعًا أَخْفى مِنْها قِطْعَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا فِي فِراشِهِ .

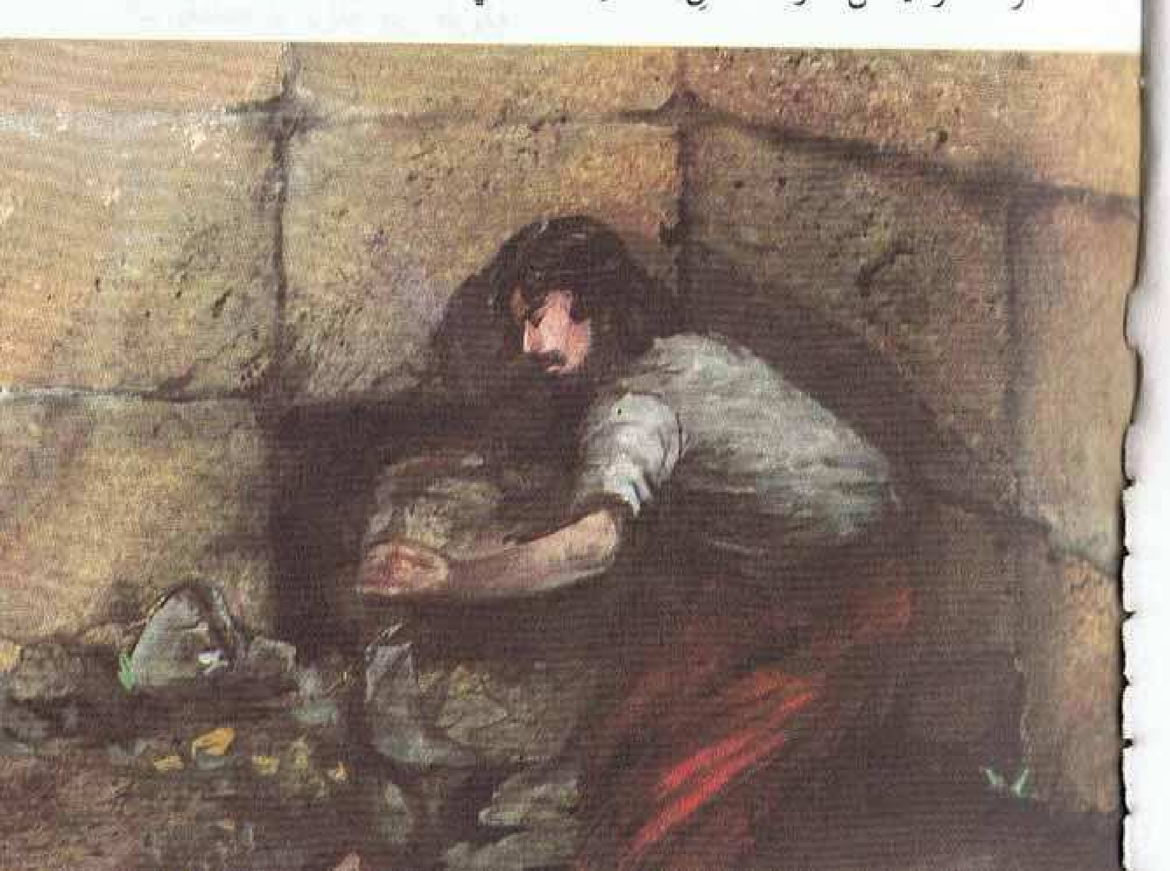
وَعِنْدَما جاءَهُ ٱلْحارِسُ صَباحَ ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي ، بادَرَهُ دانْتي وَأَخْبَرَهُ أَنَّ إِناءَ ٱلْماءِ ٱلَّذي يَسْتَخْدِمُهُ قَدْ سَقَطَ مِنْهُ وَهُوَ يَشْرَبُ . كانَ أَمْرًا طَبِيعِيًّا أَنْ يَغْضَبَ ٱلْحارِسُ لِلْإِناءِ ٱلَّذي تَهَشَّمَ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَفْطِنْ قَطُّ إِلى حَقِيقَةِ ٱلْأَمْرِ . صَحِيحٌ أَنَّهُ ٱتَّهَمَ دانْتي بِٱلْإِهْمالِ ، إِلّا أَنَّهُ خَرَجَ فَأَحْضَرَ إِناءً جَدِيدًا طالِبًا مِنْ دانْتي أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ حِرْصًا . ثُمَّ مَضى دُونَ أَنْ يَهْتَمَّ حَتّى بِأَنْ يَأْخُذَ مَعَهُ قِطَعَ ٱلْإِناءِ ٱلْمُحَطَّمِ .

كانَ دانْتي سَعِيدًا وَهُوَ يَسْمَعُ صَوْتَ إِغْلاقِ ٱلْبابِ ، وَظَلَّ يُصْغي حَتّى خَفَّ وَقْعُ خُطُواتِ ٱلْحارِسِ ، وَبَدَأَ يَعْمَلُ . كانَ ٱلْجِدارُ مُتَآكِلًا بِفِعْلِ ٱلزَّمَنِ فَتَساقَطَتْ مِنْهُ قِطَعٌ كَثِيرَةٌ صَغِيرَةٌ . وَبَعْدَ أَنْ مَضَتْ نِصْفُ ساعَةٍ مِنَ ٱلْعَمَلِ ، كانَ قَدْ فَرَغَ مِنْ إِنْجازِ ٱلْكَثِيرِ ، وَبِحِسْبَةٍ بَسِيطَةٍ وَجَدَ أَنَّهُ كانَ فِي ٱسْتِطاعَتِهِ أَنْ يَشُقَّ نَفَقًا تَحْتَ ٱلْأَرْضِ ، طُولُهُ سِتَّةُ أَمْتارٍ وَعَرْضُهُ نِصْفُ مِتْرٍ ، لَوْ عَمِلَ بِجِدٍّ فِي ٱلسَّنَتَيْنِ ٱلْماضِيَتَيْنِ .

وَٱنْتابَتْهُ حَسْرَةٌ عَلى كُلِّ ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ ٱلَّذي أَضاعَهُ فِي ٱلصُّراخِ وَٱلْعَوِيلِ .

وَٱسْتَطاعَ أَخِيرًا أَنْ يَنْتَزِعَ مِنَ ٱلْجِدارِ حَجَرًا كانَ يَشْغَلُ فِيهِ فُرْجَةً بِعَرْضِ نِصْفِ مِتْرٍ ، فَلَمّا تَجَمَّعَتْ لَدَيْهِ كَمِّيَّةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ ٱلْأَتْرِبَةِ بَدَأَ يُغَطّي بِها أَرْضَ ٱلْحُجْرَةِ ، ثُمَّ وَضَعَ ٱلْحَجَرَ فِي مَوْضِعِهِ ، وَأَعادَ فِراشَهُ إِلى مَكانِهِ لِيُخْفِيَ بِهِ ما فَعَلَ ، وَذٰلِكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ ٱلْحارِسُ إِلَيْهِ بِوَجْبَةِ ٱلْعَشاءِ .

وَما إِنْ غادَرَ ٱلرَّجُلُ ٱلْحُجْرَةَ حَتّى عاوَدَ دانْتي ٱلْعَمَلَ مِنْ جَدِيدٍ . وَٱسْتَمَرَّ يَعْمَلُ طَوالَ ٱللَّيْلِ ، غَيْرَ أَنَّ دانْتي لاحَظَ أَنَّ ٱلسَّجِينَ ٱلَّذي



بِالْغُرْفَةِ الْمُجاوِرَةِ قَدْ تَوَقَّفَ عَنِ الْعَمَلِ . لَمْ يُضْعِفْ ذٰلِكَ مِنْ عَزِيمَتِهِ ، بَلْ عَلى الْعَكْسِ مَضى يَعْمَلُ بِقَدْرٍ أَكْبَرَ مِنَ الْحَماسِ واضِعًا نُصْبَ عَيْنَيْهِ أَنَّهُ إِذا لَمْ يَأْتِ إِلَيْهِ جارُهُ السَّجينُ فَلْيَذْهَبْ هُوَ إِلَيْهِ .

وَاسْتَأْنَفَ عَمَلَهُ خِلالَ اللَّيْلَةِ التّالِيَةِ . وَكانَ فِكْرُهُ مَحْصورًا في السَّجينِ الآخَرِ . وَعَمّا إِذا كانَ قَدْ تَوَقَّفَ عَنِ الْعَمَلِ دونَ رَجْعَةٍ أَمْ أَنَّهُ سَيَعودُ إِلَيْهِ . فَأَرْهَفَ أُذُنَيْهِ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ إِلّا صَدى الصَّمْتِ ، فَأَحْزَنَهُ ذٰلِكَ ؛ إِذْ كانَ مَعْناهُ أَنَّ جارَهُ غَيْرُ مُطْمَئِنٍّ إِلَيْهِ . وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّ دانْتِي لَمْ يَتَوَقَّفْ ، بَلْ مَضى يَعْمَلُ في الْجِدارِ طَوالَ اللَّيْلِ دونَما كَلالٍ ، إِلى أَنِ اعْتَرَضَهُ ما أَوْقَفَهُ عَنِ الْمُضِيِّ . كانَ ثَمَّةَ شَيْءٌ عَجَزَ دانْتِي عَنْ أَنْ يَقْطَعَهُ أَوْ يُزيلَهُ مِنْ طَريقِهِ .

وَكانَ هٰذا الشَّيْءُ عِبارَةً عَنْ كُتْلَةٍ خَشَبِيَّةٍ هائِلَةٍ تَعْتَرِضُ الْحُفْرَةَ الَّتي قامَ بِحَفْرِها مِمّا سَدَّ الطَّريقَ تَمامًا .

« مَـنْ أَنْـتَ ؟ »

لَمْ يَكُنِ الشّابُّ الْبائِسُ قَدْ فَكَّرَ في هٰذِهِ الْعَقَبَةِ ، فَأَخَذَ يَضْرَعُ إِلى اللهِ قائِلًا : « يا إِلٰهي ! يا إِلٰهي ! اقْبِضْني إِلَيْكَ ؛ فَقَدْ تَحَطَّمَتْ كُلُّ آمالي . »

وَجاءَهُ صَوْتٌ قادِمٌ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ كَأَنَّهُ آتٍ مِنَ الْقَبْرِ : « مَنْ

ذا الَّذي يَتَحَدَّثُ عَنِ اللهِ ، وَفي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَفْقِدُ الْأَمَلَ ؟ »

وَجَثا إِدْمُون عَلى رُكْبَتَيْهِ وَقالَ : « إِنَّهُ صَوْتٌ ! صَوْتُ إِنْسانٍ ! » مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ لَمْ يَسْمَعْ إِدْمُون صَوْتَ إِنْسانٍ ، فيما عَدا صَوْتَ مَأْمورِ السِّجْنِ وَالْمُديرِ الْعامِّ وَالْحارِسِ . وَحارِسُ السِّجْنِ في نَظَرِ السَّجينِ لا يُعَدُّ إِنْسانًا ، إِنَّهُ مُجَرَّدُ بابٍ حَيٍّ .

وَلَمّا كانَ إِدْمُون يَخْشى أَلّا يَصِلَ إِلَيْهِ صَوْتُ ذٰلِكَ الْإِنْسانِ مَرَّةً أُخْرى ، فَقَدْ صَرَخَ : « بِحَقِّ السَّماءِ تَكَلَّمْ . تَكَلَّمْ ثانِيَةً . »

وَجاءَهُ الصَّوْتُ عَميقًا يَسْأَلُ : « مَنْ أَنْتَ ؟ »

« سَجينٌ تَعِسٌ . »

« لِماذا سُجِنْتَ ؟ »

« لا أَعْرِفُ ، فَإِنّي لَمْ أَرْتَكِبْ ذَنْبًا . »

« إِذًا ما هِيَ التُّهْمَةُ الْمُوَجَّهَةُ إِلَيْكَ ؟ »

« أَنّي حاوَلْتُ أَنْ أُساعِدَ نابُلْيون عَلى الْعَوْدَةِ إِلى فَرَنْسا . »

« تُعيدُهُ إِلى فَرَنْسا ؟ ماذا تَعْني ؟ أَلَمْ يَعُدْ هُوَ حاكِمَ فَرَنْسا ؟ »

« نَعَمْ ! لَقَدْ نُفِيَ إِلى جَزيرَةِ إِلْبا عامَ ١٨١٤ . يَبْدو أَنَّكَ لَمْ تُعاصِرِ

هٰذِهِ ٱلأَحْداثَ . مُنْذُ مَتى وَأَنْتَ هُنا ؟ »

« أَنا هُنا مُنْذُ عام ١٨١١ . »

« أَنْتَ هُنا قَبْلي بِأَرْبَعِ سَنَواتٍ إِذًا . »

« كُفَّ ٱلآنَ عَنِ ٱلعَمَلِ . أُريدُ أَنْ أَعْرِفَ مَدى عُلُوِّ ٱلثُّغْرَةِ ٱلَّتي تَحْفِرُها بِٱلنِّسْبَةِ إِلى أَرْضِ ٱلغُرْفَةِ . »

« إِنَّها بِمُحاذاةِ ٱلأَرْضِ . »

« وَكَيْفَ تُخْفي ٱلثُّغْرَةَ ؟ »

« بِفِراشي . »

« عَلى أَيِّ شَيْءٍ يُفْتَحُ بابُ غُرْفَتِكَ ؟ »

« عَلى ٱلمَمَرِّ ٱلَّذي يَقودُ إِلى ٱلفِناءِ . »

« أَمْرٌ مُؤْسِفٌ ! لَقَدْ أَخْطَأْتُ في تَقْديراتي ، إِذِ ٱبْتَعَدْتُ عَمّا رَسَمْتُهُ بِخَمْسَةِ أَمْتارٍ فَأَخْطَأْتُ ٱلجِدارَ ، وَظَنَنْتُهُ ٱلجِدارَ ٱلخارِجِيَّ لِلسِّجْنِ . »

« إِذًا فَجِدارُكَ يُطِلُّ عَلى ٱلبَحْرِ ؟ »

« ذٰلِكَ ما كُنْتُ آمُلُ . »

قالَ دانْتي : « وَلْنَفْتَرِضْ أَنَّ خُطَّتَكَ ٱلَّتي رَسَمْتَها قَدْ نَجَحَتْ وَثَقَبْتَ ٱلجِدارَ . »

أَجابَ فارْيا : « كُنْتُ سَأُلْقي بِنَفْسِيَ في ٱلبَحْرِ مُحاوِلًا أَنْ أَسْبَحَ إِلى جَزيرَةٍ مِنْ تِلْكَ ٱلجُزُرِ ٱلقَريبَةِ : « جَزيرَةِ تِيبُولِن أَوْ جَزيرَةِ دُوم . »

« وَهَلْ تَسْتَطيعُ ٱلسِّباحَةَ كُلَّ هٰذِهِ ٱلمَسافَةِ ؟ »

« كانَ ٱللهُ سَيُمِدُّني وَقْتَها بِٱلقُوَّةِ ، أَمّا ٱلآنَ فَلا أَمَلَ . »

« هَلْ تَعْني حَقيقَةً أَنَّهُ لا أَمَلَ ؟ »

« نَعَمْ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَسُدَّ ثُغْرَةَ ٱلجِدارِ بِدِقَّةٍ ، وَتَوَقَّفْ تَمامًا عَنِ ٱلعَمَلِ إِلى أَنْ أُخْبِرَكَ . »

صاحَ إِدْمُون : « أَلا تُخْبِرُني مَنْ أَنْتَ عَلى ٱلأَقَلِّ ؟ »

« أَنا رَقْمُ ٢٧ . »

« إِذًا فَأَنْتَ لا تَثِقُ بي ؟ »

وَخُيِّلَ لِإِدْمُون أَنَّ ضِحْكَةً خَرَجَتْ مِنْ فَمِ ٱلرَّجُلِ ٱلمَجْهولِ ، فَقالَ وَهُوَ يَخْشى أَلّا يَتَحَدَّثَ ٱلرَّجُلُ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرى : « أَعِدُكَ أَلّا أَقولَ شَيْئًا

عَنْكَ لِلْحُرّاسِ ، وَلٰكِنْ بِرَبِّكَ لا تَتْرُكْني وَحْدي . »

أَجابَهُ صاحِبُ ٱلصَّوْتِ : « وَهُوَ كَذٰلِكَ . إِلى ٱلغَدِ إِذًا . »

رَجَعَ إِدْمُون ، وَسَدَّ ٱلثُّغْرَةَ ، ثُمَّ راحَ يُخْفي بِعِنايَةٍ بَقايا ٱلحِجارَةِ ٱلَّتي ٱنْتَزَعَها مِنَ ٱلجِدارِ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ أَعادَ ٱلفِراشَ إِلى مَوْضِعِهِ .

وَكانَ دانْتِي في فِراشِهِ ، عِنْدَما دَخَلَ ٱلحارِسُ في ٱلمَساءِ فَلَمْ يَلْحَظْ شَيْئًا .

وَفي صَباحِ ٱليَوْمِ ٱلتّالي أَزاحَ إِدْمُون فِراشَهُ بَعيدًا عَنِ ٱلجِدارِ فَسَمِعَ ٱلصَّوْتَ مِنْ جَديدٍ ، فَرَكَعَ عَلى رُكْبَتَيْهِ وَسَأَلَ : « أَهُوَ أَنْتَ ؟ إِنَّني هُنا . »

« هَلْ خَرَجَ ٱلحارِسُ ؟ »

« نَعَمْ ، وَلَنْ يَعودَ قَبْلَ ٱلمَساءِ . أَمامَنا ٱثْنَتا عَشْرَةَ ساعَةً . »

« بِوُسْعِي إِذًا أَنْ أَعْمَلَ . »

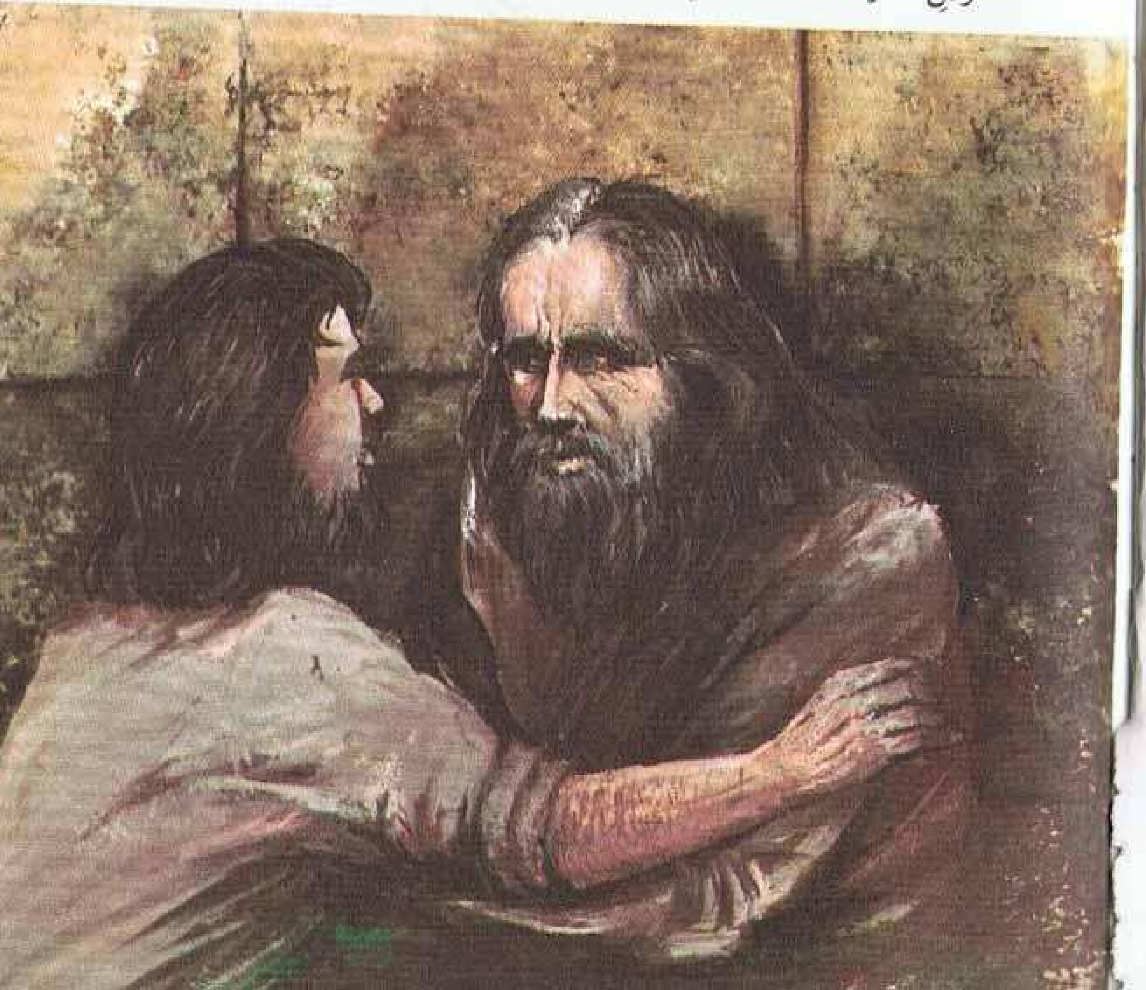
وَفي ٱلحالِ شَعَرَ دانْتِي بِٱلأَرْضِ ، حَيْثُ كانَ يَسْتَنِدُ بِيَدَيْهِ ، تَنْهارُ ؛ فَٱرْتَدَّ بِسُرْعَةٍ إِلى ٱلوَراءِ . وَإِذا بِكَمِّيَّةٍ مِنَ ٱلحِجارَةِ وَٱلتُّرابِ تَنْهالُ لِتَظْهَرَ مِنْ أَعْماقِ ٱلحُفْرَةِ ٱلَّتي لا يَعْرِفُ مَدى عُمْقِها ، ذِراعا رَجُلٍ وَرَأْسُهُ . وَصَعِدَ ٱلرَّجُلُ إِلى حُجْرَةِ دانْتِي .

الفَصْلُ ٱلثّامِنُ

سَيِّدٌ مُثَقَّفٌ مِنْ إِيطالْيا

صَديقٌ أَخيرًا

مَدَّ دانْتِي ذِراعَيْهِ لِلصَّديقِ ٱلَّذي كانَ في حاجَةٍ إِلَيْهِ كُلَّ هٰذا ٱلوَقْتِ ٱلطَّويلِ ، وَحَمَلَهُ تَقْريبًا إِلى ٱلنّافِذَةِ لِيَتَسَنّى لَهُ رُؤْيَةُ وَجْهِهِ جَيِّدًا .



كانَ رَجُلًا ضَئيلَ ٱلجِسْمِ ، أَبْيَضَ ٱلشَّعْرِ مِنْ فَرْطِ ما عاناهُ ، وَلَيْسَ بِسَبَبِ ٱلشَّيْخوخَةِ ، ذا عَيْنَيْنِ غائِرَتَيْنِ وَلِحْيَةٍ طَويلَةٍ سَوْداءَ ، وَلَمْ تَكُنْ تَظْهَرُ عَلَيْهِ عَلاماتُ ٱلقُوَّةِ ٱلجَسَدِيَّةِ ؛ إِذْ كانَ مِمَّنْ يَعْمَلونَ بِعُقولِهِمْ لا بِأَيْديهِمْ .

وَقَدْ مَسَّتْ قَلْبَهُ ٱلمَوَدَّةُ ٱلحارَّةُ ٱلَّتي ٱسْتَقْبَلَهُ بِها دانْتي ، فَراحَ يَشْكُرُهُ عَلى رِقَّتِهِ رَغْمَ كُلِّ ٱلعَناءِ ٱلرَّهيبِ ٱلَّذي تَحَمَّلَهُ في سَبيلِ ٱلفِرارِ مِنْ جَحيمِ ٱلسِّجْنِ إِلى فَضاءِ ٱلحُرِّيَّةِ وَٱلهَواءِ ٱلطَّلْقِ ، وَٱلَّذي لَمْ يُؤَدِّ بِهِ في ٱلنِّهايَةِ إِلّا إِلى حُجْرَةٍ أُخْرى .

قالَ ٱلرَّجُلُ : « يَجِبُ أَوَّلًا أَنْ نُخْفِيَ مَعالِمَ ما صَنَعْناهُ ، وَنَتَأَكَّدَ أَنَّ ٱلحارِسَ لَنْ يَكْتَشِفَ مَمَرَّنا ٱلسِّرِّيَّ . »

وَٱتَّجَهَ إِلى ٱلفُتْحَةِ ، فَأَخَذَ ٱلحَجَرَ وَرَفَعَهُ بِيَدَيْهِ بِلا عَناءٍ ، ثُمَّ أَعادَهُ إِلى مَكانِهِ وَثَبَّتَهُ بِإِحْكامٍ قائِلًا لِدانْتي : « لَمْ تَكُنْ حَريصًا وَأَنْتَ تَقْتَلِعُ هٰذا ٱلحَجَرَ مِنْ مَكانِهِ . ماذا ٱسْتَخْدَمْتَ في ٱقْتِلاعِهِ ؟ »

وَأَراهُ دانْتي قِطَعَ ٱلإِبْريقِ ٱلمُهَشَّمَةَ .

وَلَمْ يُبْدِ ٱلرَّجُلُ ٱسْتِحْسانًا لِلْأَدَواتِ ٱلَّتي ٱسْتَخْدَمَها دانْتي في عَمَلِهِ ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ لَدَيْهِ أَدَواتٍ أَفْضَلَ مِنْها ، صَنَعَها مِنْ أَجْزاءٍ أَخَذَها مِنْ سَريرِهِ ، وَٱسْتَطاعَ أَنْ يَشُقَّ بِها مَمَرًّا طولُهُ سِتَّةُ أَمْتارٍ عَلى ٱلأَقَلِّ ، وَهُوَ

طولُ ٱلمَسافَةِ بَيْنَ حُجْرَتِهِ وَحُجْرَةِ دانْتي .

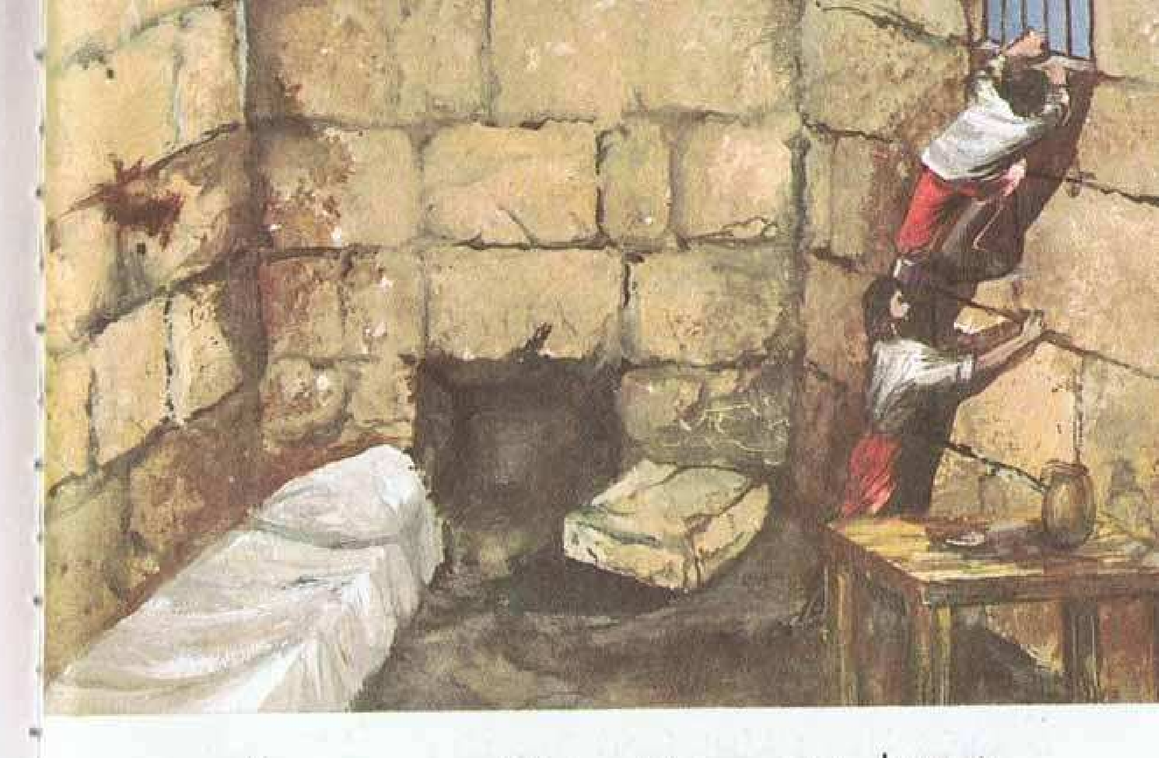
قالَ : « وَمَعَ ذٰلِكَ فَمِنَ ٱلواضِحِ أَنّي لَمْ أُخَطِّطْ لِلْأَمْرِ جَيِّدًا ؛ إِذْ إِنَّ هٰذا ٱلمَمَرَّ لَمْ يَكُنْ لِيُؤَدِّيَ بي في ٱلنِّهايَةِ إِلّا إِلى فِناءٍ يَغَصُّ بِٱلجُنودِ . »

قالَ دانْتي : « ها أَنْتَ قَدْ وَصَلْتَ إِلى هٰذِهِ ٱلحُجْرَةِ عَبْرَ جِدارٍ مِنْ جُدُرِها ، فَلِمَ لا نَشُقُّ طَريقًا تَحْتَ واحِدٍ مِنْ جُدُرِها ٱلثَّلاثَةِ ٱلأُخْرى ؟ أَ تَدْري ماذا يوجَدُ خارِجَها ؟ »

أَجابَ ٱلرَّجُلُ : « ثَمَّةَ جِدارٌ مُلاصِقٌ لِلصَّخْرَةِ ، وَلَنْ نَسْتَطيعَ أَنْ نَفْعَلَ شَيْئًا إِزاءَهُ . وَثَمَّةَ جِدارٌ ثانٍ مُلاصِقٌ لِلْجُزْءِ ٱلسُّفْلِيِّ لِبَيْتِ مَأْمورِ ٱلسِّجْنِ ، وَسَوْفَ يَنْتَهي بِنا ٱلأَمْرُ إِلى أَنْ يَقْبِضوا عَلَيْنا لَوِ ٱسْتَطَعْنا أَنْ نَخْتَرِقَهُ . بَقِيَ ٱلجِدارُ ٱلثّالِثُ ، وَهُوَ جِدارٌ لا أَعْرِفُ عَلى أَيِّ شَيْءٍ يُطِلُّ ؟ »

النافِـذَةُ

لَمْ يَكُنْ بِٱلجِدارِ ، ٱلَّذي راحَ ٱلاِثْنانِ يَنْظُرانِ إِلَيْهِ ، سِوى نافِذَةٍ عالِيَةٍ جِدًّا وَصَغيرَةٍ لِلغايَةِ ، لِدَرَجَةٍ لا تَسْمَحُ إِلّا بِمُرورِ طِفْلٍ مِنْها ، حَتّى لَوْ لَمْ تَكُنْ مُزَوَّدَةً بِقُضْبانٍ ثَلاثَةٍ قَوِيَّةٍ تَجْعَلُ مُرورَ هٰذا ٱلطِّفْلِ أَمْرًا أَشَدَّ صُعوبَةً .



دَفَعَ ٱلرَّجُلُ بِٱلْمِنْضَدَةِ عَبْرَ ٱلْحُجْرَةِ وَأَوْقَفَها تَحْتَ ٱلنَّافِذَةِ ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْ دانْتِي أَنْ يَصْعَدَ فَوْقَها مُوَلِّيًا ظَهْرَهُ لِلْحائِطِ وَعاقِدًا يَدَيْهِ مِنَ ٱلْأَمامِ . وَقَفَزَ هُوَ إِلى ٱلْمِنْضَدَةِ وَمِنْها إِلى يَدَيْ دانْتِي ، وَمِنْ يَدَيْ دانْتِي إِلى عُنُقِهِ حَتّى بَلَغَ ٱلنَّافِذَةَ . وَوَضَعَ رَأْسَهُ بَيْنَ ٱلْقُضْبانِ لِيَرى ٱلْجِدارَ كُلَّهُ مِنَ ٱلْخارِجِ . غَيْرَ أَنَّهُ سُرْعانَ ما سَحَبَ رَأْسَهُ إِلى ٱلدّاخِلِ قائِلًا : « لَقَدْ صَدَقَ ظَنِّي . » وَهَبَطَ بِسُرْعَةٍ وَسُهولَةٍ كَما صَعِدَ ، ٱلْأَمْرُ ٱلَّذي أَدْهَشَ دانْتِي جِدًّا وَهُوَ يَرى عَجوزًا في مِثْلِ عُمْرِهِ يَتَحَرَّكُ بِمِثْلِ هٰذِهِ ٱلسُّرْعَةِ وَٱلْيُسْرِ .

تَبَدَّدَتْ دَهْشَةُ دانْتِي عِنْدَما قالَ ٱلسَّجينُ رَقْمُ ٢٧ : « إِنَّ هٰذا ٱلْجِدارَ يُطِلُّ عَلى طَريقٍ مَكْشوفٍ يَقومُ عَلى حِراسَتِهِ أَحَدُ ٱلْجُنودِ لَيْلَ نَهارَ ،

وَقَدْ أُتيحَ لي أَنْ أَرى ٱلْجُزْءَ ٱلْعُلْوِيَّ مِنْ رَأْسِ ٱلْجُنْدِيِّ مِمّا جَعَلَني أَنْزِلُ بِسُرْعَةٍ خَشْيَةَ أَنْ يَراني . »

وَتَساءَلَ دانْتِي : « ما ٱلْعَمَلُ إِذًا ؟ »

أَجابَهُ : « كَما تَرى ، لَمْ يَعُدْ مُمْكِنًا أَنْ نَهْرُبَ عَبْرَ أَيِّ جِدارٍ في هٰذِهِ ٱلْحُجْرَةِ . »

حَيـــاةُ فارْيـــا

نَظَرَ دانْتِي بِدَهْشَةٍ بالِغَةٍ إِلى ذٰلِكَ ٱلشَّخْصِ ٱلَّذي ٱسْتَطاعَ أَنْ يَتَخَلّى بِسُهولَةٍ عَنِ ٱلْأَمَلِ ٱلَّذي ٱسْتَمَدَّ هُوَ مِنْهُ ٱلْقُوَّةَ عِدَّةَ سَنَواتٍ . وَقالَ لَهُ : « أَخْبِرْني أَرْجوكَ ، مَنْ أَنْتَ ؟ وَماذا كُنْتَ تَعْمَلُ ؟ »

أَجابَ ٱلرَّجُلُ : « سَأُخْبِرُكَ . إِسْمي فارْيا ، وَقَدْ سُجِنْتُ هُنا في قَلْعَةِ إِفْ مُنْذُ عامِ ١٨١١ . وَكُنْتُ قَبْلَ ذٰلِكَ ٱلتّاريخِ ، وَلِمُدَّةِ ثَلاثِ سَنَواتٍ سَجينًا في سِجْنِ فِينِسْتْرِيل . »

« لٰكِنْ لِماذا أَنْتَ هُنا ؟ »

« أَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ إِيطالْيا مُقَسَّمَةٌ إِلى عَدَدٍ مِنَ ٱلْأَقاليمِ ٱلصَّغيرَةِ ، وَلِكُلِّ إِقْليمٍ حاكِمُهُ ٱلْمُسْتَقِلُّ . وَكانَتْ أُمْنِيَّتي تَوْحيدَ إِيطالْيا لِتُصْبِحَ دَوْلَةً واحِدَةً كَبيرَةً يَحْكُمُها مَلِكٌ عَظيمٌ واحِدٌ . وَقَدِ ٱعْتَقَدْتُ أَنّي

وَجدْتُ ذٰلِكَ ٱلمَلِكَ ٱلعظيمَ ، لٰكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ رَجُلٍ أَحْمَقَ . فَقَدْ راحَ يُنصِتُ لي لِيَعْرِفَ خُطَّتي ثُمَّ يَتَخَلَّصَ مِنِّي بَعْدَ ذٰلِكَ . وَٱلآنَ أَظُنُّ أَنَّهُ باتَ مِنَ ٱلمُسْتَحيلِ إِنْجازُ ذٰلِكَ ٱلعَمَلِ ٱلعَظيمِ . لَقَدْ بَدَأَ نابُلْيون ٱلعَمَلَ لِتَوْحيدِ إيطالْيا ، لٰكِنَّهُ لَمْ يُتِمَّ عَمَلَهُ . لَقَدْ كانَتْ إيطالْيا سَيِّئَةَ ٱلحَظِّ . »

وَقالَ كَلِماتِهِ ٱلأَخيرَةَ بِحُزْنٍ عَميق .

قالَ دانْتي : « أَوَدُّ أَنْ أَرى ٱلسِّرْدابَ ٱلَّذي أَعْدَدْتَهُ . »

قالَ فَارْيا : « اِتْبَعْني إِذًا . » وَهَبَطَ إِلى ٱلمَمَرِّ ٱلَّذي جاءَ مِنْهُ حَيْثُ غابَ بِسُرْعَةٍ عَنِ ٱلأَنْظارِ .

وَتَبِعَهُ دانْتي .

الفَصْلُ ٱلتَّاسِعُ

حُجْرَةُ فارْيا

الحِكْمَةُ

مَرَّ ٱلصَّديقانِ بِسُهولَةٍ داخِلَ ٱلنَّفَقِ وَأَزاحَ فَارْيا حَجَرًا مُثَبَّتًا في ٱلأَرْضِ فَتَمَكَّنا مِنَ ٱلدُّخولِ إِلى حُجْرَتِهِ .

وَما إِنْ دَخَلَ دانْتي ٱلحُجْرَةَ حَتّى نَظَرَ حَوْلَهُ في دَهْشَةٍ ، لٰكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا غَيْرَ عادِيٍّ فيها ، فَقالَ : « ثَمَّةَ شَيْءٌ لا أَزالُ عاجِزًا عَنْ فَهْمِهِ وَهُوَ : كَيْفَ تَسَنّى لَكَ أَنْ تُنْجِزَ هٰذا ٱلقَدْرَ ٱلهائِلَ مِنَ ٱلعَمَلِ خِلالَ ٱلنَّهارِ ؟ »

أَجابَ فارْيا : « إِنَّني أَعْمَلُ في ٱللَّيْلِ أَيْضًا . »

« في ٱللَّيْلِ ؟! هَلْ لَكَ عَيْنا قِطٍّ تَخْتَرِقانِ ٱلظَّلامَ ؟ »

« كَلّا بِٱلطَّبْعِ ! لٰكِنَّ ٱللهَ قَدْ مَنَحَ ٱلإِنْسانَ عَقْلًا يَسْتَطيعُ بِهِ أَنْ يُدَبِّرَ حاجاتِهِ ؛ وَعَلى هٰذا فَقَدْ صَنَعْتُ لِنَفْسي مِصْباحًا . »

« صَنَعْتَ مِصْباحًا ! وَكَيْفَ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تُوَفِّرَ لَهُ ٱلوَقودَ ؟ »

« حَصَلْتُ عَلى ٱلوَقودِ مِنَ ٱلزَّيْتِ ٱلَّذي يُقَدِّمونَهُ لَنا في ٱلطَّعامِ ، وَٱكْتَشَفْتُ أَنَّهُ وَقودٌ جَيِّدٌ . » وَأَمْسَكَ فارْيا بِٱلمِصْباحِ ٱلَّذي صَنَعَهُ وَقَدَّمَهُ إِلى دانْتي قائِلًا : « ها هُوَ ذا مِصْباحي ! »

وَجَلَسا يَتَحَدَّثانِ . وَكانَتْ كَلِماتُ فارْيا تَفيضُ عِلْمًا وَحِكْمَةً ، وَكانَ دانْتي يُصْغي إِلى كُلِّ كَلِمَةٍ مُنْدَهِشًا ؛ إِذْ كانَ فارْيا يَتَحَدَّثُ أَحْيانًا عَنْ أَشْياءَ يَعْرِفُها دانْتي جَيِّدًا كَبَحّارٍ ، بَيْنَما كانَ أَحْيانًا أُخْرى لا يَفْهَمُ عَلى ٱلإِطْلاقِ ٱلأَشْياءَ ٱلَّتي يَتَحَدَّثُ عَنْها .

وَسَأَلَهُ دانْتي : « هَلْ لَكَ أَنْ تُعَلِّمَني شَيْئًا مِمّا تَعْلَمُ حَتّى لا تَضيقَ بي ؟ إِنَّني أَعْتَقِدُ أَنَّ رَجُلًا في مِثْلِ عِلْمِكَ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ سَعيدًا سَواءٌ أَكانَ وَحْدَهُ أَوْ جَلَسَ مَعَ إِنْسانٍ مِثْلي يَكادُ جَهْلُهُ يَكونُ مُطْبِقًا . فَإِذا قُمْتَ بِدَوْرِ ٱلمُعَلِّمِ وَٱسْتَطَعْتُ أَنا بِدَوْري أَنْ أَكونَ تِلْميذًا ذَكِيًّا ؛ فَإِنَّ ٱلوَقْتَ سَوْفَ يَمْضي سَريعًا دونَ أَنْ يُصيبَكَ سَأَمٌ مِنْ وُجودي مَعَكَ . »

قالَ فارْيا : « لَيْسَتِ ٱلمَعْرِفَةُ صَعْبَةً يا بُنَيَّ ؛ إِذْ إِنَّ سَنَتَيْنِ ٱثْنَتَيْنِ تَكْفِيانِ لِنَقْلِ ما في رَأْسي مِنْ مَعْلوماتٍ إِلى رَأْسِكَ . »

صاحَ دانْتي : « سَنَتَيْنِ ؟! هَلْ تَعْني أَنَّهُ يُمْكِنُني خِلالَ سَنَتَيْنِ أَنْ

أَحْمِلَ في رَأْسي كُلَّ ما تَعْرِفُهُ أَنْتَ ؟ »

« إِنَّ ٱلإِلْمامَ بِٱلحَقائِقِ أَمْرٌ سَهْلٌ ، لٰكِنَّ ثَمَّةَ فَرْقًا كَبيرًا بَيْنَ ٱلعِلْمِ وَبَيْنَ أَنْ تَعْرِفَ . رُبَّما لا يَحْتاجُ ٱلأَمْرُ مِنْكَ إِلّا لِسَنَتَيْنِ ٱثْنَتَيْنِ كَيْما يَسْتَنيرَ رَأْسُكَ بِٱلعِلْمِ ؛ أَمّا أَنْ تَعْرِفَ ما تَعْلَمُهُ ، أَوْ أَنْ تَفْهَمَهُ فَهْمًا حَقيقِيًّا ، أَوْ تَسْتَرْشِدَ بِهِ في حَياتِكَ ، فَذٰلِكَ أَمْرٌ يَسْتَغْرِقُ ٱلعُمْرَ كُلَّهُ . أَنا مَثَلًا لَنْ أَكُفَّ عَنْ طَلَبِ ٱلعِلْمِ حَتّى غُروبِ شَمْسِ حَياتي . »

فَسَأَلَهُ دانْتي : « وَما ٱلَّذي سَتُعَلِّمُنيهِ أَوَّلًا ؟ وَمَتى نَبْدَأُ ؟ »

فَأَجابَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلعَجوزُ : « في ٱلحالِ ، إِذا أَرَدْتَ . »

كانَ دانْتي ذَكِيًّا لَمّاحًا سَريعَ ٱلفَهْمِ إِذا تَعَلَّمَ شَيْئًا لَمْ يَنْسَهُ قَطُّ . وَتَعَلَّمَ عَلى يَدِ فارْيا بِسُرْعَةٍ وَسُهولَةٍ ؛ فَراحَ يَدْرُسُ تاريخَ ٱلعالَمِ ، وَٱللُّغَةَ ٱلإِنْجليزِيَّةَ ، وَأَشْياءَ أُخْرى كَثيرَةً .

وَمَعَ مُضِيِّ ٱلزَّمَنِ ، صارَ دانْتي إِنْسانًا جَديدًا ، عَلى حينِ لَمْ يَكُنِ ٱلأَمْرُ كَذٰلِكَ بِٱلنِّسْبَةِ لِفارْيا . فَعَلى ٱلرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كانَ يَجِدُ مُتْعَةً كَبيرَةً في صُحْبَةِ دانْتي وَتَعْليمِهِ ، فَإِنَّهُ كانَ يَزْدادُ حُزْنًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .

كانَتْ ثَمَّةَ فِكْرَةٌ تَشْغَلُ ذِهْنَهُ ، وَكانَ يَجْلِسُ أَحْيانًا صامِتًا بِضْعَ ساعاتٍ . ثُمَّ بَدَأَ يَغْدو وَيَروحُ داخِلَ حُجْرَتِهِ ٱلضَّيِّقَةِ . وَفي ٱلنِّهايَةِ أَطْلَعَ دانْتي عَلى خُطَّةٍ رَسَمَها لِهُروبِهِما مَعًا . وَكانَتِ ٱلخُطَّةُ تَشْمَلُ رَسْمًا

لِحُجْرَتِهِ وَحُجْرَةِ إدْمون ، ثُمَّ ٱلْمَمَرَّ ٱلسُّفْلِيَّ ٱلَّذي قاما بِحَفْرِهِ . وَفي هٰذا ٱلْمَمَرِّ ٱلسُّفْلِيِّ سَوْفَ يَحْفِرانِ نَفَقًا آخَرَ يَمْتَدُّ أَسْفَلَ ٱلطَّريقِ ٱلَّذي يَذْرَعُهُ جُنودُ ٱلحِراسَةِ جيئَةً وَذَهابًا . وَكانَ هٰذا ٱلطَّريقُ مَصْنوعًا مِنْ كُتَلٍ حَجَرِيَّةٍ ضَخْمَةٍ .

شَرَحَ فارْيا لِدانْتي ٱلْخُطَّةَ قائِلًا : « سَوْفَ نُزيلُ ٱلتُّرابَ مِنْ تَحْتِ واحِدٍ مِنْ تِلْكَ ٱلحِجارَةِ حَتّى يُصْبِحَ آيِلًا لِلسُّقوطِ ، ثُمَّ نَسْنُدُهُ بِقِطْعَةٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ ، وَعِنْدَما نَكونُ مُتَأَهِّبَيْنِ لِلْهُروبِ نَنْزِعُ قِطْعَةَ ٱلْخَشَبِ حَتّى إذا ما جاءَ ٱلحارِسُ وَمَرَّ فَوْقَ ٱلحَجَرِ سَقَطَ في ٱلنَّفَقِ . عِنْدَئِذٍ يُمْكِنُكَ أَنْ تَقْبِضَ عَلَيْهِ وَتَشُدَّ وِثاقَهُ ، فَلا يَسْتَطيعَ الإفْلاتَ أَوِ ٱلصُّراخَ ، وَعِنْدَئِذٍ يُمْكِنُنا ٱلْوُصولُ إلى ٱلْبَحْرِ ، وَمِنْ هُناكَ نَسْبَحُ إلى إحْدى ٱلْجُزُرِ ٱلْقَريبَةِ . »

مَـرَضٌ رَهـيبٌ

وَبَدَأَ ٱلعَمَلُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي ، وَكانا لا يَتَوَقَّفانِ عَنِ ٱلعَمَلِ إلّا لِيَعودَ كُلٌّ مِنْهُما إلى حُجْرَتِهِ قَبْلَ مَقْدَمِ ٱلحارِسِ يَحْمِلُ مَعَهُ إحْدى وَجَباتِ ٱلطَّعامِ . كانَتْ أَسْماعُهُما يَقِظَةً لِأَقَلِّ صَوْتٍ يَصْدُرُ عَنْ أَقْدامِهِ وَهِيَ تَقْتَرِبُ مِنْهُما هابِطَةً دَرَجاتِ ٱلسُّلَّمِ ، ٱلأَمْرُ ٱلَّذي أَتاحَ لَهُما أَنْ يَكونا دائِمًا مُسْتَعِدَّيْنِ لِلِقائِهِ .

أَمّا مُخَلَّفاتُ ٱلحَفْرِ فَكانا يُحَوِّلانِها إلى تُرابٍ ناعِمٍ يُلْقِيانِ بِهِ مِنَ

ٱلنّافِذَةِ في ٱللَّيْلِ فَتَذْروهُ ٱلرِّياحُ .

وَأَخيرًا تَمَّ حَفْرُ ٱلطَّريقِ ٱلسُّفْلِيِّ ، وَظَلَّ ٱلحَجَرُ في مَكانِهِ مُعَدًّا لِلسُّقوطِ في ٱلوَقْتِ ٱلْمُحَدَّدِ عِنْدَما يَتَأَهَّبانِ لِلْهُروبِ . وَوَصَلَ إلى أَسْماعِهِما صَوْتُ وَقْعِ خُطُواتِ ٱلحارِسِ وَهُوَ يَغْدو وَيَروحُ فَوْقَ رَأْسَيْهِما .

وَكانَ عَلَيْهِما أَنْ يَنْتَظِرا لَيْلَةً حالِكَةَ ٱلسَّوادِ تُعينُهُما عَلى ٱلْهَرَبِ ، وَكانَتْ خَشْيَتُهُما ٱلكُبْرى أَنْ يَسْقُطَ ٱلحَجَرُ قَبْلَ ٱلْمَوْعِدِ ٱلْمُحَدَّدِ . وَٱنْشَغَلَ دانْتي في تَدْعيمِهِ بِحَجَرٍ آخَرَ ، عَلى حينَ مَكَثَ فارْيا في حُجْرَةِ إدْمون . وَفَجْأَةً سَمِعَهُ إدْمون يُطْلِقُ صَيْحَةَ أَلَمٍ حادَّةً ، فَأَسْرَعَ إلَيْهِ لِيَجِدَهُ واقِفًا في مُنْتَصَفِ ٱلْحُجْرَةِ وَقَدْ شَحَبَ وَجْهُهُ شُحوبَ ٱلْمَوْتِ .

صاحَ دانْتي : « ما ٱلأَمْرُ ؟ ماذا حَدَثَ ؟ »

أَجابَهُ فارْيا : « أَسْرِعْ يا إدْمون ، وَأَنْصِتْ جَيِّدًا إلى ما سَأَقولُهُ . »

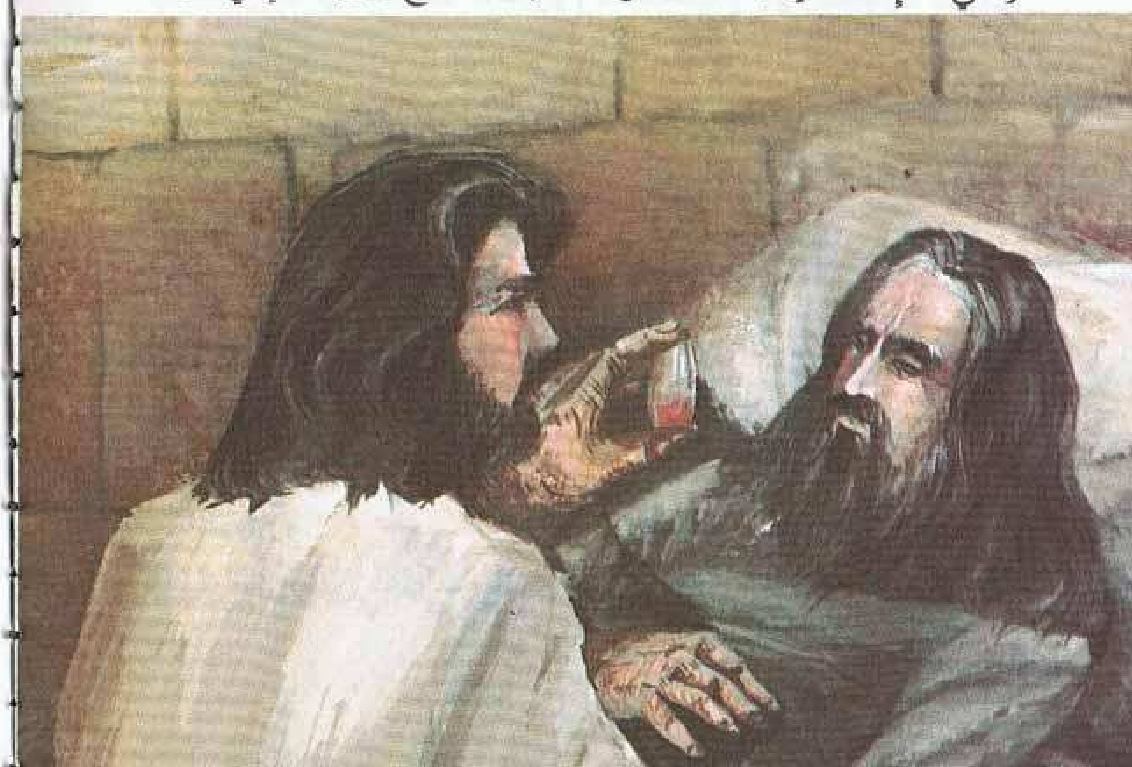
نَظَرَ دانْتي إلى وَجْهِ فارْيا بِخَوْفٍ وَدَهْشَةٍ لِما أَصابَهُ . كانَتْ عَيْناهُ غائِمَتَيْنِ تُحيطُ بِهِما دَوائِرُ عَميقَةٌ زَرْقاءُ ، أَمّا بَشَرَتُهُ فَقَدْ كانَتْ أَشْبَهَ بِبَشَرَةِ رَجُلٍ مَيِّتٍ .

قالَ فارْيا : « دانْتي أَصْغِ إلَيَّ . لَقَدْ أُصِبْتُ بِمَرَضٍ رَهيبٍ مِنَ ٱلْمُمْكِنِ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيَّ . إنّي أُحِسُّ بِهِ يَنْتَشِرُ في جَسَدي بِسُرْعَةٍ .

وَلَقَدْ سَبَقَ أَنْ أُصِبْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ أُودَعَ السِّجْنَ بِعامٍ . وَثَمَّةَ شَيْءٌ واحِدٌ يَنْبَغي عَمَلُهُ : أَنْ تُعينَني عَلى العَوْدَةِ إِلى حُجْرَتي وَأَنا لا أَزالُ مُتَماسِكًا . وَاسْحَبْ إِحْدى الأَرْجُلِ الَّتي تَحْمِلُ سَريري ، وَسَتَجِدُ تَحْتَها فُتْحَةً بِداخِلِها قارورَةٌ صَغيرَةٌ بِها سائِلٌ أَحْمَرُ . »

كانَ دانْتي قَدْ تَعَوَّدَ عَلى مُواجَهَةِ الأَخْطارِ المُفاجِئَةِ ، فَجَذَبَ فارْيا بِسُرْعَةٍ عَبْرَ النَّفَقِ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ ، لِيَعودَ بِهِ إِلى حُجْرَتِهِ وَيُرْقِدَهُ عَلى فِراشِهِ .

وَشَكَرَهُ الرَّجُلُ المِسْكينُ الَّذي سَرَتِ البُرودَةُ في جِسْمِهِ كَما لَوْ كانَتْ دِماؤُهُ قَدْ تَجَمَّدَتْ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : « عَلَيَّ الآنَ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْ مَرَضي . إِنَّ الَّذي يَحْدُثُ هُوَ أَنَّهُ عِنْدَما يَبْلُغُ ذِرْوَتَهُ فَإِنَّني أَرْقُدُ



بِلا حَراكٍ وَتَنْتابُني بُرودَةٌ كَبُرودَةِ المَوْتِ . عِنْدَ ذاكَ وَلَيْسَ قَبْلَهُ ، افْتَحْ فَمي عَنْوَةً وَصُبَّ ثَمانِيَ قَطَراتٍ أَوْ عَشْرًا مِنْ هٰذا السّائِلِ الأَحْمَرِ ، وَانْتَظِرْ لَعَلّي أَسْتَرِدُّ عافِيَتي . »

وَلَمْ يَسْتَطِعْ فارْيا أَنْ يَمْضِيَ في حَديثِهِ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ؛ إِذْ ظَهَرَتْ عَلى وَجْهِهِ زُرْقَةُ المَوْتِ .

وَانْتَظَرَ دانْتي حَتّى بَدا فارْيا كَأَنَّهُ قَدْ ماتَ ، عِنْدَئِذٍ فَتَحَ فَمَهُ عَنْوَةً ، وَراحَ يَصُبُّ فيهِ تِسْعَ قَطَراتٍ مِنَ السّائِلِ الأَحْمَرِ .

وَتَرَقَّبَ فَزِعًا ما سَيَحْدُثُ ...

وَمَضَتْ ساعَةٌ دونَ أَنْ يَحْدُثَ شَيْءٌ . وَلَمْ يَبْدُ عَلى الجَسَدِ المُمَدَّدِ أَيُّ بَصيصٍ مِنَ الحَياةِ . غَيْرَ أَنَّ الوَجْهَ في النِّهايَةِ بَدَأَ يَسْتَرِدُّ بَعْضًا مِنْ لَوْنِهِ ، وَأَخَذَتِ الحَياةُ تَدِبُّ في العَيْنَيْنِ المَفْتوحَتَيْنِ الغائِمَتَيْنِ . وَشَرَعَ المَريضُ يُحاوِلُ أَنْ يَتَحَرَّكَ .

« لا تَفْقِدِ الأَمَلَ »

لَمْ يَكُنْ في اسْتِطاعَةِ الرَّجُلِ المَريضِ أَنْ يَتَكَلَّمَ ، إِلّا أَنَّهُ أَشارَ إِلى البابِ وَالخَوْفُ في عَيْنَيْهِ ، وَأَصْغى دانْتي فَسَمِعَ خُطُواتِ أَقْدامِ الحارِسِ بِوُضوحٍ . وَكانَ الخَوْفُ قَدْ طَرَدَ مِنْ رَأْسِهِ كُلَّ تَفْكيرٍ في مَواعيدِ الحارِسِ .

وَقَفَزَ ٱلشَّابُ إلى ٱلْفُتْحَةِ ٱلْمُوَصِّلَةِ لِلْحُجْرَتَيْنِ ، فَنَزَعَ ٱلْحَجَرَ ٱلَّذي يَسُدُّ ٱلْفُوَّهَةَ ، وَأَسْرَعَ إلى حُجْرَتِهِ ، وَما إنْ بَلَغَها حَتَّى فَتَحَ ٱلْحارِسُ ٱلْبابَ ، وَدَخَلَ لِيَجِدَ سَجينَهُ كَعادَتِهِ جالِسًا عَلى حافَةِ ٱلْفِراشِ .

تَرَكَ دانْتِي طَعامَهُ دونَ أَنْ يَمَسَّهُ ، وَما إنْ سَمِعَ صَوْتَ ٱلْمِفْتاحِ وَهُوَ يُغْلِقُ ٱلْبابَ حَتَّى أَسْرَعَ عائِدًا إلى غُرْفَةِ فارْيا . رَفَعَ ٱلْحَجَرَ بِرَأْسِهِ وَأَصْبَحَ مِنْ فَوْرِهِ بِجِوارِ فِراشِ ٱلرَّجُلِ ٱلْمَريضِ .

وَتَذَكَّرَ فارْيا أَيْنَ هُوَ ، وَأَصْبَحَ بِمَقْدورِهِ ٱلْكَلامُ ، إلّا أَنَّهُ كانَ خائِرَ ٱلْقُوى .

قالَ لِدانْتِي : « لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ أَنْ أَراكَ مَرَّةً أُخْرى . »

فَسَأَلَهُ ٱلشَّابُ : « وَلِمَ لا ؟ هَلْ ظَنَنْتَ أَنَّكَ سَتَموتُ ؟ »

« لَمْ أُفَكِّرْ في هٰذا ، لٰكِنَّني أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُعَدٌّ لِهُروبِكَ ، فَٱعْتَقَدْتُ أَنَّكَ ٱنْتَهَزْتَ ٱلْفُرْصَةَ وَنَجَوْتَ بِنَفْسِكَ . »

ظَهَرَ ٱلْغَضَبُ واضِحًا في عَيْنَيْ دانْتِي فَقالَ : « هَلْ ظَنَنْتَني حَقيرًا لِدَرَجَةِ أَنْ أَهْرُبَ بِدونِكَ ؟ »

قالَ ٱلرَّجُلُ ٱلْعَجوزُ : « كانَ فِكْري مُشَوَّشًا . وَقَدْ أَتى هٰذا ٱلْمَرَضُ عَلى كُلِّ قُوايَ تَقْريبًا . »

قالَ دانْتِي : « لا تَفْقِدِ ٱلْأَمَلَ ، فَسَوْفَ تَسْتَرِدُّ عافِيَتَكَ . » ثُمَّ جَلَسَ بِجِوارِ فارْيا عَلى فِراشِهِ ، وَراحَ يُدَلِّكُ يَدَيْهِ ٱلْبارِدَتَيْنِ .

قالَ فارْيا : « لا ! إنَّ صِحَّتي في تَدَهْوُرٍ ، وَدَليلي عَلى ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَرَضَ عِنْدَما هاجَمَني أَوَّلَ مَرَّةٍ ، لَمْ تَسْتَمِرَّ ٱلنَّوْبَةُ غَيْرَ نِصْفِ ساعَةٍ ، وَعِنْدَما ٱنْتَهَتْ لَمْ أُحِسَّ إلّا بِٱلْجوعِ . وَقُمْتُ مِنْ فِراشِي دونَ عَوْنٍ مِنْ أَحَدٍ . أَمّا هٰذِهِ ٱلْمَرَّةَ فَإنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُحَرِّكَ ذِراعِيَ أَوْ رِجْلِيَ ٱلْيُمْنى ، كَذٰلِكَ أَشْعُرُ بِأَلَمٍ في رَأْسي . وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ في ٱلنَّوْبَةِ ٱلثّالِثَةِ سَوْفَ يَنْتَهي بِيَ ٱلْأَمْرُ إلى ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلشَّلَلِ . »

صاحَ دانْتِي قائِلًا : « لا ، لا ، لَنْ تَموتَ . وَإذا هاجَمَتْكَ ٱلنَّوْبَةُ مَرَّةً أُخْرى — وَلَنْ يَحْدُثَ ذٰلِكَ بِمَشيئَةِ ٱللهِ — فَإنَّكَ سَتَكونُ طَليقًا ، وَعِنْدَئِذٍ يَسْهُلُ عَلَيْنا أَنْ نُعالِجَكَ ؛ لِأَنَّ ٱلظُّروفَ سَتَكونُ أَفْضَلَ ، وَٱلْإمْكانِيّاتِ مُتَوَفِّرَةٌ . »

أَجابَ فارْيا : « يا صَديقِيَ ٱلْعَزيزَ إدْمون ، لا تُعَلِّلْ نَفْسَكَ بِٱلْأَماني لَقَدْ حَكَمَ هٰذا ٱلْمَرَضُ عَلَيَّ بِأَنْ أَبْقى رَهينَ ٱلسِّجْنِ إلى ٱلْأَبَدِ ؛ إذْ لا يَسْتَطيعُ ٱلْإنْسانُ أَنْ يَهْرُبَ مِنَ ٱلسِّجْنِ وَهُوَ عاجِزٌ عَنِ ٱلسَّيْرِ . »

قالَ دانْتِي : « رُبَّما لا تَسْتَطيعُ ٱلْآنَ أَنْ تَهْرُبَ ، لٰكِنْ ما حاجَتُنا إلى ٱلْعَجَلَةِ ؟ لِنَنْتَظِرْ وَقْتًا أَطْوَلَ . لَقَدِ ٱنْتَظَرْنا كَثيرًا ، فَماذا يُضيرُنا لَوْ بَقينا كَذٰلِكَ أُسْبوعًا أَوْ شَهْرًا أَوْ شَهْرَيْنِ إذا ما تَطَلَّبَ ٱلْأَمْرُ ؟ فَقَط

يَجِبُ أَنْ نَتَّخِذَ قَرارَنا في ٱلوَقْتِ ٱلمُناسِبِ ، وَذٰلِكَ في ٱللَّحْظَةِ ٱلَّتي نُحِسُّ فيها أَنَّكَ قادِرٌ عَلى ٱلسِّباحَةِ . »

أَجابَ فارْيا : « لَقَدِ ٱنْتَهى ٱلأَمْرُ يا إِدْمُون ، وَلَنْ أَقْوى عَلى ٱلسِّباحَةِ . لَقَدْ فَقَدَتْ ذِراعي قُوَّتَها ، لَيْسَ فِقْدانًا مُؤَقَّتًا ، بَلْ إِلى ٱلأَبَدِ . »

« كَيْفَ تَجْزِمُ بِما تَقولُ ؟ وَإِذا كُنْتَ لا تَسْتَطيعُ ٱلسِّباحَةَ ، فَسَوْفَ أَحْمِلُكَ عَلى ظَهْري وَأَسْبَحُ بِكَ . »

قالَ فارْيا : « يا بُنَيَّ ، نَعَمْ أَنْتَ بَحّارٌ وَماهِرٌ في ٱلسِّباحَةِ ، لٰكِنَّكَ تَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ ٱلإِنْسانَ ٱلَّذي يَحْمِلُ رَجُلًا في مِثْلِ وَزْني لا يُمْكِنُهُ أَنْ يَسْبَحَ أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ مِتْرٍ . أَنْتَ شابٌّ يا إِدْمُون ، وَقَوِيٌّ ، فَلا تُبَدِّدْ وَقْتَكَ مَعي . فَٱنْجُ بِنَفْسِكَ وَٱذْهَبْ . »

قالَ دانْتي : « أَشْكُرُكَ عَلى هٰذِهِ ٱلنَّصيحَةِ ، لٰكِنَّني أُعاهِدُ ٱللهَ أَنْ أَبْقى مَعَكَ ما دامَ فيكَ نَفَسٌ يَتَرَدَّدُ ، وَلَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَنا غَيْرُ ٱلمَوْتِ . »

نَظَرَ فارْيا بِحُبٍّ إِلى صَديقِهِ ٱلشّابِّ ٱلَّذي كانَ وَجْهُهُ يَنْطِقُ بِصِدْقِ كَلامِهِ وَمَشاعِرِهِ ، وَقالَ بِهُدوءٍ ، وَهُوَ يَمُدُّ يَدَهُ ٱلوَحيدَةَ ٱلَّتي تَتَحَرَّكُ : « أَشْكُرُكَ يا بُنَيَّ . وَأَرْجو مِنَ ٱللهِ أَنْ يُقَدِّرَني عَلى جَميلِكَ عَمّا قَريبٍ ، فَإِنَّكَ نِعْمَ ٱلصَّديقُ . وَٱلآنَ ما دُمْتُ أَنا لا أَسْتَطيعُ وَأَنْتَ لا تُريدُ مُغادَرَةَ ٱلمَكانِ ، فَمِنَ ٱلضَّرورِيِّ أَنْ نَرْدِمَ ٱلحُفْرَةَ ٱلَّتي يَمُرُّ ٱلحارِسُ مِنْ

فَوْقِها ، خَشْيَةَ أَنْ يَلْحَظَ مِنْ وَقْعِ أَقْدامِهِ عَلى ٱلحَجَرِ أَنَّ هُناكَ تَجْويفًا تَحْتَهُ ، فَيُخْبِرَ ٱلضّابِطَ ، وَيَكْتَشِفوا ٱلسِّرْدابَ ، وَيُفَرِّقوا بَيْنَنا . وَٱلآنَ ٱذْهَبْ ، وَتَعالَ في ٱلصَّباحِ بَعْدَ ٱنْصِرافِ ٱلحارِسِ لِأُخْبِرَكَ بِشَيْءٍ شَديدِ ٱلأَهَمِّيَّةِ . »

فَتَناوَلَ دانْتي يَدَ فارْيا وَضَغَطَها بِمَوَدَّةٍ وَحُبٍّ ، ثُمَّ ٱنْصَرَفَ إِلى عَمَلِهِ ٱلَّذي كانَ عَلَيْهِ أَنْ يَقومَ بِهِ في نِهايَةِ سِرْدابِ ٱلهَرَبِ .

الفَصْلُ ٱلعاشِرُ
قِصَّةُ ٱلكَنْز

قِطْعَةٌ مِنَ ٱلوَرَق

عِنْدَما عادَ دانْتِي إلى حُجْرَةِ فارْيا صَباحَ ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي وَجَدَهُ أَفْضَلَ قَليلًا . في ٱلْبِدايَةِ لَمْ يَتَكَلَّمْ فارْيا ، لٰكِنَّهُ وَضَعَ أَمامَ دانْتِي قِطْعَةً صَغيرَةً مِنَ ٱلْوَرَقِ .

فَسَأَلَهُ دانْتِي : « ما هٰذِهِ ؟ »

أَجابَهُ ٱلعَجوزُ : « أُنْظُرْ إِلَيْها . »

« لَقَدْ نَظَرْتُ ، فَلَمْ أَجِدْ غَيْرَ وَرَقَةٍ ٱحْتَرَقَ نِصْفُها ، وَعَلَيْها كِتابَةٌ بِلَوْنٍ غَريبٍ . »

« إِنَّني أَسْتَطيعُ ٱلآنَ أَنْ أُخْبِرَكَ ، وَأَنا مُطْمَئِنٌّ ، بِسِرِّ هٰذِهِ ٱلوَرَقَةِ ، بَعْدَ أَنْ ثَبَتَ لِي إِخْلاصُكَ وَحُبُّكَ . إِنَّ هٰذِهِ ٱلوَرَقَةَ هِيَ كَنْزي ، وَمِنَ ٱلآنَ فَصاعِدًا سَيَكونُ نِصْفُ هٰذا ٱلكَنْزِ لَكَ . »

قالَ دانْتِي وَهُوَ لا يَدْري بِماذا يَرُدُّ : « كَنْزُكَ ؟! »

غَيْرَ أَنَّ فارْيا مَضى يَقولُ : « نَعَمْ ! إِنَّكَ لَذو قَلْبٍ نَبيلٍ حَقًّا يا إِدْمُون ، وَأَرْجو أَلّا تَظُنَّ بِعَقْلِيَ ٱلظُّنونَ . فَإِنَّني لَسْتُ مَجْنونًا ، وَإِنَّ ثَمَّةَ كَنْزًا فِعْلًا . »

تَناوَلَ إِدْمون قِطْعَةَ ٱلوَرَقَةِ ٱلمُحْتَرِقَةَ ، وَقالَ : « أَنا لا أَرى غَيْرَ سُطورٍ مَبْتورَةٍ وَكَلِماتٍ ناقِصَةٍ لا تَعْني شَيْئًا ، كَما أَنَّهُ مِنَ ٱلصَّعْبِ قِراءَتُها بِسَبَبِ ٱحْتِراقِها . »

قالَ فارْيا : « هٰذا بِٱلنِّسْبَةِ لَكَ يا صَديقي ، أَمّا بِٱلنِّسْبَةِ لِي فَقَدْ حَفِظْتُها لَيْلَةً بَعْدَ أُخْرى حَتّى ٱسْتَوْعَبْتُها تَمامًا ، وَصارَ مِنَ ٱلسَّهْلِ عَلَيَّ مَعْرِفَةُ ما خَفِيَ مِنْ كَلِماتٍ وَما ٱسْتَغْلَقَ مِنْ أَفْكارٍ . »

« هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّكَ تَوَصَّلْتَ مِنْها إِلى شَيْءٍ ؟ »

« بِٱلتَّأْكيدِ ، وَسَوْفَ تَحْكُمُ أَنْتَ عَلى ٱلأَمْرِ بِنَفْسِكَ . وَلٰكِنْ لا بُدَّ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْكَ قِصَّتَها أَوَّلًا . »

قِصَّةُ ٱلوَرَقَة

قالَ فارْيا : « كُنْتُ ، كَما تَعْرِفُ ، صَديقًا لِلأَميرِ سِپادا ، آخِرِ ٱلأُمَراءِ ٱلَّذينَ يَحْمِلونَ هٰذا ٱلاسْمَ ، وَمُعاوِنًا لَهُ وَكُنْتُ سَعيدًا بِصَداقَتِهِ .

وَلَمْ يَكُنْ غَنِيًّا ، رَغْمَ أَنَّ ثَرْوَةَ أُسْرَتِهِ كانَتْ يَوْمًا ما مَضْرِبَ ٱلْأَمْثالِ ؛ بَلْ عَلى ٱلعَكْسِ ، كانَ قَليلَ ٱلمالِ . وَكُنْتُ أُشاهِدُهُ كَثيرًا وَهُوَ يَقْرَأُ في بَعْضِ ٱلكُتُبِ ٱلقَديمَةِ وَيَتَصَفَّحُ ٱلْأَوْراقَ ٱلَّتي تَرَكَتْها لَهُ أُسْرَتُهُ ؛ وَلَمّا ٱسْتَفْسَرْتُ مِنْهُ يَوْمًا عَمّا يَفْعَلُهُ نَظَرَ إِلَيَّ ، ثُمَّ فَتَحَ لِي كِتابًا عَنْ تاريخِ مَدينَةِ رُوما، وَهُوَ يُطْلِقُ ضِحْكَةً حَزينَةً ، ثُمَّ أَشارَ بِأُصْبُعِهِ إِلى تِلْكَ ٱلسُّطورِ ٱلَّتي لَنْ أَنْساها ما حَيِيتُ :

« كانَ سيزار بُورْجيا يَحْتاجُ إِلى نُقودٍ يُدَبِّرُ بِها أَمْرَ حُروبِهِ ٱلكَثيرَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلسَّهْلِ عَلَيْهِ في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ أَنْ يَحْصُلَ عَلى نُقودٍ بِسَبَبِ ٱلحُروبِ ٱلطَّويلَةِ ٱلَّتي خاضَتْها ٱلبِلادُ ، وَٱلَّتي تَرَكَتْها في حالَةٍ يُرْثى لَها ، فَبَدَأَ يُعِدُّ خُطَّةً لِلْحُصولِ عَلى ما يُريدُ .

« وَكانَ ثَمَّةَ رَجُلانِ ٱشْتَهَرا بِثَرَواتِهِما ٱلضَّخْمَةِ ، هُما : رُوسْبيغلْيُوسي وَسْبادا ، فَدَعاهُما سيزار بُورْجيا إِلى ٱلغَداءِ مَعَهُ في حَديقَةِ قَصْرِهِ . وَكانَ رُوسْبيغلْيُوسي سَعيدًا بِتِلْكَ ٱلدَّعْوَةِ وَما تُمَثِّلُهُ مِنْ شَرَفٍ ، فَٱرْتَدى أَبْهى ما عِنْدَهُ مِنْ ثِيابٍ . أَمّا سْبادا فَقَدْ كانَ رَجُلًا حَكيمًا يَعْرِفُ أَنَّ ٱلمَوْتَ وَراءَ هٰذِهِ ٱلمَأْدُبَةِ ، فَما كانَ مِنْهُ إِلّا أَنْ كَتَبَ بِضْعَةَ أَسْطُرٍ قَبْلَ أَنْ يُغادِرَ مَنْزِلَهُ . وَكانَ عَلى ثِقَةٍ أَنَّ ٱلمَوْتَ يَكْمُنُ في ٱلكَأْسِ ٱلمُقَدَّمَةِ لَهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ كانَ يَعْرِفُ كَذٰلِكَ أَنَّهُ مَيِّتٌ .. مَيِّتٌ ، حَتّى لَوْ لَمْ يَشْرَبِ ٱلكَأْسَ . وَعَلى هٰذا فَقَدْ شَرِبَها ، فَلَفَظَ أَنْفاسَهُ عِنْدَ بابِ ٱلحَديقَةِ .

« وَوَضَعَ سيزار بُورْجيا يَدَهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَخَذَ أَوْراقَ ٱلرَّجُلِ ٱلمَيِّتِ بِما فيها تِلْكَ ٱلَّتي كَتَبَها قُبَيْلَ مَوْتِهِ فَوَجَدَ فيها :

« ' إِنَّني أَهَبُ كُلَّ ما أَمْلِكُ لِابْنِ أَخي : أَمْوالِي كُلَّها ، وَجَميعَ كُتُبي ، وَمِنْ بَيْنِها كِتابُ ٱلصَّلَواتِ ذو ٱلْأَرْكانِ ٱلذَّهَبِيَّةِ ، فَأَرْجوهُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهِ وَأَنْ يَعْتَنِيَ بِهِ عِنايَةً خاصَّةً ، وَآمُلُ أَنْ يُعينَهُ عَلى أَنْ يَتَذَكَّرَ عَمَّهُ ٱلعَزيزَ . ' وَبَحَثَ سيزار في كُلِّ مَكانٍ ، لٰكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا . كانَ ثَمَّةَ بِضْعُ كُئوسٍ ذَهَبِيَّةٍ ، وَبَعْضُ ٱلجَواهِرِ ، وَبَعْضُ ٱلنُّقودِ ٱلقَليلَةِ ، ثُمَّ لا شَيْءَ آخَرَ . أَمّا كَنْزُ عائِلَةِ سْبادا ، هٰذا إِذا كانَ لِمِثْلِ هٰذا ٱلكَنْزِ وُجودٌ ، فَقَدِ ٱخْتَفى بِكُلِّ بَساطَةٍ .

« وَعِنْدَما طُرِدَ سيزار بُورْجيا مِنْ رُوما ، ظَنَّ ٱلنّاسُ أَنَّ ثَرْوَةَ أُسْرَةِ سْبادا سَوْفَ تَظْهَرُ ثانِيَةً ، غَيْرَ أَنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَحْدُثْ ، وَظَلَّتْ أُسْرَةُ سْبادا فَقيرَةً ، فَظَنَّ ٱلنّاسُ أَنَّ سيزار بُورْجيا رُبَّما يَكونُ قَدْ عَثَرَ عَلى ٱلمالِ ، رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ ! »

كَنْزُ آلِ سْبادا

كانَ عَلى ٱلرَّجُلِ ٱلعَجوزِ أَنْ يَتَوَقَّفَ دَقائِقَ يَلْتَقِطُ فيها أَنْفاسَهُ ، ثُمَّ ٱسْتَكْمَلَ حَديثَهُ قائِلًا : « مَضَتِ ٱلسَّنَواتُ وَصارَ ٱلْأَبْناءُ ثُمَّ أَبْناءُ ٱلْأَبْناءِ جُدودًا . وَكانَ بَعْضُ أَبْناءِ هٰذِهِ ٱلْأُسْرَةِ جُنودًا في ٱلجَيْشِ ، وَبَعْضُهُمْ تَوَلّى وَظائِفَ حُكومِيَّةً ، وَفَريقٌ ثالِثٌ ٱشْتَغَلَ بِٱلتِّجارَةِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ

أَثْرى ، وَمِنْهُمْ مَنِ ٱفْتَقَر . وَهٰكَذا نَصِلُ إِلى آخِرِ فَرْدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلأُسْرَةِ وَهُوَ صَديقِي ٱلأَميرُ سْپادا .

« وَٱنْتَقَلَ أَخيرًا كِتابُ ٱلصَّلَواتِ ٱلشَّهيرُ ، ٱلَّذي ظَلَّ مَعَ ٱلأُسْرَةِ زَمَنًا ، إِلى مِلْكِيَّةِ ٱلأَميرِ . وَكانَ مَكْتوبًا بِخَطٍّ جَميلٍ وَمُغَشًّى بِٱلذَّهَبِ ، مِمّا جَعَلَ وَزْنَهُ ثَقيلًا ، وَٱسْتَلْزَمَ أَنْ يَحْمِلَهُ ٱلخادِمُ دائِمًا لِلْأَميرِ كُلَّما ذَهَبَ لِلصَّلاةِ .

« وَكَما فَعَلَ كَثيرٌ مِنْ أَسْلافي مِنْ قَبْلُ ، رُحْتُ أَفْحَصُ أَوْراقَ ٱلأُسْرَةِ ٱلَّتي كانَتْ تَمْلَأُ ٱلحُجُراتِ مُحاوِلًا أَنْ أَعْثُرَ عَلى إِجابَةٍ عَنْ ذٰلِكَ ٱلسُّؤالِ ٱلقَديمِ ٱلمُحَيِّرِ : أَيْنَ توجَدُ ثَرْوَةُ آلِ سْپادا ؟ وَظَلَّ ٱلسُّؤالُ يُلِحُّ دونَ أَنْ تَتَبَدَّدَ حَيْرَتي . قَرَأْتُ كُلَّ ما كُتِبَ عَنْ آلِ بورْجيا لِأَتَعَرَّفَ عَمّا إِذا كانَ سيزار بورْجيا قَدْ عَثَرَ عَلى ٱلثَّرْوَةِ فِي ٱلنِّهايَةِ أَمْ لا ، وَعَرَفْتُ مِمّا قَرَأْتُهُ أَنَّ بورْجيا قَدِ ٱسْتَوْلى عَلى كُلِّ ثَرْوَةِ روسْبيغْليوسي ، أَمّا بِٱلنِّسْبَةِ لِآلِ سْپادا فَلَمْ أَجِدْ ذِكْرًا لِثَرَواتِهِمْ ، وَفي ٱلنِّهايَةِ تَأَكَّدَ لي أَنَّ ٱلكَنْزَ ظَلَّ مُخْتَفِيًا طَوالَ تِلْكَ ٱلفَتْرَةِ .

« وَظَلَّ ٱلأَمْرُ عَلى ذٰلِكَ ٱلنَّحْوِ إِلى أَنْ ماتَ صَديقي ، وَبِمَوْتِهِ آلَ إِلَيَّ كُلُّ ما كانَ لَهُ ، وَلَمْ يَطْلُبْ مِنّي غَيْرَ أَنْ أَكْتُبَ تاريخَ أُسْرَتِهِ . »

« أَنْتَ ٱبْني »

تَوَقَّفَ فارِيا عَنِ ٱلحَديثِ ثانِيَةً قَبْلَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ قائِلًا : « في عامِ



١٨٠٧ ، وَقَبْلَ أَنْ أُوَدِّعَ ٱلسِّجْنَ بِشَهْرٍ ، كُنْتُ أَقْرَأُ بَعْضَ ٱلأَوْراقِ ٱلَّتي لَمْ يَكُنْ فيها شَيْءٌ ذو بالٍ ، فَغَلَبَني ٱلنُّعاسُ . وَكانَ ٱلوَقْتُ مَساءً عِنْدَما ٱسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمي ، وَكانَ ٱلظَّلامُ يَلُفُّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ حَوْلي ما عَدا ٱلضَّوْءَ ٱلجانِبِيَّ ٱلَّذي كانَ يَنْبَعِثُ مِنَ ٱلمِدْفَأَةِ فَأَمْسَكْتُ ٱلمِصْباحَ بِيَدٍ ، وَرُحْتُ أَتَحَسَّسُ بِٱليَدِ ٱلأُخْرى باحِثًا عَنْ قِطْعَةِ وَرَقٍ أُشْعِلُها .

« وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أُشْعِلَ أَيَّةَ وَرَقَةٍ هامَّةٍ ، وَتَذَكَّرْتُ أَنَّ هُناكَ وَرَقَةً بَيْضاءَ داخِلَ كِتابِ ٱلصَّلَواتِ تُسْتَخْدَمُ لِتَحْديدِ ٱلصَّفْحَةِ ٱلَّتي وَقَفَ عِنْدَها ٱلقارِئُ . كانَتْ هٰذِهِ ٱلوَرَقَةُ في مَكانِها مُنْذُ سَنَواتٍ طَويلَةٍ ، فَأَخَذْتُها ، وَوَضَعْتُ طَرَفَها في ٱلنّارِ . وَكَمْ كانَتْ دَهْشَتي إِذْ لاحَظْتُ أَنَّها عِنْدَما

ٱشْتَعَلَتْ بَدَأَتْ تَظْهَرُ فيها كِتابَةٌ صَفْراءُ ، فَأَطْفَأْتُ ٱلنّارَ بِأَسْرَعِ ما أَسْتَطيعُ ، وَأَوْقَدْتُ ٱلْمِصْباحَ وَفَتَحْتُ ٱلْوَرَقَةَ وَنَظَرْتُ إِلَيْها . كانَتِ ٱلْكَلِماتُ مُدَوَّنَةً فيها بِنَوْعٍ مِنْ مِدادٍ لا يُظْهِرُ ما هُوَ مَكْتوبٌ عَلَيْها إِلّا إِذا تَعَرَّضَتِ ٱلْوَرَقَةُ لِلْحَرارَةِ ، وَكانَ جُزْءٌ مِنَ ٱلْوَرَقَةِ قَدْ أَكَلَتْهُ ٱلنّارُ

« إِنَّ قِطْعَةَ ٱلْوَرَقِ ٱلَّتي في يَدِكَ هِيَ كُلُّ ما تَبَقّى . ٱقْرَأْها ثانِيَةً يا دانْتي وَسَوْفَ أُكْمِلُ لَكَ ما ٱحْتَرَقَ مِنْها . »

قَرَأَ دانْتي ٱلسُّطورَ ٱلصَّفْراءَ ٱلْمُدَوَّنَةَ في ٱلْوَرَقَةِ ، فَقالَ لَهُ فارْيا وَهُوَ يُقَدِّمُ لَهُ قِطْعَةَ وَرَقَةٍ أُخْرى ذاتَ سُطورٍ مَبْتورَةٍ : « وَٱلآنَ ضَعِ ٱلْوَرَقَتَيْنِ مَعًا ، وَقُلْ لي : هَلْ تَفْهَمُ ٱلآنَ ما فيها ؟ »

« نَعَمْ ، فَهِيَ ٱلْوَرَقَةُ ٱلَّتي كانَ كُلُّ إِنْسانٍ يُحاوِلُ أَنْ يَعْثُرَ عَلَيْها ، لٰكِنَّ ٱلْكِتابَةَ في ٱلْوَرَقَةِ ٱلثّانِيَةِ مُخْتَلِفَةٌ . »

قالَ فارْيا : « إِنَّهُ خَطّي أَنا يا إِدْمون ، وَأَكْمَلْتُ بِهِ ٱلْوَرَقَةَ ٱلْقَديمَةَ ، وَبَعْدَ أَنْ فَرَغْتُ مِنْ ذٰلِكَ قَرَّرْتُ أَنْ أَرْحَلَ مِنْ فَوْري وَمَعِيَ ٱلصَّفَحاتُ ٱلأولى مِنَ ٱلْكِتابِ ٱلْعَظيمِ ٱلَّذي كُنْتُ أَكْتُبُهُ عَنْ إيطالْيا ، لٰكِنَّ ٱلْحُكومَةَ كانَتْ قَدْ بَدَأَتْ تَشُكُّ فِيَّ ، وَلَمْ يَفْهَمِ ٱلْمَسْؤولونَ ٱلسِّرَّ في قَرارِ رَحيلِيَ ٱلْمُفاجِئِ ، فَأَلْقَوُا ٱلْقَبْضَ عَلَيَّ في ٱللَّحْظَةِ ٱلَّتي هَمَمْتُ فيها بِرُكوبِ ٱلسَّفينَةِ . »

نَظَرَ فارْيا إِلى دانْتي نَظْرَةً أَبَوِيَّةً ، ثُمَّ قالَ : « لَقَدْ سَرَدْتُ عَلَيْكَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَأَصْبَحْتَ ٱلآنَ تَعْرِفُ ٱلأَمْرَ كَما أَعْرِفُهُ أَنا بِٱلضَّبْطِ . وَلَوْ قُدِّرَ لَنا أَنْ نَهْرُبَ مِنْ هُنا فَسَوْفَ تَحْصُلُ عَلى نِصْفِ ٱلْكَنْزِ ، أَمّا إِذا كانَ مَكْتوبًا عَلَيَّ أَنْ أَموتَ في ٱلسِّجْنِ وَتَنْجُوَ أَنْتَ فَسَيَكونُ ٱلْكَنْزُ كُلُّهُ مِنْ نَصيبِكَ . »

قالَ لَهُ دانْتي : « كَلّا يا صَديقي ، ٱلْكَنْزُ كُلُّهُ كَنْزُكَ ، وَلا حَقَّ لي فيهِ ؛ فَلَسْتُ واحِدًا مِنْ أُسْرَتِكَ . »

لٰكِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلْعَجوزَ صاحَ قائِلًا : « لا تَقُلْ هٰذا يا إِدْمون ، فَأَنْتَ ٱبْني ، وَهَبَنيهِ ٱللهُ في ٱلسِّجْنِ .

« لَقَدْ أَرْسَلَكَ ٱللهُ لِتَكونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِرَجُلٍ لا يُمْكِنُهُ أَنْ يَكونَ أَبًا ، وَلا يَسْتَطيعُ أَنْ يَكونَ حُرًّا . »

الفصلُ ٱلحادي عشر

مَـــوْتُ فارْيــــا

ذاتَ لَيْلَــــةٍ

بَدا كما لَوْ أَنَّ ٱلسَّجينَيْنِ قَدْ ضاعَتْ آخِرُ فُرْصَةٍ لَهُما في ٱلهَرَبِ ، فَقَدْ قَوَّضَ ٱلعُمّالُ ٱلمَمَرَّ ٱلخارِجِيَّ لِلسِّجْنِ ، مُلْقينَ بِكُتَلِ ٱلحِجارَةِ في ٱلثُّغْرَةِ ٱلَّتي كانَ دانْتِي قَدْ سَدَّ نِصْفَها ، وَبِذٰلِكَ أَصْبَحَ ٱلمَمَرُّ جَديدًا تَمامًا .

قالَ دانْتِي لِفارْيا : « أَرَأَيْتَ ؟ أَلَمْ أَعِدْكَ بِٱلبَقاءِ إِلى جِوارِكَ إِلى ٱلأَبَدِ ؟ وَٱلآنَ لَمْ يَعُدْ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ أَحْنَثَ بِعَهْدي مَعَكَ حَتّى لَوْ حاوَلْتُ ٱلهُروبَ . أَمّا ٱلكَنْزُ فَإِنَّهُ لَنْ يَكونَ مِنْ نَصيبي وَلا مِنْ نَصيبِكَ ؛ لِأَنَّهُ لا يُمْكِنُ لِأَيِّنا أَنْ يَخْرُجَ مِنْ هٰذا ٱلسِّجْنِ . إِنَّ كَنْزِيَ ٱلحَقيقِيَّ هُوَ ما تُعَلِّمُني إِيّاهُ ، وَتُفيضُ عَلَيَّ بِهِ مِنْ حِكْمَتِكَ ، فَضْلًا عَنْ مُتْعَةِ ٱلحَديثِ مَعَكَ خَمْسَ ساعاتٍ أَوْ سِتًّا كُلَّ يَوْمٍ . »

وَعَلى هٰذا ، فَإِنَّ دانْتِي وَفارْيا ، وَإِنْ لَمْ يَكونا سَعيدَيْنِ ، إِلّا أَنَّ

أَيّامَهُما كانَتْ تَمْضي مُسْرِعَةً خالِيَةً مِنَ ٱلتَّعاسَةِ . وَلَمْ يَكُفَّ فارْيا عَنِ ٱلحَديثِ عَنْ كَنْزِهِ ، وَلَمْ يَكُفَّ عَنِ ٱلتَّفْكيرِ في طُرُقٍ لِدانْتِي لِلْهُروبِ مِنَ ٱلسِّجْنِ . وَلَمّا كانَ يَخْشى أَنْ يَفْقِدَ ٱلخِطابَ ، فَقَدْ راحَ يُلَقِّنُ دانْتِي ما جاءَ فيهِ كَلِمَةً كَلِمَةً ، ثُمَّ أَلْقى في ٱلنّارِ بِٱلوَرَقَةِ ٱلَّتي كَتَبَها يُكْمِلُ بِها ٱلسُّطورَ ٱلنّاقِصَةَ .

وَظَلَّ فارْيا عاجِزًا عَنْ تَحْريكِ يَدِهِ وَساقِهِ ، وَلٰكِنَّهُ ٱسْتَعادَ صَفاءَ ذِهْنِهِ وَقُوَّةَ إِدْراكِهِ ، فَٱسْتَمَرَّ يُعَلِّمُ دانْتِي ٱلتّاريخَ وَٱللُّغَةَ ٱلإِنْجِليزِيَّةَ وَغَيْرَهُما مِنَ ٱلمَوْضوعاتِ ؛ كَما عَلَّمَهُ أَيْضًا أَنَّ أَهَمَّ شَيْءٍ بِٱلنِّسْبَةِ لِلسَّجينِ هُوَ أَنْ يَصْنَعَ شَيْئًا مِنْ لا شَيْءٍ . وَعَلى هٰذا فَقَدْ كانَ وَقْتُهُما دائِمًا مَشْغولًا .

وَكانَ فارْيا يَعْمَلُ بِٱسْتِمْرارٍ حَتّى يَشْغَلَ نَفْسَهُ عَنِ ٱلتَّفْكيرِ في تَقَدُّمِهِ في ٱلعُمْرِ . أَمّا دانْتِي فَقَدْ كانَ يُغْرِقُ نَفْسَهُ في ٱلعَمَلِ حَتّى لا يَتَذَكَّرَ ماضِيَهُ .

وَذاتَ لَيْلَةٍ قامَ دانْتِي مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ هُناكَ مَنْ يُناديهِ ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَبَدَأَ يُصْغي جَيِّدًا . كانَ ثَمَّةَ صَوْتٌ خافِتٌ يَأْتيهِ عَبْرَ ٱلظَّلامِ يُحاوِلُ بِٱلفِعْلِ أَنْ يُنادِيَهُ ، فَقامَ وَسَحَبَ سَريرَهُ وَرَفَعَ ٱلحَجَرَ ، وَأَسْرَعَ فَهَبَطَ ٱلسِّرْدابَ ٱلمُوَصِّلَ بَيْنَ ٱلغُرْفَتَيْنِ ، فَوَجَدَ أَنَّ ٱلنّاحِيَةَ ٱلأُخْرى مَفْتوحَةٌ . وَعَلى ضَوْءِ ٱلمِصْباحِ ٱلواهِنِ ، رَأى فارْيا وَقَدْ شَحَبَ وَجْهُهُ وَتَعَلَّقَ بِطَرَفِ سَريرِهِ ، وَعَلى وَجْهِهِ عَلاماتُ أَلَمٍ رَهيبٍ .

وَٱسْتَطاعَ فارْيا أَنْ يَنْتَزِعَ نَفْسَهُ مِنْ بَيْنِ ٱلأَلَمِ لَحْظَةً لِيَقولَ لِدانْتي : « أَظُنُّكَ تُدْرِكُ ٱلآنَ يا عَزيزي أَنَّهُ قَدْ حانَتْ مَنِيَّتي . »

المَـــوْت

صَرَخَ دانْتي : « لا تَقُلْ هٰذا يا صَديقي ، فَكَما أَنْقَذْتُكَ ٱلمَرَّةَ ٱلسّابِقَةَ ، سَوْفَ أُنْقِذُكَ هٰذِهِ ٱلمَرَّةَ ! »

وَبِسُرْعَةٍ رَفَعَ رِجْلَ ٱلسَّريرِ وَأَخْرَجَ مِنْها ٱلقارورَةَ ، وَكانَ لا يَزالُ بِها قَليلٌ مِنَ ٱلسّائِلِ ٱلأَحْمَرِ ، فَصاحَ في فارْيا قائِلًا : « أُنْظُرْ ، لا يَزالُ فيها بَعْضُ ٱلدَّواءِ . أَخْبِرْني بِسُرْعَةٍ ما ٱلَّذي يَنْبَغي عَلَيَّ أَنْ أَفْعَلَهُ هٰذِهِ ٱلمَرَّةَ ؟ »

أَجابَهُ فارْيا : « لَيْسَ ثَمَّةَ أَمَلٌ ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَمِنَ ٱلصَّوابِ أَنْ يَبْذُلَ ٱلإِنْسانُ كُلَّ ما في وُسْعِهِ لإِنْقاذِ حَياةٍ . فَٱفْعَلْ إِذًا ما فَعَلْتَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلٰكِنْ عَجِّلْ . أَعْطِني ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ قَطْرَةً ، فَإِذا لَمْ أَتَحَسَّنْ ، فَأَفْرِغْ باقِيَ مُحْتَوياتِ ٱلزُّجاجَةِ كُلَّهُ في فَمي . وَٱلآنَ ضَعْني في ٱلفِراشِ . »

وَحَمَلَ إِدْمون صَديقَهُ فارْيا بَيْنَ ذِراعَيْهِ وَوَضَعَهُ في فِراشِهِ .

قالَ فارْيا : « يا صَديقِيَ ٱلعَزيزَ ، يا فَرْحَةَ عُمْري وَعَطِيَّةَ ٱلسَّماءِ في أَواخِرِ أَيّامي ؛ وَلٰكِنَّها أَعْطَتْني ، وَأَنا شاكِرٌ لَها عَطِيَّتَها . إِذا قُدِّرَ لَكَ أَنْ تَهْرُبَ فَٱذْهَبْ إِلى جَزيرَةِ مونْت كِريسْتو وَخُذِ ٱلكَنْزَ وَتَمَتَّعْ بِهِ .

تَمَتَّعْ بِهِ فَأَنْتَ تَسْتَحِقُّهُ بَعْدَ كُلِّ ذٰلِكَ العَناءِ ٱلَّذي تَحَمَّلْتَهُ ، وَلْيَكُنِ ٱللهُ مَعَكَ ! » ثُمَّ سَقَطَ عَلى ظَهْرِهِ .

وَٱنْتَظَرَ دانْتي وَهُوَ مُمْسِكٌ بِزُجاجَةِ ٱلدَّواءِ بِيَدِهِ ، وَكانَ ضَوْءُ ٱلمِصْباحِ ٱلمُهْتَزِّ يَمْلأُ جُدْرانَ ٱلحُجْرَةِ وَسَقْفَها بِظِلالٍ غَريبَةٍ مُتَراقِصَةٍ .

وَعِنْدَما رَأى دانْتي أَنَّ ٱلوَقْتَ ٱلمُناسِبَ قَدْ حانَ صَبَّ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ قَطْرَةً مِنَ ٱلدَّواءِ في فَمِ فارْيا وَٱنْتَظَرَ . لَمْ تَكُنِ ٱلزُّجاجَةُ قَدْ فَرَغَتْ مِنْ مُحْتَوَياتِها بَعْدُ ، بَلْ كانَ مُتَبَقِّيًا بِها ٱلمِقْدارُ نَفْسُهُ ٱلَّذي أَفْرَغَهُ تَوًّا في فَمِ فارْيا ، ثُمَّ ٱنْتَظَرَ عَشْرَ دَقائِقَ ثُمَّ نِصْفَ ساعَةٍ ، بَعْدَها أَسْرَعَ وَفَتَحَ فَمَ ٱلرَّجُلِ وَصَبَّ فيهِ كُلَّ ما تَبَقّى في ٱلزُّجاجَةِ .

وَتَحَرَّكَ فارْيا ، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ ، وَخَرَجَتْ مِنْهُ حَشْرَجَةٌ قَصيرَةٌ ، ثُمَّ سادَ ٱلغُرْفَةَ صَمْتٌ تامٌّ .

وَمَضَتْ نِصْفُ ساعَةٍ ، فَساعَةٌ ، ثُمَّ ساعَةٌ وَنِصْفٌ . وَكانَ إِدْمون جالِسًا واضِعًا يَدَهُ عَلى قَلْبِ فارْيا ٱلَّذي أَخَذَتْ دَقّاتُهُ تَضْعُفُ تَدْريجِيًّا ، ثُمَّ ٱنْتَشَرَتِ ٱلبُرودَةُ في جَسَدِهِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا .

قَوانينُ ٱلسِّجْن

هَبَطَ دانْتي إِلى ٱلسِّرْدابِ وَأَحْكَمَ إِغْلاقَ فُتْحَتِهِ عَلى قَدْرِ ٱسْتِطاعَتِهِ ، وَوَصَلَ إِلى غُرْفَتِهِ في ٱلوَقْتِ نَفْسِهِ ٱلَّذي وَصَلَ إِلى أَسْماعِهِ صَوْتُ وَقْعِ

خُطُواتِ ٱلحارِسِ وَهُوَ يَقْتَرِبُ .

أَتى ٱلحارِسُ إلى حُجْرَةِ دانْتِي أَوَّلًا ، ثُمَّ ذَهَبَ بَعْدَ ذٰلِكَ إلى حُجْرَةِ فارْيا يَحْمِلُ لَهُ بَعْضَ ٱلمَلابِسِ وَطَعامَ ٱلإِفْطارِ .

وَأَحَسَّ دانْتِي أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ ماذا يَحْدُثُ داخِلَ حُجْرَةِ صَديقِهِ ، فَهَبَطَ إلى ٱلسِّرْدابِ وَوَصَلَ في ٱللَّحْظَةِ نَفْسِها ٱلَّتي سَمِعَ ٱلحارِسَ فيها يَسْتَغيثُ طالِبًا ٱلنَّجْدَةَ .

وَجاءَ حُرّاسٌ آخَرونَ ٱسْتَطاعَ دانْتِي أَنْ يَسْمَعَهُمْ وَهُمْ يَتَحَدَّثونَ .

قالَ أَحَدُهُمْ : « حَسَنًا ! حَسَنًا ! ها قَدْ ذَهَبَ ٱلمَجْنونُ لِيَبْحَثَ عَنْ كَنْزِهِ . نَتَمَنّى لَهُ رِحْلَةً مُوَفَّقَةً ! »

قالَ آخَرُ : « إِنَّ كُلَّ نُقودِهِ لا تَكْفي لِشِراءِ كَفَنٍ ! »

« لِشِراءِ كَفَنٍ ؟! إِنَّ كَفَنَ قَلْعَةِ إِف لا يُكَلِّفُ كَثيرًا . مُجَرَّدُ غِرارَةٍ مِنَ ٱلخَيْشِ لَيْسَ إِلّا . »

وَصَلَ إلى سَمْعِ إِدْمُون كُلُّ كَلِمَةٍ قيلَتْ ، وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ يَفْهَمْ كَثيرًا مِمّا دارَ مِنْ حَديثٍ . وَخَيَّمَ عَلَى ٱلمَكانِ سُكونٌ كَأَنَّهُمْ قَدْ خَرَجوا ، لٰكِنَّ دانْتِي لَمْ يَجْرُؤْ عَلى دُخولِ ٱلحُجْرَةِ . كانَ يَخْشى أَنْ يَكونوا قَدْ تَرَكوا عِنْدَ ٱلجُثَّةِ أَحَدَ ٱلحُرّاسِ .

وَمَضَتْ ساعَةٌ سَمِعَ دانْتِي في أَعْقابِها ضَجَّةً . وَكانَ مَأْمورُ ٱلسِّجْنِ قَدْ وَصَلَ وَبِصُحْبَتِهِ شَخْصٌ آخَرُ . ثُمَّ سَمِعَ صَوْتًا لا يَعْرِفُهُ يَقولُ : « إِنَّهُ مَيِّتٌ بِٱلفِعْلِ . »

قالَ مَأْمورُ ٱلسِّجْنِ : « لَسْتُ أَشُكُّ في وَفاتِهِ ، لٰكِنَّنا يَنْبَغي ، وَفْقًا لِلَّوائِحِ ، أَنْ نَتَحَقَّقَ وَأَنْ نَتَأَكَّدَ تَمامًا أَنَّ ٱلسَّجينَ قَدْ ماتَ . »

سادَ ٱلصَّمْتُ لَحَظاتٍ ، وَبَدا ثَمَّةَ شَخْصٌ بِٱلدّاخِلِ يَفْحَصُ ٱلجُثَّةَ . وَعِنْدَما ٱنْتَهى أَكَّدَ أَنَّهُ قَدْ ماتَ فِعْلًا ، وَلا جِدالَ في هٰذا .

وَتَتابَعَ صَوْتُ وَقْعِ ٱلأَقْدامِ ٱلدّاخِلَةِ وَٱلخارِجَةِ ، ثُمَّ صَوْتُ غِرارَةٍ كَبيرَةٍ تُجَرُّ عَلى ٱلأَرْضِ ، ثُمَّ صَوْتٌ آخَرُ مِنْ جِهَةِ ٱلسَّريرِ ، ثُمَّ وَقْعُ أَقْدامٍ لِشَخْصٍ يَبْدو أَنَّهُ يَرْفَعُ حِمْلًا ثَقيلًا ، ثُمَّ صَوْتُ هٰذا ٱلحِمْلِ وَهُوَ يوضَعُ عَلى ٱلسَّريرِ .

قالَ مَأْمورُ ٱلسِّجْنِ : « في ٱلمَساءِ . »

سَأَلَهُ ٱلحارِسُ : « مَتى بِٱلضَّبْطِ ؟ »

« حَوالَى ٱلعاشِرَةِ أَوِ ٱلحادِيَةَ عَشْرَةَ . »

« هَلْ مِنَ ٱلضَّروريِّ أَنْ نَبْقى في حِراسَةِ ٱلجُثْمانِ ؟ »

« كَلّا ، بَلْ أَوْصِدِ ٱلبابَ كَأَنْ لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ . »

وَٱبْتَعَدَ صَوْتُ وَقْعِ ٱلأَقْدامِ ، وَخَفَتَتِ ٱلأَصْواتُ ، ثُمَّ سَمِعَ دانْتي صَوْتَ بابٍ يُغْلَقُ ، فَخَيَّمَ عَلى ٱلحُجْرَةِ صَمْتٌ عَميقٌ ... عَميقٌ جِدًّا ، هُوَ صَمْتُ ٱلمَوْتِ .

دَفَعَ دانْتي ٱلحَجَرَ بِرَأْسِهِ ، وَنَظَرَ في أَرْجاءِ ٱلغُرْفَةِ ، فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا فَدَخَلَ .

الفَصْلُ ٱلثّانِي عَشَر
مَقْبَرَةُ قَلْعَةِ إِف

فِكْرَةٌ غَريبَة

رَأى دانْتي عَلى ضَوْءِ ٱلمِصْباحِ ٱلخافِتِ غِرارَةً كَبيرَةً مَصْنوعَةً مِنْ قُماشٍ أَصْفَرَ مَوْضوعَةً عَلى ٱلسَّريرِ، وَكانَ فيها جُثْمانُ صَديقِهِ فارْيا. إِذًا فَهٰذا هُوَ ٱلكَفَنُ ٱلَّذى لا يُكَلِّفُ كَثيرًا عَلى حَدِّ قَوْلِ ٱلحارِسِ.

وَهٰكَذا ٱفْتَرَقَ ٱلصَّديقانِ. وَمِنَ ٱلآنَ فَصاعِدًا لَنْ يَكونَ بِإِمْكانِ دانْتي أَنْ يَرى تِلْكَ ٱلعَيْنَيْنِ ٱللَّتَيْنِ ظَلَّتا مَفْتوحَتَيْنِ، وَكَأَنَّهُما تَنْظُرانِ حَتّى إِلي ما وَراءَ ٱلمَوْتِ.

وَجَلَسَ عَلى حافَةِ ٱلفِراشِ وَقَدِ ٱمْتَلَأَ رَأْسُهُ بِٱلأَفْكارِ ٱلحَزينَةِ .

وَقالَ مُحَدِّثًا نَفْسَهُ : « هٰأَنَذا وَحيدٌ مَرَّةً أُخْرى ! »

وَلٰكِنَّهُ تَوَقَّفَ عَنِ ٱلتَّفْكيرِ فَجْأَةً . وَشَخَصَ بِبَصَرِهِ ، فَقَدْ طَرَأَتْ لَهُ فِكْرَةٌ جَريئَةٌ لا يَدْري كَيْفَ نَبَتَتْ هٰكَذا فى رَأْسِهِ فَجْأَةً : « إِذا كانَ

ٱلمَوْتى وَحْدَهُمْ هُمُ ٱلّذينَ يُغادِرونَ ٱلسِّجْنَ فَلأَحُلَّ أنا مَحَلَّ هٰذا ٱلمَيِّتِ . »

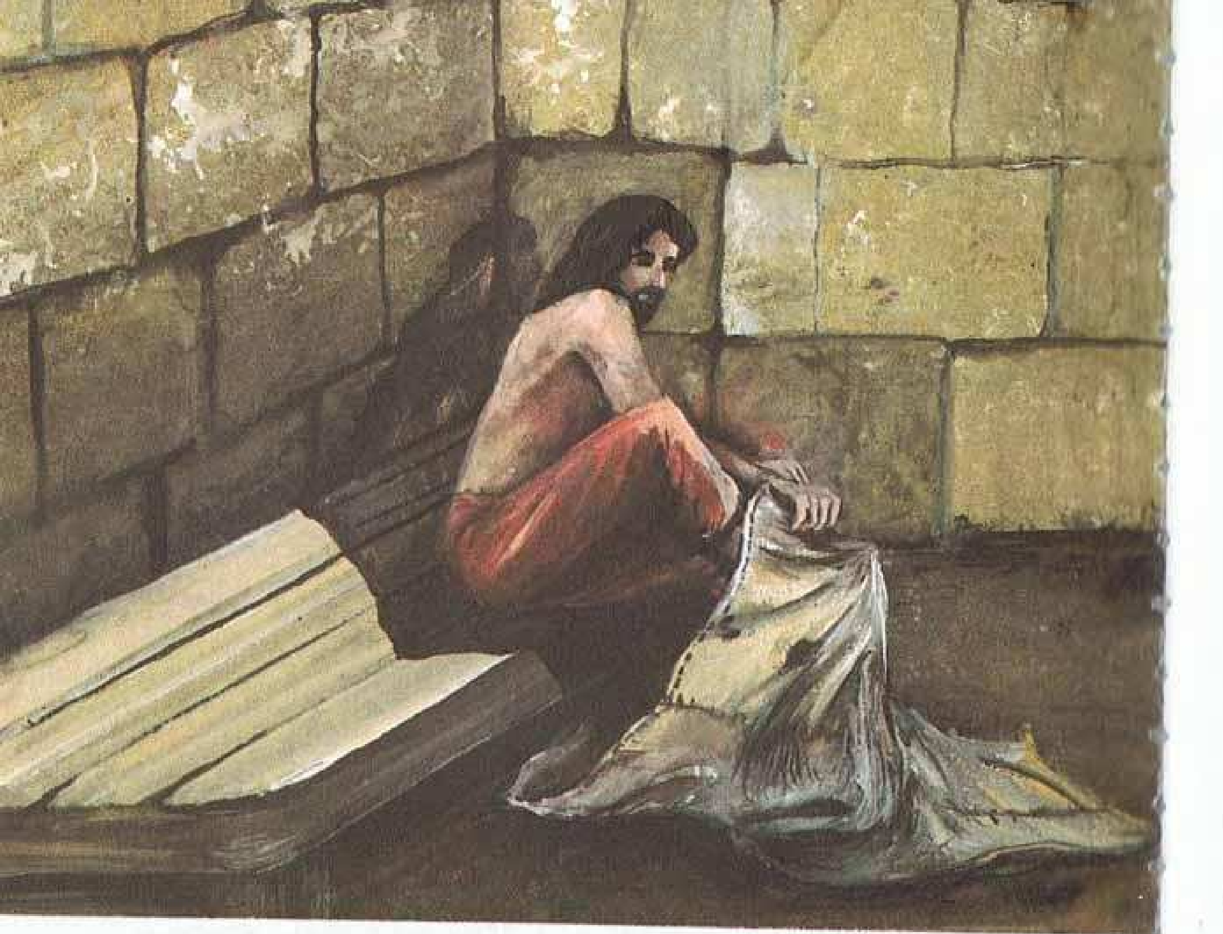
لَمْ يَتَرَدَّدْ لَحْظَةً في أَنْ يَضَعَ ٱلفِكْرَةَ مَوْضِعَ ٱلتَّنْفيذِ ، فَٱلوَقْتُ ضَيِّقٌ . وَأَخَذَ ٱلسِّكّينَ ٱلّذي كانَ فارْيا قَدْ صَنَعَها وَفَتَحَ بِها ٱلغِرارَةَ وَأَخْرَجَ ٱلجُثْمانَ وَحَمَلَهُ عَبْرَ ٱلفُتْحَةِ ٱلمُوَصِّلَةِ إلى غُرْفَتِهِ ، ثُمَّ وَضَعَهُ على فِراشِهِ وَغَطّاهُ كُلَّهُ بِٱلمُلاءَةِ ، كَما كانَ يَفْعَلُ هُوَ نَفْسُهُ عِنْدَما يَنامُ على ٱلفِراشِ . ثُمَّ قَبَّلَ ٱلوَجْهَ ٱلبارِدَ ، وَأَدارَهُ إلى ٱلحائِطِ حَتّى يَظُنَّ ٱلحارِسُ عِنْدَما يَأْتي بِٱلعَشاءِ أَنَّهُ نائِمٌ كَما كانَ يَحْدُثُ فى كَثيرٍ مِنَ ٱلأَحْيانِ .

وَعادَ إلى ٱلحُجْرَةِ ٱلأُخْرى ، وَأَخَذَ إِبْرَةً كانَ قَدْ صَنَعَها هُوَ وَفارْيا ، ثُمَّ خَلَعَ مَلابِسَهُ وَخَبَّأَها ، وَوَضَعَ نَفْسَهُ داخِلَ ٱلغِرارَةِ في ٱلوَضْعِ نَفْسِهِ وَبِٱلطَّريقَةِ نَفْسِها ٱلّتي كانَ جُثْمانُ ٱلمَيِّتِ مُمَدَّدًا بِداخِلِها ، ثُمَّ أَخَذَ يَخيطُ فُتْحَةَ ٱلغِرارَةِ مِنَ ٱلدّاخِلِ .

حانَ ٱلوَقْتُ

عَزَمَ دانْتي على تَنْفيذِ خُطَّتِهِ مَهْما كَلَّفَهُ ٱلأَمْرُ .

وَحَتّى إذا حَدَثَ أَنِ ٱكْتَشَفَ ٱلحُرّاسُ أَنَّهُمْ يَحْمِلونَ رَجُلًا حَيًّا لا جُثْمانًا هامِدًا فَإِنَّهُ سَيَشُقُّ ٱلغِرارَةَ بِٱلسِّكّينِ في لَمْحِ ٱلبَصَرِ ، ثُمَّ يُسْرِعُ هارِبًا مُنْتَهِزًا لَحْظَةَ ٱلذُّهولِ ٱلّذي سَيَنْتابُهُمْ ، فَإِذا حاوَلوا إِمْساكَهُ



طَعَنَهُمْ بِٱلسِّكّينِ .

أَمّا إذا وَضَعوهُ فى قَبْرٍ ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَدَعُهُمْ يُهيلونَ عَلَيْهِ ٱلتُّرابَ . وَطَبْعًا سَيَتِمُّ ذٰلِكَ لَيْلًا كَما سَمِعَهُمْ يَتَحَدَّثونَ ، وَعَلى هٰذا فَلَنْ يَصْعُبَ عَلَيْهِ أَنْ يَشُقَّ طَريقَهُ إلى خارِجِ ٱلقَبْرِ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَنْصَرِفوا . كُلُّ ما تَمَنّاهُ هُوَ أَلّا تَكونَ طَبَقَةُ ٱلتُّرابِ ٱلمُهالَةُ عَلَيْهِ سَميكَةً بِحَيْثُ يَعْجِزُ عَنِ ٱلخُروجِ .

عَلى أَنَّ ٱلخَطَرَ ٱلأَكْبَرَ هُوَ أَنْ يُلاحِظَ ٱلحارِسُ ، عِنْدَما يُحْضِرُ لَهُ ٱلعَشاءَ ، ما حَدَثَ في ٱلغُرْفَةِ مِنْ تَغْييرٍ . وَلٰكِنْ لِحُسْنِ ٱلحَظِّ أَنَّ دانْتي

كانَ كَثيرًا ما يَتَصادَفُ أَنْ يَكونَ نائِمًا ، وَحَدَثَ ذٰلِكَ عِشْرينَ مَرَّةً عَلى ٱلأَقَلِّ ، عِنْدَ مَجيءِ ٱلحارِسِ ، فَكانَ هٰذا يَضَعُ ٱلطَّعامَ عَلى ٱلمائِدَةِ وَيَنْصَرِفُ دونَ أَنْ يَنْبِسَ بِكَلِمَةٍ . وَلٰكِنْ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَلّا يَصْمُتَ ٱلحارِسُ هٰذِهِ ٱلمَرَّةَ ، فَقَدْ يُوَجِّهُ ٱلحَديثَ إِلَيْهِ فَلا يَسْمَعُ رَدًّا ، فَيَقْتَرِبُ مِنْهُ وَيَكْتَشِفُ كُلَّ شَيْءٍ .

وَلٰكِنْ مَرَّتِ ٱلسّاعاتُ دونَ أَنْ يَحْدُثَ ما يُعَكِّرُ صَفْوَ ٱلهُدوءِ داخِلَ ٱلسِّجْنِ . وَأَحَسَّ دانْتي بِٱلطُّمَأْنينَةِ ؛ فَقَدْ زالَ أَوَّلُ ٱلأَخْطارِ .

وَفي ٱلمَوْعِدِ ٱلَّذي كانَ قَدْ حَدَّدَهُ مَأْمورُ ٱلسِّجْنِ مِنْ قَبْلُ ، سَمِعَ دانْتي وَقْعَ أَقْدامٍ تَقْتَرِبُ مِنَ ٱلبابِ . إِذًا فَٱلوَقْتُ قَدْ حانَ ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَكونَ شُجاعًا ، بَلْ أَكْثَرَ شَجاعَةً مِنْهُ في أَيِّ وَقْتٍ مَضى .

وَأَحَسَّ إِدْمون بِمَنْ يَتَوَقَّفُ عِنْدَ ٱلبابِ ، وَكانا ٱثْنَيْنِ وَضَعا عَلى ٱلأَرْضِ لَوْحًا مِنَ ٱلخَشَبِ لِيَحْمِلا عَلَيْهِ ٱلجُثْمانَ .

وَفُتِحَ ٱلبابُ ، فَرَأى دانْتي عَلى ٱلضَّوْءِ ٱلخافِتِ ٱلواصِلِ إِلَيْهِ مِنْ خِلالِ خُيوطِ ٱلغِرارَةِ ، شَخْصَيْنِ يَقْتَرِبانِ مِنْ فِراشِهِ ، عَلى حينِ بَقِيَ شَخْصٌ ثالِثٌ عِنْدَ ٱلبابِ يَحْمِلُ ٱلمِصْباحَ .

وَحَمَلَهُ ٱلرَّجُلانِ كُلٌّ مِنْ طَرَفٍ . وَقالَ أَحَدُهُما ، وَكانَ يَحْمِلُهُ مِنْ ناحِيَةِ ٱلرَّأْسِ : « هٰذا ٱلجَسَدُ ثَقيلٌ بِٱلنِّسْبَةِ لِعَجوزٍ نَحيلٍ . » فَأَجابَهُ

ٱلآخَرُ ، وَكانَ يَحْمِلُهُ مِنْ ناحِيَةِ ٱلقَدَمَيْنِ : « يَقولونَ إِنَّ كُلَّ سَنَةٍ تَمُرُّ مِنْ عُمْرِ ٱلإِنْسانِ تَزيدُ مِنْ وَزْنِ عِظامِهِ . »

المَقْبَـــرَة

سَأَلَ أَوَّلُهُما : « هَلْ أَحْكَمْتَ رَبْطَ ٱلغِرارَةِ ؟ »

« لا أَرى ضَرورَةً لِنَزيدَ مِنْ وَزْنِ ٱلغِرارَةِ . يُمْكِنُنا أَنْ نَفْعَلَ ذٰلِكَ عِنْدَما نَصِلُ . »

« رَأْيُكَ صائِبٌ . »

تَساءَلَ دانْتي : « أَيُّ شَيْءٍ ذٰلِكَ ٱلَّذي سَيَرْبُطونَهُ ؟ »

وَوَضَعا « ٱلمَيِّتَ » عَلى ٱلنَّقّالَةِ ، وَصَعِدا دَرَجاتِ ٱلسُّلَّمِ يَتَقَدَّمُهُما حامِلُ ٱلمِصْباحِ .

أَحَسَّ دانْتي فَجْأَةً بِهَواءِ ٱللَّيْلِ ٱلمُنْعِشِ ٱلبارِدِ . وَمَشى ٱلرِّجالُ نَحْوَ عِشْرينَ مِتْرًا ثُمَّ تَوَقَّفوا ، وَوَضَعوا ٱلجُثْمانَ عَلى ٱلأَرْضِ .

وَٱبْتَعَدَ واحِدٌ مِنَ ٱلرِّجالِ ٱلثَّلاثَةِ ، وَسَمِعَ دانْتي صَوْتَ وَقْعِ خُطُواتِهِ وَهُوَ يَمْضي ، فَتَساءَلَ في نَفْسِهِ : أَيْنَ أَنا ٱلآنَ ؟ »

قالَ أَحَدُ ٱلرَّجُلَيْنِ ٱلآخَرَيْنِ وَكانَ يَجْلِسُ عِنْدَ حافَةِ ٱلنَّقّالَةِ : « إِنَّهُ

بِٱلفِعْلِ حِمْلٌ ثَقيلٌ ! » وَلِلَحْظَةٍ خَطَرَ بِبالِ دانْتِي أَنْ يَهْرُبَ في ٱلحالِ غَيْرَ أَنَّهُ لِحُسْنِ ٱلحَظِّ لَمْ يَفْعَلْ .

قالَ ٱلرَّجُلُ ٱلآخَرُ لِحامِلِ ٱلمِصْباحِ : « أَنْتَ ، تَعالَ هُنا وَأَضِئْ لي حَتّى أَعْثُرَ عَلى ما أَبْحَثُ عَنْهُ . »

وَٱتَّجَهَ حامِلُ ٱلمِصْباحِ نَحْوَهُ .

وَتَساءَلَ دانْتِي : « ماذا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذي يَبْحَثُ عَنْهُ ٱلرَّجُلُ ؟ أَيَكونُ مِعْوَلًا لِلْحَفْرِ ، لٰكِنْ مِنَ ٱلمُؤَكَّدِ أَنَّ ٱلمَقْبَرَةَ جاهِزَةٌ ٱلآنَ . »

وَسَمِعَ قائِلًا يَقولُ : « هٰأَنَذا قَدْ عَثَرْتُ عَلَيْهِ . »

اِقْتَرَبَ ٱلرَّجُلُ مِنْ إِدْمُون ٱلَّذي أَحَسَّ بِثِقَلِ جِسْمٍ يُلْقى إِلى جانِبِهِ ، ثُمَّ بِشَيْءٍ يُلَفُّ حَوْلَ قَدَمَيْهِ .

قالَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذي كانَ يُراقِبُ زَميلَهُ : « هَلْ رَبَطْتَهُ بِإِحْكامٍ ؟ »

« نَعَمْ ، إِنَّهُ مُحْكَمٌ تَمامًا . »

« تَحَرَّكْ إِذًا . »

شَعَرَ دانْتِي مَرَّةً أُخْرى أَنَّهُمْ يَحْمِلونَهُ . وَبَعْدَ أَنْ ساروا بِضْعَ

خُطُواتٍ عادوا فَتَوَقَّفوا لِيَفْتَحوا بابًا ، ثُمَّ ٱسْتَأْنَفوا ٱلسَّيْرَ ؛ وَإِذا بِصَوْتِ ٱلمَوْجِ يَضْرِبُ ٱلصُّخورَ وَيَصِلُ إِلى سَمْعِ إِدْمُون واضِحًا جَلِيًّا .

قالَ أَحَدُهُمْ : « ها قَدْ وَصَلْنا أَخيرًا ! »

قالَ آخَرُ : « لا ، لَيْسَ هُنا . أَبْعَدُ قَليلًا : أَنْتَ تَذْكُرُ ٱلمَرَّةَ السّابِقَةَ عِنْدَما عَنَّفَنا ٱلمَأْمورُ بِشِدَّةٍ ؛ لِأَنَّنا أَخْطَأْنا فَسَقَطَ ٱلجُثْمانُ مِنّا عَلى ٱلصُّخورِ بَدَلًا مِنْ سُقوطِهِ في ٱلبَحْرِ . »

وَتَقَدَّموا خَمْسَ خُطُواتٍ أَوْ سِتًّا إِلى ٱلأَمامِ ، ثُمَّ شَعَرَ دانْتِي بِهِمْ يَحْمِلونَهُ مِنْ رَأْسِهِ وَرِجْلَيْهِ .

صاحوا مَعًا : « واحِدٌ ! اِثْنانِ ! ثَلاثَةٌ ! اِقْذِفوا بَعيدًا ! »

أَحَسَّ دانْتِي أَنَّهُ يَطيرُ في ٱلهَواءِ ، ثُمَّ شَعَرَ أَنَّهُ يَسْقُطُ وَيَسْقُطُ وَيَسْقُطُ . وَمَعَ أَنَّ ثِقْلًا ضَخْمًا كانَ يَجْذِبُهُ سَريعًا إِلى أَسْفَلَ ؛ فَقَدْ خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ في ٱلهَواءِ مُنْذُ مِئَةِ عامٍ ، ثُمَّ ٱرْتَطَمَ أَخيرًا بِٱلماءِ البارِدِ . وَصَرَخَ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلمِياهَ ٱلَّتي غَمَرَتْهُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ أَخْرَسَتْ صَرَخاتِهِ . كانَ دانْتِي يَغوصُ سَريعًا إِلى قاعِ ٱلبَحْرِ بِفِعْلِ ثِقَلِ ٱلحَجَرِ ٱلموثَقِ بِهِ . إِذًا فَمَقْبَرَةُ سِجْنِ إِفْ هِيَ ... ٱلبَحْرُ !

الفَصْلُ ٱلثَّالِثَ عَشَرَ
جَزِيرَةُ تِيبُولِن

سِباحَةٌ لِمَسافَةٍ طَويلَة

كانَ دانْتِي مِنَ ٱلحِكْمَةِ بِحَيْثُ لَمْ يُضَيِّعْ وَقْتَهُ في ٱلكِفاحِ مِنْ أَجْلِ ٱسْتِنْشاقِ ٱلهَواءِ . وَأَحْسَنَ صُنْعًا عِنْدَما أَغْلَقَ فَمَهُ بَعْدَ ٱلصَّيْحَةِ ٱلمُباغِتَةِ ٱلَّتي أَفْلَتَتْ مِنْهُ . وَلَمّا كانَ لا يَزالُ مُمْسِكًا بِٱلسِّكّينِ في يَدِهِ ٱليُمْنى ؛ فَسُرْعانَ ما مَزَّقَ ٱلغِرارَةَ وَخَلَّصَ ذِراعَهُ ثُمَّ جِسْمَهُ كُلَّهُ . لٰكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُحَرِّرَ نَفْسَهُ مِنْ ثِقْلِ ٱلحَجَرِ ٱلمَرْبوطِ في قَدَمَيْهِ ، وَٱلَّذي جَذَبَهُ بِقُوَّةٍ إلى ٱلقاعِ . وَفي ٱللَّحْظَةِ ٱلأَخيرَةِ ، عِنْدَما شَعَرَ بِأَنَّهُ يوشِكُ أَنْ يَفْقِدَ آخِرَ ما تَبَقّى لَهُ مِنْ قُوَّةٍ ٱسْتَطاعَ أَنْ يُخَلِّصَ قَدَمَيْهِ مِنَ ٱلحَجَرِ . وَصَعِدَ إلى سَطْحِ ٱلماءِ ، عَلى حينَ ٱسْتَقَرَّتِ ٱلغِرارَةُ وَٱلحَجَرُ ٱلمَرْبوطُ بِها في ٱلقاعِ . وَٱسْتَنْشَقَ دانْتِي هَواءَ ٱللَّيْلِ ٱلصّافِي ، ثُمَّ راحَ يَسْبَحُ تَحْتَ ٱلماءِ ، خَشْيَةَ أَنْ يَراهُ أَحَدٌ .

وَعِنْدَما صَعِدَ إلى سَطْحِ ٱلماءِ مَرَّةً أُخْرى ، كانَ قَدِ ٱبْتَعَدَ بِمِقْدارِ مِئَةِ مِتْرٍ عَنِ ٱلمَكانِ ٱلَّذي سَقَطَ فيهِ . وَرَفَعَ رَأْسَهُ إلى أَعْلى فَرَأى ٱلسَّماءَ

مُلَبَّدَةً بِغُيومٍ سَوْداءَ تَدْفَعُها ٱلرِّياحُ ٱلعاصِفَةُ أَمامَها . أَمّا ٱلبَحْرُ فَقَدِ ٱنْبَسَطَ أَمامَهُ حالِكَ ٱلسَّوادِ رَهيبًا ، عَلى حينَ ٱنْتَصَبَتْ قَلْعَةُ إف وَراءَهُ مِثْلَ عِمْلاقٍ حَجَرِيٍّ أَشَدَّ سَوادًا مِنَ ٱلبَحْرِ وَمِنَ ٱلغُيومِ ، وَتَناثَرَتْ حَوْلَهُ ٱلصُّخورُ مِثْلَ أَذْرُعٍ تَمْتَدُّ نَحْوَهُ لِتُمْسِكَ بِخِناقِهِ . وَعَلى أَعْلى صَخْرَةٍ في ٱلقَلْعَةِ كانَ ثَمَّةَ مِصْباحٌ تَبَيَّنَ عَلى نورِهِ شَبَحَ رَجُلَيْنِ وَبَدا لَهُ لَحْظَتَها أَنَّهُما يَنْظُرانِ إلى ٱلبَحْرِ . وَمَنْ يَدْري ، رُبَّما سَمِعا صَرْخَتَهُ ؛ فَغَطَسَ دانْتِي مَرَّةً أُخْرى وَبَقِيَ تَحْتَ ٱلماءِ وَقْتًا طَويلًا ، وَلَمْ يَجِدْ صُعوبَةً في ذٰلِكَ ؛ إِذْ كانَتْ حُشودُ ٱلنّاسِ تَقِفُ عِنْدَ خَليجِ مارْسِيلْيا تُشاهِدُهُ وَهُوَ يَسْبَحُ تَحْتَ ٱلماءِ ، وَكانوا يُرَدِّدونَ أَنَّهُ أَمْهَرُ سَبّاحٍ في ٱلمَدينَةِ .

وَعِنْدَما صَعِدَ إلى سَطْحِ ٱلماءِ مَرَّةً أُخْرى كانَ نورُ ٱلمِصْباحِ قَدِ ٱخْتَفى .

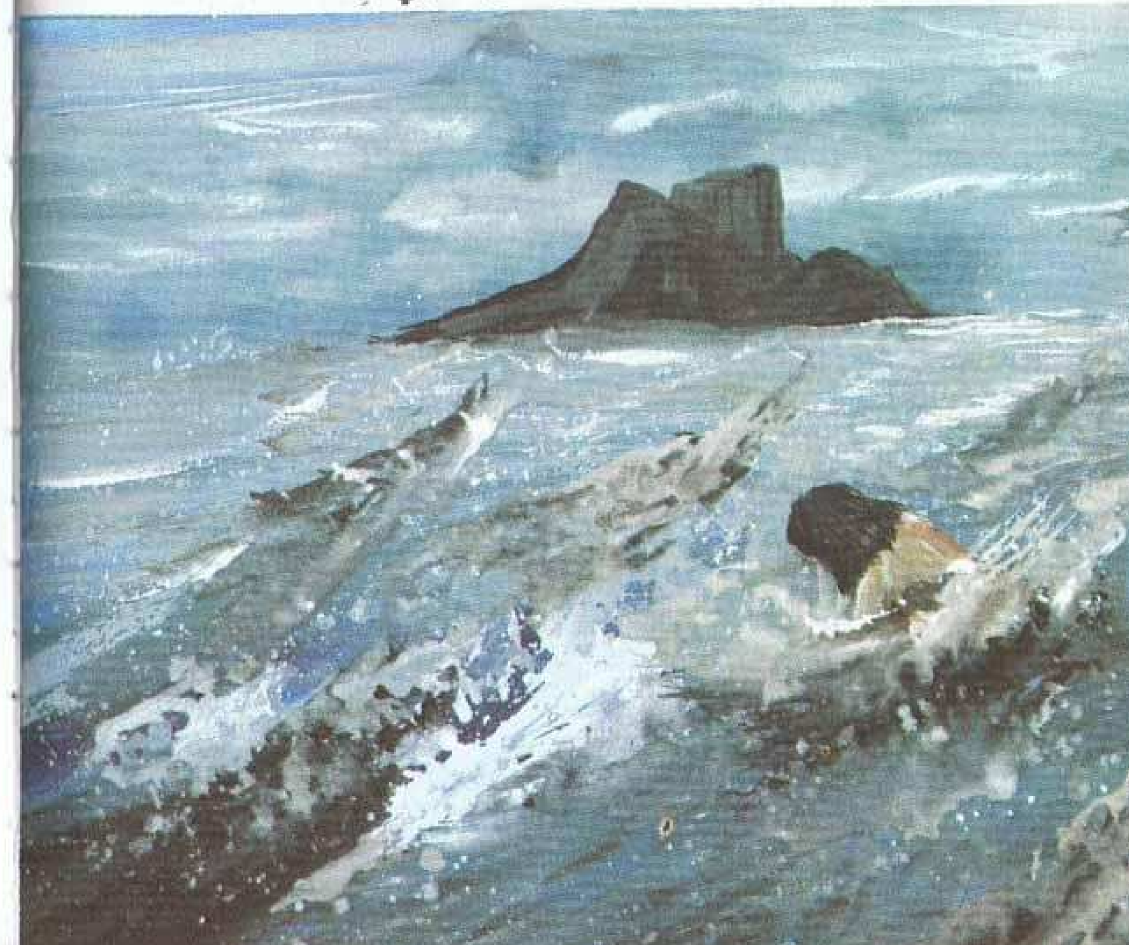
وَكانَ لِزامًا عَلى دانْتِي أَنْ يُواصِلَ ٱلسِّباحَةَ مُبْتَعِدًا عَنِ ٱلشّاطِئِ . وَكانَتْ جُزُرُ راتُونُو وَبُومِيغ وَدُوم أَقْرَبَ ٱلجُزُرِ إلى قَلْعَةِ إف ، لٰكِنَّها كانَتْ آهِلَةً بِٱلسُّكّانِ . أَمّا جَزيرَتا تِيبُولِن وَمِير فَقَدْ كانَتا أَكْثَرَ أَمانًا ، وَتَبْعُدانِ عَنْ قَلْعَةِ إف خَمْسَةَ كيلومِتْراتٍ ، وَلٰكِنَّ دانْتِي قَرَّرَ أَنْ يَسْبَحَ إِلَيْهِما .

وَٱكْتَشَفَ دانْتِي مُنْذُ ٱللَّحْظَةِ ٱلأولى أَنَّهُ ما زالَ سَيِّدَ ٱلماءِ بِلا مُنازِعٍ ، وَأَنَّ سِنينَ ٱلسِّجْنِ ٱلطَّويلَةَ لَمْ تُفْقِدْهُ قُدْرَتَهُ ٱلقَديمَةَ عَلى ٱلسِّباحَةِ .

وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَتِ ٱلمَخاوِفُ تُلاحِقُهُ ، إِذْ تَراءى لَهُ أَنَّ وَراءَ كُلِّ مَوْجَةٍ قارِبًا يَجِدُّ في أَثَرِهِ ، فَحاوَلَ ٱلسِّباحَةَ سَرِيعًا حَتّى يَبْتَعِدَ عَنْ قَلْعَةِ إِفْ أَطْوَلَ مَسافَةٍ مُمْكِنَةٍ . بَيْدَ أَنَّ ٱلسِّباحَةَ ٱلسَّرِيعَةَ أَرْهَقَتْهُ ، فَكانَ لا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْبَحَ بِبُطْءٍ إِنْ أَرادَ أَنْ يَبْلُغَ جَزِيرَةَ تِيبُولِن أَوْ مِير .

وَمَضَتْ ساعَةٌ وَهُوَ لا يَزالُ مُسْتَمِرًّا في ٱلسِّباحَةِ .

وَراحَ يَقولُ لِنَفْسِهِ : « لَقَدْ سَبَحْتُ حَتّى ٱلآنَ أَكْثَرَ مِنْ ساعَةٍ في مُواجَهَةِ ٱلرِّيحِ ، مِمّا عاقَ تَقَدُّمي قَليلًا ؛ فَإِذا لَمْ أَكُنْ مُخْطِئًا في تَقْديراتي ، فَإِنَّ تِيبُولِن لا بُدَّ أَنْ تَكونَ قَرِيبَةً مِنّي جِدًّا .



وَفَجْأَةً ظَهَرَ ما بَدا أَنَّهُ سُحُبٌ مُنْخَفِضَةٌ ، كَما ٱزْدادَتِ ٱلسَّماءُ ٱكْفِهْرارًا . وَأَحَسَّ دانْتِي بِأَلَمٍ حادٍّ في رُكْبَتِهِ ، فَأَنْزَلَ قَدَمَهُ ، وَوَجَدَ صَخْرَةً . وَعِنْدَئِذٍ تَبَيَّنَ لَهُ كُنْهُ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذي بَدا مِثْلَ سَحابَةٍ سَوْداءَ مُنْخَفِضَةٍ ، وَأَبْصَرَ أَمامَهُ كُتَلًا مِنَ ٱلصُّخورِ : لَقَدْ كانَتْ هٰذِهِ جَزِيرَةَ تِيبُولِن ٱلصَّخْرِيَّةَ ٱلوَعْرَةَ ٱلَّتي لا يَسْكُنُها أَحَدٌ .

العاصِفَةُ

اِسْتَطاعَ دانْتِي أَنْ يَجُرَّ نَفْسَهُ إِلى ٱلشّاطِئِ ، وَلَمّا كانَتِ ٱلعاصِفَةُ ما زالَتْ عَلى أَشُدِّها فَقَدِ ٱسْتَلْقى تَحْتَ صَخْرَةٍ ناتِئَةٍ يَحْتَمي بِها . وَتَساءَلَ : كَيْفَ تَسَنّى لَهُ أَنْ يَسْبَحَ كُلَّ تِلْكَ ٱلمَسافَةِ في مِثْلِ ذٰلِكَ ٱلجَوِّ ؟ لَقَدْ كانَتِ ٱلأَمْواجُ مُخيفَةً إِلى دَرَجَةِ أَنَّها بَدَتْ وَهِيَ تَرْتَطِمُ بِٱلصُّخورِ وَكَأَنَّها سَتُحَطِّمُ ٱلجَزِيرَةَ تَحْطيمًا . وَتَذَكَّرَ دانْتِي أَنَّهُ لَمْ يَشْرَبْ ماءً وَلَمْ يَذُقْ طَعامًا طَوالَ يَوْمٍ كامِلٍ ، فَمَدَّ يَدَهُ ، وَمَلأَ راحَتَيْهِ بِماءِ ٱلمَطَرِ وَشَرِبَ مِنْهُ .

وَفَجْأَةً ، وَفي أَوْجِ ٱلعاصِفَةِ ، رَأى قارِبَ صَيْدٍ تَدْفَعُهُ ٱلرِّياحُ ٱلشَّديدَةُ وَٱلأَمْواجُ ٱلمُتَلاطِمَةُ فَوْقَ ٱلصُّخورِ . وَبَعْدَ دَقيقَةٍ رَآهُ مَرَّةً أُخْرى ، وَقَدْ أَصْبَحَ قَرِيبًا مِنْهُ ، وَرَأى خَمْسَةَ رِجالٍ يَتَشَبَّثونَ بِهِ ، ثُمَّ سَمِعَ صَوْتَ ٱرْتِطامٍ رَهيبٍ ، تَبِعَتْهُ صَيْحاتُ فَزَعٍ وَأَلَمٍ . لَقَدْ تَحَطَّمَ ٱلقارِبُ تَمامًا .

وَهَبَطَ دانْتِي مُسْرِعًا إلى ٱلصُّخورِ مُعَرِّضًا نَفْسَهُ لِخَطَرِ ٱلمَوْتِ ، وَراحَ يُصْغي لٰكِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ أَوْ يَرَ شَيْئًا . لَقَدْ تَلاشَتِ ٱلصَّرَخاتُ وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ زَئيرِ ٱلعاصِفَةِ .

وَهَدَأَتِ ٱلرّيحُ أَخيرًا . وَكانَتْ ثَمَّةَ سُحُبٌ رَمادِيَّةٌ تَتَحَرَّكُ جِهَةَ ٱلغَرْبِ ، وَظَهَرَ خَطٌّ أَحْمَرُ في ٱلأُفُقِ ، وَأَصْبَحَتِ ٱلأَمْواجُ بَيْضاءَ عَلى حينَ راحَ ٱلنّورُ يَعْبَثُ بِٱلمَوْجِ وَيَلْمِسُ قِمَمَهُ بِأَصابِعِهِ ٱلذَّهَبِيَّةِ . وَكانَ مَوْلِدُ يَوْمٍ جَديدٍ .

وَقَفَ دانْتِي ساكِنًا يَرْقُبُ هٰذا ٱلمَنْظَرَ ٱلعَجيبَ . لَقَدْ أَنْساهُ ٱلسِّجْنُ أَنَّ في ٱلكَوْنِ مِثْلَ هٰذا ٱلمَنْظَرِ ٱلسّاحِرِ . وَٱتَّجَهَ بِبَصَرِهِ ثانِيَةً إلى قَلْعَةِ إف وَٱلبَحْرِ وَٱلأَرْضِ .

وَراحَ يَتَخَيَّلُ : « بَعْدَ ساعَتَيْنِ أَوْ ثَلاثٍ عَلى ٱلأَكْثَرِ ، سَوْفَ يَدْخُلُ ٱلحارِسُ إلى غُرْفَتي لِيَكْتَشِفَ أَنَّ ٱلرّاقِدَ في فِراشي هُوَ جُثْمانُ صَديقِيَ ٱلمِسْكينِ فارْيا ؛ فَسَيَبْحَثُ عَنّي ، وَلٰكِنَّهُ لَنْ يَعْثُرَ لي عَلى أَثَرٍ ، وَعِنْدَئِذٍ يُنادي عَلى زُمَلائِهِ . وَساعَتَها سَيَكْتَشِفونَ ٱلسِّرْدابَ ، ثُمَّ يَبْدَءونَ في ٱسْتِجْوابِ ٱلرِّجالِ ٱلَّذينَ أَلْقَوْا بي في ٱلبَحْرِ وَٱلَّذينَ لا بُدَّ قَدْ سَمِعوا صَرْخَتي . أَمّا ٱلقَوارِبُ ٱلمُحْتَشِدَةُ بِٱلجُنودِ فَسَوْفَ يُطْلِقونَها في إِثْرِ ٱلسَّجينِ ٱلهارِبِ ، عَلى حينِ يَدُقُّ جَرَسُ ٱلقَلْعَةِ ٱلكَبيرُ ، وَيَروحُ كُلُّ إِنْسانٍ يَبْحَثُ عَنْ رَجُلٍ هائِمٍ عَلى وَجْهِهِ عُرْيانَ يَبْحَثُ عَنْ طَعامٍ . وَفي مارْسيلْيا سَتَشَدَّدُ ٱلشُّرْطَةُ ٱلمُراقَبَةَ ، عَلى حينِ يَبْحَثُ عَنّي مَأْمورُ

ٱلسِّجْنِ وَرِجالُهُ في عُرْضِ ٱلبَحْرِ . إِنَّني أَشْعُرُ بِٱلبَرْدِ وَٱلجوعِ ، وَحَتّى ٱلسِّكّينُ ٱلَّتي أَنْقَذَتْني فَقَدْتُها . يا إِلٰهي ، حَسْبي ما لَقيتُ ! عَوْنَكَ ٱللّٰهُمَّ ، عَوْنَكَ ! »

السَّفينـــة

بَيْنَما كانَ دانْتِي يَتَضَرَّعُ إلى اللهِ طالِبًا مِنْهُ ٱلعَوْنَ ، بِعَيْنَيْنِ شاخِصَتَيْنِ تُجاهَ قَلْعَةِ إف ؛ رَأَى سَفينَةً صَغيرَةً تَظْهَرُ عِنْدَ نِهايَةِ جَزيرَةِ بُوميغ قادِمَةً مِنْ مارْسيلْيا مُتَّجِهَةً بِسُرْعَةٍ إلى عُرْضِ ٱلبَحْرِ .

وَصَرَخَ دانْتِي مُحَدِّثًا نَفْسَهُ : « لَوْ لَمْ أَكُنْ خائِفًا مِنْ فُضولِ ٱلنّاسِ وَكَثْرَةِ أَسْئِلَتِهِمْ ، وَٱحْتِمالِ ٱكْتِشافِ أَمْري وَإِعادَتي إلى مارْسيلْيا ، لَرَكِبْتُ هٰذِهِ ٱلسَّفينَةَ . ماذا أَفْعَلُ ؟ أَيُّ قِصَّةٍ يُمْكِنُ أَنْ أَرْوِيَها لَهُمْ ؟

« لا أَسْتَطيعُ ٱلانْتِظارَ لِأَنَّهُ لا بُدَّ لي مِنْ طَعامٍ . آهٍ ! يُمْكِنُني أَنْ أَدَّعِيَ أَنَّني كُنْتُ واحِدًا مِنَ ٱلبَحّارَةِ ٱلَّذينَ تَحَطَّمَ بِهِمُ ٱلقارِبُ لَيْلَةَ أَمْسِ . وَسَوْفَ يُصَدِّقونَ رِوايَتي لِأَنَّ ٱلعاصِفَةَ كانَتْ عاتِيَةً لِلْغايَةِ ، وَلَمْ يَنْجُ أَحَدٌ حَتّى يُكَذِّبَ رِوايَتي . »

وَبَيْنَما كانَ دانْتِي يَتَحَدَّثُ إلى نَفْسِهِ راحَ يَجولُ بِبَصَرِهِ عِنْدَ ٱلصُّخورِ في ٱلمَكانِ ٱلَّذي تَحَطَّمَ فيهِ قارِبُ ٱلصَّيْدِ ، فَإِذا بِهِ يَرى قُبَّعَةً حَمْراءَ لِواحِدٍ مِنَ ٱلبَحّارَةِ مُعَلَّقَةً عَلى نُتوءٍ في ٱلصَّخْرَةِ ، وَوَجَدَ أَيْضًا قِطَعًا مِنَ

حُطامِ ٱلقارِبِ أَسْفَلَ ٱلصَّخْرَةِ .

هُنا ٱكْتَمَلَتِ ٱلخُطَّةُ في رَأْسِ دانْتي ، فَسَبَحَ إلى ٱلصَّخْرَةِ ، وَأَخَذَ ٱلقُبَّعَةَ وَوَضَعَها عَلى رَأْسِهِ . وَأَخَذَ قِطْعَةً مِنْ حُطامِ ٱلقارِبِ ، وَٱتَّجَهَ ناحِيَةَ ٱلسَّفينَةِ بِحَيْثُ يَراهُ قائِدُها .

وَٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّفينَةُ مِنْهُ ، فَقَفَزَ فَوْقَ ٱلمَوْجِ وَصَرَخَ مُلَوِّحًا بِيَدَيْهِ . وَمالَتِ ٱلسَّفينَةُ نَحْوَهُ وَدَلَّوْا لَهُ أَحَدَ قَوارِبِ ٱلنَّجاةِ وَفيهِ رَجُلانِ ؛ فَتَرَكَ دانْتي قِطْعَةَ ٱلخَشَبِ وَبَدَأَ يَسْبَحُ نَحْوَ ٱلقارِبِ . وَلٰكِنَّهُ شَعَرَ بِقُواهُ تَخونُهُ مِنْ فَرْطِ ٱلإِرْهاقِ ، وَأَنَّهُ لا يَسْتَطيعُ تَحْريكَ ذِراعَيْهِ أَوْ رِجْلَيْهِ ؛ فَصَرَخَ مُسْتَنْجِدًا ، فَزادَ ٱلرَّجُلانِ مِنْ سُرْعَةِ تَجْديفِهِما وَهُما يَصيحانِ : « تَشَجَّعْ ! ها نَحْنُ آتِيانِ ! »

وَصَلَتِ ٱلكَلِماتُ إلى سَمْعِ دانْتي مَعَ مَوْجَةِ بَحْرٍ عاتِيَةٍ غَمَرَتْهُ تَمامًا ، ثُمَّ طَفا ثانِيَةً لٰكِنَّهُ وَجَدَ نَفْسَهُ يَغْرَقُ ، كَأَنَّ ٱلحَجَرَ ٱلثَّقيلَ ما زالَ مَشْدودًا إلى قَدَمَيْهِ ، وَإِذا بِٱلمِياهِ تَغْمُرُهُ وَتُغَطّي رَأْسَهُ ، وَبَدَتِ ٱلسَّماءُ حَمْراءَ . وَعِنْدَئِذٍ أَحَسَّ أَنَّ شَخْصًا يَجْذِبُهُ مِنْ شَعْرِهِ إلى أَعْلى ، ثُمَّ ما لَبِثَ أَنْ راحَ في غَيْبوبَةٍ فَلَمْ يَعُدْ يَسْمَعُ أَوْ يَرى شَيْئًا .

إلى ليغهورن

عِنْدَما فَتَحَ دانْتي عَيْنَيْهِ ، وَجَدَ نَفْسَهُ فَوْقَ ظَهْرِ ٱلسَّفينَةِ ، فَأَوَّلُ



ما فَعَلَ هُوَ أَنَّهُ نَظَرَ لِيَرى إلى أَيْنَ تَتَّجِهُ ٱلسَّفينَةُ .

فَلَمّا رَأى أَنَّهُمْ يَتْرُكونَ قَلْعَةَ إِف وَراءَهُمْ ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُقاوِمَ صَرْخَةَ فَرَحٍ خافِتَةً .

وَوَجَدَ بَحّارًا يُدَلِّكُ لَهُ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ بِقِطْعَةٍ مِنَ ٱلقُماشِ ٱلجافِّ ، وَآخَرَ يُمْسِكُ فِنْجانًا مَمْلوءًا بِسائِلٍ مُقَرِّبًا إِيّاهُ مِنْ فَمِهِ حَتّى يُعينَهُ عَلى ٱحْتِساءِ ما بِهِ ، وَكانَ هُوَ ٱلشَّخْصَ نَفْسَهُ ٱلَّذي شَجَّعَهُ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَصْمُدَ ، عَلى حينَ وَقَفَ بَحّارٌ ثالِثٌ عَجوزٌ ، هُوَ رُبّانُ ٱلسَّفينَةِ يُراقِبُ ما يَجْري .

بدا على دانتي أنّهُ آستعادَ بعضَ قوّتِهِ بتأثيرِ الشرابِ الّذي قدّموهُ لهُ ، فسألهُ الرُّبّانُ : « مَنْ أنتَ ؟ »

أجابهُ : « أنا مِنْ مالطةَ . كُنّا قادمينَ مِنْ سرقوسةَ ، وكانتْ معنا حمولةُ قمحٍ ، لكنّ عاصفةَ اللّيلةِ الماضيةِ حاصرتْنا ، وحطّمتْ سفينتَنا على هذهِ الصخورِ . »

« مِنْ أينَ كنتَ قادمًا ؟ »

« مِنْ تلكَ الصخورِ . سبحتُ إليها إلى أنْ بلغتُها ، وبقيتُ هناكَ متشبّثًا بها . أمّا المجموعةُ بما فيهمُ الرُّبّانُ فقدْ غرقوا . وقدْ أحسستُ بالخوفِ مِنْ أنْ أظلَّ على تلكَ الجزيرةِ المهجورةِ وحدي أواجهُ الموتَ . وعندما رأيتُ سفينتَكمْ أتيتُ نحوكمْ مستعينًا بلوحٍ خشبيٍّ مِنْ حطامِ قاربِنا . فشكرًا لكمْ على أنّكمْ أنقذتُمْ حياتي ، وشكرًا للبحّارِ الّذي أنقذني بجذبي مِنْ شعرِ رأسي ، بعدَ أنْ أوشكتُ على الغرقِ . »

صاحَ بحّارٌ ضخمٌ وسيمٌ : « إنّهُ أنا ! لقدْ أمسكتُ بكَ في آخرِ لحظةٍ . »

مدَّ دانتي يدَهُ إليهِ قائلًا : « أشكرُكَ ! أشكرُكَ ثانيةً ! »

غيرَ أنّ البحّارَ بادرَهُ فقالَ : « لا تؤاخذْني إذا ما أبديتُ شكوكي في قصّتِكَ . إنّ ملامحَكَ ولحيتَكَ المرسلةَ وشعرَكَ الطويلَ لا تنبئُ

بأنّكَ بحّارٌ ؛ بلْ لصٌّ . »

وتذكّرَ دانتي أنّهُ بالفعلِ لمْ يحلقْ لحيتَهُ أوْ يقصَّ شعرَ رأسِهِ طيلةَ المدّةِ الّتي قضاها في السجنِ ، فآستدركَ يقولُ : « هوَ نذرٌ نذرتُهُ حينما حاقتْ بي محنةٌ رهيبةٌ ، إنْ نجّاني اللهُ ألّا أحلقَ ذقني أوْ أقصَّ شعري مدّةَ أعوامٍ أربعةٍ . وها قدْ أوشكتِ المدّةُ أنْ تنتهيَ . »

سألهُ الرُّبّانُ : « والآنَ ما الّذي يمكنُنا أنْ نصنعَهُ لكَ ؟ »

« ما تحبُّ ؛ فقدْ ماتَ ربّاني ، ونجوتُ لتوّي بحياتي ، وأنا بحّارٌ ماهرٌ ، فإذا أنزلتُموني في أوّلِ ميناءٍ تقفونَ فيهِ فسوفَ يكونُ مِنَ السهلِ عليَّ الحصولُ على عملٍ . »

« هلْ تعرفُ هذهِ البحارَ ؟ »

« نعمْ ، لقدْ أبحرتُ فيها منذُ كنتُ طفلًا . وأنا أعرفُ كلَّ خليجٍ ، وكلَّ رأسٍ على شواطئِ فرنسا وإيطاليا . »

قالَ البحّارُ ، الّذي آنتشلَهُ مِنَ الغرقِ ، للرُّبّانِ : « يا سيّدي الرُّبّانَ ، إذا كانَ ما يقولُهُ صحيحًا فلِمَ لا يبقى معنا ؟ »

ردَّ الرُّبّانُ : « هذا إذا كانَ ما يقولُهُ صحيحًا . أمّا في ظروفِهِ الراهنةِ فإنّهُ سوفَ يعدُ بأيِّ شيءٍ ، ثمَّ هوَ وحظُّهُ بعدَ ذلكَ فإمّا وفى وإمّا عجزَ . »

قالَ دانْتي : « بَلْ أَنا عَلى ٱسْتِعْدادٍ لِأَنْ أُقَدِّمَ لَكُمْ ما هُوَ أَكْثَرُ مِنَ ٱلوَعْدِ . إلى أَيْنَ أَنْتُمْ ذاهِبونَ ؟ »

« إلى لِيغْهورن . »

« لِماذا لا تَجْرونَ مَعَ ٱلرّيحِ ؟ »

« لِأَنَّنا لا نُريدُ أَنْ نَصْطَدِمَ مُباشَرَةً بِجَزيرَةِ رِيو . »

« بِإِمْكانِنا أَنْ نَبْتَعِدَ عَنْها مَسافَةَ ثَلاثينَ مِتْرًا . »

بَدَتِ ٱلدَّهْشَةُ عَلى وَجْهِ ٱلرُّبّانِ فَسَأَلَ دانْتي : « هَلْ تَسْتَطيعُ أَنْ تَفْعَلَ ذٰلِكَ حَقًّا ؟ »

أَصْدَرَ دانْتي أَمْرًا سَريعًا بِطَيِّ ٱلأَشْرِعَةِ ، فَغَيَّرَتِ ٱلسَّفينَةُ مَسارَها .

بَدا عَلى ٱلسَّفينَةِ كَما لَوْ كانَتْ قَدْ أَحَسَّتْ بِأَنَّ قَبْضَةَ سَيِّدٍ خَبيرٍ تَقودُها ، عَلى حينَ راحَ يَتَراقَصُ عَلى جانِبَيْها شَريطُ ماءٍ أَبْيَضُ كَٱلثَّلْجِ . وَوَقَفَ ٱلرُّبّانُ يَرْقُبُ .

وَلِدَقيقَةٍ تَسَلَّلَ ٱلخَوْفُ إلى قَلْبِهِ ، وَبَعْدَها مَرَّتِ ٱلسَّفينَةُ بِٱلجَزيرَةِ . وَٱجْتازَتْها عَلى مَبْعَدَةِ ثَلاثينَ مِتْرًا إلى ٱليَمينِ كَما قالَ دانْتي تَمامًا .

قالَ ٱلرُّبّانُ : « عَظيمٌ ! »

وَصاحَ ٱلبَحّارَةُ : « أَحْسَنْتَ ! »

وَنَظَرَ ٱلجَميعُ بِإِعْجابٍ إلى قُوَّةِ وَمَهارَةِ هٰذا ٱلرَّجُلِ ٱلَّذي كانَ مُنْذُ لَحْظَةٍ وَجيزَةٍ مُمَدَّدًا عِنْدَ أَقْدامِهِمْ كَٱلمَيِّتِ .

قالَ دانْتي وَهُوَ يَتَقَدَّمُ إلى ٱلأَمامِ : « كَما تَرَوْنَ ، سَوْفَ أَكونُ نافِعًا لَكُمْ ، عَلى ٱلأَقَلِّ خِلالَ هٰذِهِ ٱلرِّحْلَةِ . فَإِذا ٱسْتَغْنَيْتُمْ عَنّي في لِيغْهورْن فَيُمْكِنُكُمْ أَنْ تَتْرُكوني هُناكَ وَأَنا مُسْتَعِدٌّ أَنْ أَدْفَعَ لَكُمْ أَجْرَ ٱلطَّعامِ وَٱلمَلابِسِ ٱلَّتي أَعْطَيْتُمونيها ، وَذٰلِكَ مِنْ أَوَّلِ أَجْرٍ أَتَقاضاهُ . »

قالَ ٱلرُّبّانُ : « إِنَّني مُسْتَعِدٌّ أَنْ أَدْفَعَ لَكَ ، إذا لَمْ يَكُنْ ما تَطْلُبُهُ كَثيرًا . »

أَجابَهُ دانْتي : « أَنا لا أُريدُ أَكْثَرَ مِمّا تَدْفَعُهُ لِلآخَرينَ . »

قالَ ٱلبَحّارُ ٱلَّذي أَنْقَذَهُ : « هٰذا لَيْسَ عَدْلًا ؛ لِأَنَّكَ تَعْرِفُ أَكْثَرَ مِمّا نَعْرِفُ . »

قالَ ٱلرُّبّانُ : « لِماذا تَقولُ هٰذا يا جاكوبو ؟ كُلُّ إِنْسانٍ حُرٌّ في أَنْ يَطْلُبَ ما يُريدُ . »

أَجابَ جاكوبُو : « هٰذا صَحيحٌ يا سَيِّدي ، وَلٰكِنَّني قُلْتُ ما خَطَرَ لي . »

قالَ ٱلرُّبّانُ : « إِنَّهُ مِنَ ٱلأَفْضَلِ لَوْ أُعْطَيْتَهُ بَعْضَ ٱلمَلابِسِ . »

قالَ جاكوبُو : « نَعَمْ ، سَأَفْعَلُ ذٰلِكَ . » وَأَسْرَعَ وَأَحْضَرَ ما يَلْزَمُ إِدْمُون مِنْ مَلابِسَ .

وَسَأَلَ ٱلرُّبّانُ دانْتِي : « هَلْ تُريدُ شَيْئًا آخَرَ ؟ »

« قَليلًا مِنَ ٱلخُبْزِ ، وَشَيْئًا أَشْرَبُهُ فَإِنّي لَمْ أَذُقْ طَعامًا أَوْ شَرابًا مِنْ مُدَّةٍ طَويلَةٍ . »

وَلَمْ يَكُنْ قَدْ ذاقَ ٱلطَّعامَ أَوِ ٱلشَّرابَ لِثَمانٍ وَأَرْبَعينَ ساعَةً ، فَأَحْضَروا لَهُ قِطْعَةَ خُبْزٍ وَكوبَ ماءٍ .

وَفَجْأَةً دَوّى رَنينُ جَرَسٍ في أَرْجاءِ ٱلفَضاءِ ، فَصاحَ ٱلرُّبّانُ مُتَسائِلًا : « ما هٰذا ؟ »

أَدارَ دانْتِي رَأْسَهُ وَهُوَ يَرْفَعُ ٱلكوبَ إِلى فَمِهِ .

وَتَساءَلَ ٱلرُّبّانُ ثانِيَةً : « ما مَعْنى هٰذا ؟ »

أَجابَهُ دانْتِي : « لا بُدَّ أَنَّ سَجينًا قَدْ هَرَبَ مِنْ سِجْنِ قَلْعَةِ إِف . »

نَظَرَ إِلَيْهِ ٱلرُّبّانُ ، وَلٰكِنَّ دانْتِي كانَ قَدْ وَضَعَ ٱلكوبَ عَلى فَمِهِ وَأَخَذَ يَشْرَبُ كَأَنَّ ٱلأَمْرَ لا يَعْنيهِ ؛ فَتَلاشَتْ مَخاوِفُ ٱلرُّبّانِ إِنْ كانَتْ ثَمَّةَ مَخاوِفُ قَدْ ساوَرَتْهُ .

وَقالَ ٱلرُّبّانُ لِنَفْسِهِ : « حَتّى إِذا كانَ هُوَ ٱلسَّجينَ ٱلهارِبَ . فَسَوْفَ يَنْفَعُنا كَثيرًا . »

جَلَسَ دانْتِي إِلى جِوارِ جاكوبُو وَسَأَلَهُ : « في أَيِّ يَوْمٍ مِنَ ٱلشَّهْرِ نَحْنُ ٱليَوْمَ ؟ وَفي أَيَّةِ سَنَةٍ ؟ »

« هَلْ قُلْتَ : في أَيَّةِ سَنَةٍ ؟ »

« نَعَمْ . »

وَغَمَرَتْ وَجْهَ دانْتِي مَسْحَةٌ مِنَ ٱلحُزْنِ ، وَتَساءَلَ في نَفْسِهِ : « أَ لا يَزالُ أَبي عَلى قَيْدِ ٱلحَياةِ ؟ ماذا حَدَثَ لِمِرْسيدِيس ؟ هَلْ تَعْتَقِدُ أَنّي قَدْ مِتُّ ؟ هَلْ هِيَ ... ؟ »

كانَتِ ٱلسَّفينَةُ تَطيرُ طَيَرانًا مُبْتَعِدَةً عَنْ مارْسيلْيا وَمُتَّجِهَةً إِلى لِيغْهُورْن .

الفَصْـــلُ ٱلرّابِـــعَ عَشَـــرَ

السَّفينَةُ « إميلْيا ٱلصَّغيرَة »

تِجـــارَةُ ٱلبَضائِعِ ٱلمُهَرَّبَة

اِكْتَشَفَ دانْتِي نَوْعَ ٱلتِّجارَةِ ٱلَّتي كانَتْ تَقومُ بِها ٱلسَّفينَةُ ٱلَّتي يُبْحِرُ عَلَيْها ، وَٱلَّتي يُطْلَقُ عَلَيْها ٱسْمُ « إميلْيا ٱلصَّغيرَةِ » . لَقَدْ سَمِعَ ٱلبَحّارَةَ وَهُم يَتَحَدَّثونَ ، وَعَرَفَ في ٱلحالِ أَنَّ إميلْيا ٱلصَّغيرَةَ لَيْسَتْ إِلّا سَفينَةً لِلْبَضائِعِ ٱلمُهَرَّبَةِ ، وَأَنَّ بَحّارَتَها يُنْزِلونَ بَضائِعَها عَلى ٱلشّاطِئِ في ٱللَّيالي ٱلمُظْلِمَةِ ، وَداخِلَ خَليجٍ لا تَصِلُ إِلَيْهِ قَطُّ عُيونُ رِجالِ ٱلجَمارِكِ ، وَبِذٰلِكَ يَتَسَنّى لَهُمْ أَنْ يُفْلِتوا مِنْ دَفْعِ ٱلضَّرائِبِ .

في أَوَّلِ ٱلأَمْرِ لَمْ يَكُنْ لَدى ٱلرُّبّانِ ما يَجْعَلُهُ يَثِقُ بِدانْتِي أَوْ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ ، بَلْ عَلى ٱلعَكْسِ ، كانَ يَخْشى أَنْ يَكونَ دانْتِي واحِدًا مِنْ ضُبّاطِ ٱلجَمارِكِ وَأَنْ تَكونَ قِصَّةُ ٱلعاصِفَةِ وَٱلسَّفينَةِ ٱلمالْطِيَّةِ قِصَّةً مُخْتَلَقَةً مِنَ ٱلأَساسِ ، نَسَجَها خَيالُهُ لِيُتاحَ لَهُ أَنْ يَصْعَدَ إِلى ٱلسَّفينَةِ وَيَضْبُطَها . غَيْرَ أَنَّ دانْتِي ٱسْتَطاعَ في ٱلوَقْتِ ٱلمُناسِبِ أَنْ يَجْعَلَ ٱلرُّبّانَ يَثِقُ بِهِ وَيَطْمَئِنُّ

إِلَيْهِ حَتّى إِذا ما وَصَلوا لِيغْهُورْن كانَ واضِحًا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بَيْنَهُما قَدْ صارَ عَلى خَيْرِ ما يُرامُ .

وَفي لِيغْهُورْن غادَرَ دانْتِي ٱلسَّفينَةَ لِيَقُصَّ شَعْرَ رَأْسِهِ وَيَحْلِقَ لِحْيَتَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ رَأى وَجْهَهُ طَوالَ هٰذِهِ ٱلسَّنَواتِ . صَحيحٌ أَنَّهُ يَذْكُرُ جَيِّدًا كَيْفَ كانَ يَبْدو لَحْظَةَ أَنْ دَخَلَ سِجْنَ قَلْعَةِ إِف ، لٰكِنَّهُ كانَ يَتوقُ إِلى مَعْرِفَةِ ما طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ تَغْييرٍ .

بَعْدَ أَنِ ٱنْتَهى مِنْ قَصِّ شَعْرِ رَأْسِهِ وَحِلاقَةِ ذَقْنِهِ ، طَلَبَ مِنَ ٱلحَلّاقِ مِرْآةً . كانَ وَجْهُهُ عِنْدَما دَخَلَ ٱلسِّجْنَ طَلْقًا مُسْتَديرًا ، كانَ وَجْهَ شابٍّ سَعيدٍ . أَمّا ٱلآنَ فَثَمَّةَ تَغَيُّراتٌ هائِلَةٌ : فَقَدِ ٱسْتَطالَ وَجْهُهُ ، وَصارَ فَمُهُ أَصْلَبَ وَأَقْوى ، وَغارَتْ عَيْناهُ وَبانَ فيهِما ٱلتَّفْكيرُ وَٱلهَمُّ . أَمّا بَشَرَتُهُ فَقَدْ أَصْبَحَتْ أَكْثَرَ بَياضًا لِعَدَمِ تَعَرُّضِهِ كُلَّ هٰذِهِ ٱلسِّنينَ لِلشَّمْسِ وَٱلهَواءِ . حَتّى صَوْتُهُ أَصْبَحَ مِنْ فَرْطِ ما عاناهُ خافِتًا تَشوبُهُ رَنَّةُ حُزْنٍ .

إِنَّ أَصْدِقاءَهُ ٱلمُقَرَّبينَ سَوْفَ يَعْجِزونَ ٱلآنَ عَنِ ٱلتَّعَرُّفِ عَلَيْهِ ، فَهُوَ نَفْسُهُ قَدْ أَنْكَرَ ما ٱنْتابَهُ مِنْ تَغَيُّراتٍ .

وَغادَرَ مَحَلَّ ٱلحِلاقَةِ ، وَذَهَبَ لِيَبْتاعَ بَعْضَ ٱلمَلابِسِ ، وَعِنْدَما عادَ إِلى إميلْيا ٱلصَّغيرَةِ كانَ قَدْ تَحَوَّلَ إِلى رَجُلٍ آخَرَ .

عِنْدَما صَعِدَ دانْتِي إِلى ظَهْرِ ٱلسَّفينَةِ ، وَجَدَ بَحّارَتَها يَخْدُمونَ رُبّانَهُمْ

بِإِخْلاصٍ شَديدٍ . وَكانوا يَعْمَلونَ بِجِدٍّ فَلَمْ يُبَدِّدوا دَقيقَةً واحِدَةً مِنْ وَقْتِهِمْ خِلالَ ٱلْمُدَّةِ ٱلَّتي رَسَتْها ٱلسَّفينَةُ في لِيغْهُورْن . وَفي ٱلحالِ كانَتِ ٱلسَّفينَةُ قَدْ حُمِّلَتْ بِٱلْبَضائِعِ ٱلجَديدَةِ . وَكانَ عَلى ٱلرُّبّانِ أَنْ يُغادِرَ لِيغْهُورْن بِٱلْبَضائِعِ بِأَسْرَعِ ما يَسْتَطيعُ ، وَيُفْرِغَها عَلى ٱلشّاطِئِ عِنْدَ كُورْسِيكا .

وَأَبْحَرَتِ ٱلسَّفينَةُ ، فَأَحَسَّ إِدْمُون بِنَشْوَةٍ وَهُوَ يَسْتَنْشِقُ هَواءَ ٱلْبَحْرِ ٱلَّذي تاقَ إِلَيْهِ كَثيرًا وَهُوَ سَجينٌ . وَمَرّوا بِجَزيرَةِ بيانُوسا ، وَكانَتْ إِلى يَمينِهِمْ ، مُتَّجِهينَ إِلى كُورْسِيكا . وَفي ٱلصَّباحِ ٱلباكِرِ وَجَدَ ٱلرُّبّانُ إِدْمُون واقِفًا عَلى جانِبِ ٱلسَّفينَةِ ، شاخِصًا بِبَصَرِهِ إِلى كُتْلَةِ صُخورٍ صَبَغَتْها أَشِعَّةُ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُشْرِقَةِ بِلَوْنٍ وَرْدِيٍّ جَميلٍ . وَلَمْ تَكُنْ تِلْكَ ٱلصُّخورُ سِوى جَزيرَةِ مُونْت كرِيسْتو . وَٱجْتازَتْها إِميلْيا ٱلصَّغيرَةُ بِمَسافَةِ سِتَّةِ كيلومِتْراتٍ إِلى ٱليَسارِ ، وَٱسْتَمَرَّتْ في طَريقِها إِلى كُورْسِيكا .

الاجْـــتِماعُ

خَطَرَ بِبالِ دانْتِي وَهُمْ يَمُرّونَ بِجَزيرَةِ مُونْت كرِيسْتو أَنْ يَقْفِزَ مِنَ ٱلسَّفينَةِ ، وَيَسْبَحَ في ٱلماءِ مُتَّجِهًا إِلَيْها وَيَصِلَها خِلالَ ساعَةٍ . غَيْرَ أَنَّهُ راحَ يَتَساءَلُ في نَفْسِهِ : « كَيْفَ يَسْتَطيعُ أَنْ يُخْرِجَ ٱلكَنْزَ مِنَ ٱلجَزيرَةِ ؟ ماذا سَيَقولُ ٱلرُّبّانُ وَٱلْبَحّارَةُ عَنْهُ ؟ لَقَدْ تَعَلَّمَ ٱلصَّبْرَ وَٱلانْتِظارَ ، وَقَدِ

ٱنْتَظَرَ سِنينَ طَويلَةً لِيُصْبِحَ حُرًّا ، وَيُمْكِنُهُ أَنْ يَنْتَظِرَ بِضْعَةَ أَشْهُرٍ لِيَصيرَ غَنِيًّا .

« قَدْ يَكونُ ٱلكَنْزُ مُجَرَّدَ حُلْمٍ ، وَقَدْ يَكونُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلى آخِرِهِ لَيْسَ إِلّا ٱخْتِراعًا مِنْ بَناتِ أَفْكارِ فارِيا . غَيْرَ أَنَّ خِطابَ ٱلأَميرِ سْپادا حَقيقَةٌ مُؤَكَّدَةٌ تُعْلِنُ أَنَّ ٱلأَمْرَ لَيْسَ مِنْ نَسْجِ ٱلخَيالِ . » وَٱسْتَرْجَعَ دانْتِي كَلِماتِ ٱلخِطابِ ، وَٱكْتَشَفَ أَنَّهُ يَحْفَظُهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَنْسَ مِنْهُ كَلِمَةً واحِدَةً .

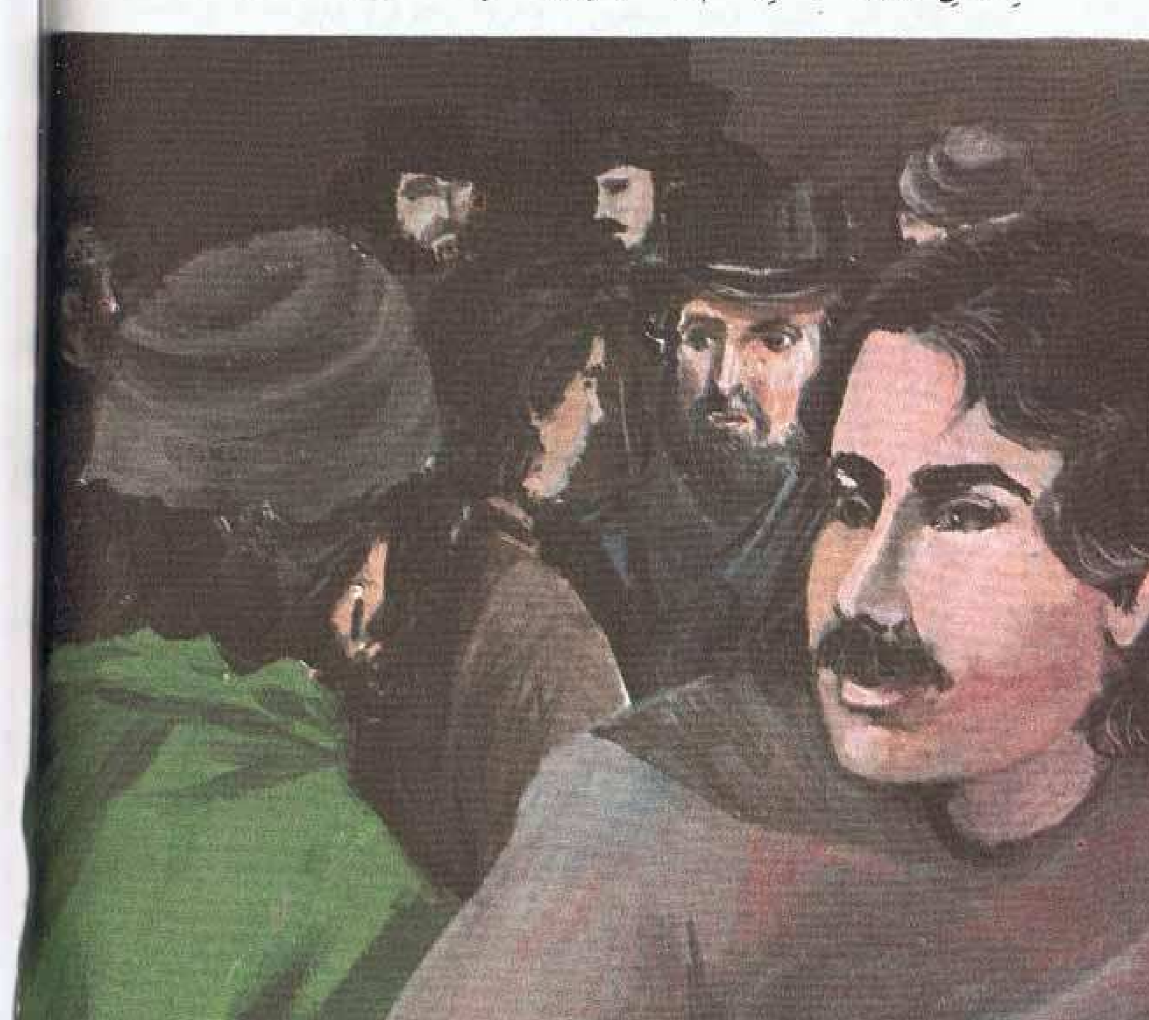
وَٱقْتَرَبَ ٱللَّيْلُ ، فَبَدَتِ ٱلجَزيرَةُ جَميلَةً مَعَ أَضْواءِ ٱلمَساءِ . وَظَلَّ ٱلأَمْرُ عَلى ذٰلِكَ ٱلنَّحْوِ حَتّى ٱخْتَفَتِ ٱلجَزيرَةُ كُلُّها في ٱلظَّلامِ ، لٰكِنَّ دانْتِي ٱلَّذي كانَتْ عَيْناهُ قَدْ تَعَوَّدَتا عَلى ٱخْتِراقِ ٱلظَّلامِ ظَلَّ يَراها بَعْدَ أَنِ ٱخْتَفَتْ مِنْ أَمامِ أَعْيُنِ ٱلآخَرينَ .

وَمَرَّةً أُخْرى تَساءَلَ دانْتِي : « كَيْفَ أَبْلُغُ ٱلجَزيرَةَ وَأُخْرِجُ ٱلكَنْزَ مِنْها في أَمانٍ ... إِنْ كانَ ثَمَّةَ كَنْزٌ ! الكَنْزُ لي ، وَهٰذِهِ حَقيقَةٌ ، وَلٰكِنَّني لا أَمْلِكُ نُقودًا أَبْتاعُ بِها قارِبًا يُعينُني عَلى ٱلحُصولِ عَلَيْهِ . »

كانَ لا يَزالُ يُقَلِّبُ هٰذا ٱلسُّؤالَ في ذِهْنِهِ وَهُمْ في طَريقِ عَوْدَتِهِمْ مِنْ كُورْسِيكا إِلى لِيغْهُورن .

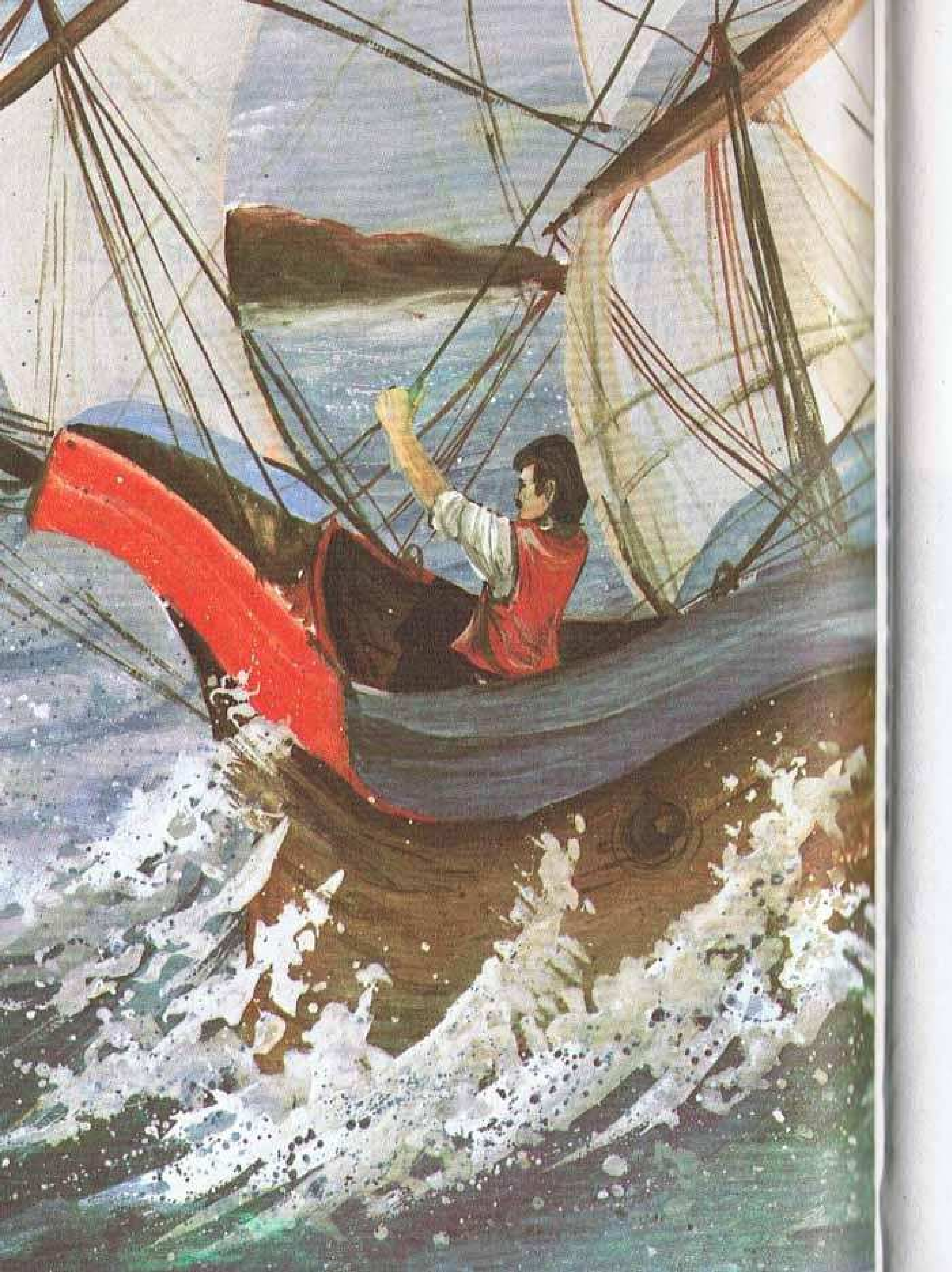
وَفي لِيغْهُورن ، ذاتَ مَساءٍ ، طَلَبَ ٱلرُّبّانُ مِنْ دانْتِي أَنْ يَذْهَبَ وَيَحْضُرَ مَعَهُ ٱجْتِماعًا . لَقَدْ أَصْبَحَ ٱلرُّبّانُ ٱلآنَ يَثِقُ بِدانْتِي تَمامَ ٱلثِّقَةِ ،

وَكانَ هٰذا ٱلاجْتِماعُ لِمُناقَشَةِ أَمْرٍ هامٍّ . وَذَهَبَ إِدْمُون مَعَ ٱلرُّبّانِ إِلى حُجْرَةٍ ٱعْتادَ مُهَرِّبو ٱلبَضائِعِ ٱلاجْتِماعَ فيها . كانَ مَوْضوعُ ٱلمُناقَشَةِ يَدورُ حَوْلَ شِحْنَةٍ مِنَ ٱلحَريرِ غالِيَةِ ٱلثَّمَنِ تَحْمِلُها سَفينَةٌ قادِمَةٌ مِنْ تُرْكِيا . وَلَمّا كانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجِدوا بُقْعَةً هادِئَةً يُقابِلونَ فيها هٰذِهِ ٱلسَّفينَةَ ، أَوْ جَزيرَةً صَخْرِيَّةً بَعيدَةً عَنْ أَعْيُنِ رِجالِ ٱلجَمارِكِ ؛ فَقَدِ ٱقْتَرَحَ ٱلرُّبّانُ أَنْ تَكونَ جَزيرَةُ مُونْت كِرِيسْتو هِيَ ٱلمَكانَ . كانَتْ بِٱلفِعْلِ جَزيرَةً صَخْرِيَّةً لَمْ يَذْهَبْ إِلَيْها ضابِطُ جُمْرُكٍ قَطُّ . وَبَدَتْ كَما



لَوْ أَنَّها لَمْ توضَعْ في مَكانِها مِنَ ٱلبَحْرِ إِلّا لِهٰذا ٱلغَرَضِ .

غَمَرَ دانْتِي فَرَحٌ عَظيمٌ عِنْدَما سَمِعَ ٱسْمَ مُونْت كِرِيسْتو ، فَنَهَضَ مِنْ مَكانِهِ حَتّى لا يَلْحَظَ أَحَدٌ ٱنْفِعالاتِ وَجْهِهِ . وَعِنْدَما عادَ إِلى ٱلاجْتِماعِ وَجَدَ أَنَّهُمْ قَدْ عَقَدوا ٱلعَزْمَ عَلى ٱلإِبْحارِ إِلى مُونْت كِرِيسْتو في ٱللَّيْلَةِ ٱلتّالِيَةِ مُباشَرَةً . وَٱلْتَفَتَ ٱلرُّبّانُ إِلى دانْتِي يَسْتَفْسِرُ مِنْهُ عَنْ رَأْيِهِ ؛ فَأَجابَهُ بِأَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّها مِنْ أَكْثَرِ ٱلأَماكِنِ أَمانًا بِٱلنِّسْبَةِ لِهٰذا ٱلغَرَضِ .



الفَصْـلُ ٱلخامِـسَ عَشَـر
جَزيـرَةُ مُونْـت كرِيسْـتو

الإبحـارُ لِلْجَـزيرَة

كانَ دانْتِي مَحْظوظًا أَنْ يَصِلَ إِلى جَزيرَةِ مُونْت كرِيسْتو دونَ أَنْ يُحاطَ ٱلأَمْرُ بِٱلشُّكوكِ حَوْلَ ٱلسَّبَبِ ٱلحَقيقِيِّ ٱلَّذي دَعاهُ إِلى زِيارَةِ ٱلجَزيرَةِ .

وَطَلَعَ ٱلنَّهارُ أَخيرًا ، ثُمَّ جاءَ ٱللَّيْلُ . وَأَمْسى كُلُّ شَيْءٍ جاهِزًا .

وَلَمّا كانَ رُبّانُ ٱلسَّفينَةِ وَبَحّارَتُها قَدْ أَحَبّوا دانْتِي وَوَثِقوا بِهِ ؛ فَقَدْ أَسْنَدوا إِلَيْهِ أَمْرَ ٱلإِعْدادِ لِلرِّحْلَةِ .

كانَتْ أَوامِرُ دانْتِي واضِحَةً وَسَهْلَةً ، مِمّا دَعا ٱلرِّجالَ إِلى أَنْ يَمْتَثِلوا لَها بِسُرْعَةٍ وَحَماسَةٍ . وَكانَ ٱلبَحْرُ هادِئًا ، فَأَبْحَروا مَعَ ريحٍ تَهُبُّ مِنَ ٱلجَنوبِ ٱلشَّرْقِيِّ . وَطَلَبَ دانْتِي مِنَ ٱلرِّجالِ أَنْ يَذْهَبوا جَميعًا لِيَنالوا قِسْطًا مِنَ ٱلنَّوْمِ ، عَلى حينَ تَوَلّى وَحْدَهُ قِيادَةَ ٱلسَّفينَةِ . وَكانَ دانْتِي

يَفْعَلُ ذٰلِكَ كَثيرًا . كانَ يُحِبُّ أَنْ يَكونَ وَحْدَهُ ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَكانٌ أَفْضَلُ مِنْ ظَهْرِ سَفينَةٍ في ٱللَّيْلِ حَيْثُ يَخْلو ٱلإِنْسانُ إِلى نَفْسِهِ وَسْطَ ٱلسُّكونِ ٱلشَّامِلِ ، وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ دانْتي تِلْكَ ٱللَّيْلَةَ أَنْ يَبْقى وَحيدًا في هُدوءٍ . كانَتِ ٱلأَفْكارُ تَزْحَمُ رَأْسَهُ ، عَلى حينَ راحَتْ ظُلْمَةُ ٱللَّيْلِ تَبْرُقُ بِٱلأَحْلامِ .

كانَتِ ٱلسَّفينَةُ تُبْحِرُ بِكُلِّ أَشْرِعَتِها بِسُرْعَةِ ثَمانِيَةَ عَشَرَ كيلومِتْرًا في ٱلسَّاعَةِ لَحْظَةَ أَنْ صَعِدَ ٱلرُّبَّانُ إِلى ظَهْرِها . وَكانَتْ جَزيرَةُ مونْت كريسْتو تَبْدو مِثْلَ كُتْلَةٍ سَوْداءَ عِنْدَ نُقْطَةِ ٱلْتِقاءِ ٱلْبَحْرِ بِٱلسَّماءِ .

وَلَمّا رَأى إِدْمون ٱلرُّبَّانَ قادِمًا ، تَرَكَ لَهُ قِيادَةَ ٱلسَّفينَةِ وَذَهَبَ لِيَنالَ قِسْطًا مِنَ ٱلنَّوْمِ .

وَبَعْدَ ساعَتَيْنِ صَعِدَ إِدْمون إِلى ظَهْرِ ٱلسَّفينَةِ في ٱلْوَقْتِ ٱلَّذي تَرَكَتْ فيهِ خَلْفَها جَزيرَةَ إِلْبا في ٱلطَّريقِ إِلى جَزيرَةِ بيانوسا ٱلخَضْراءِ .

وَبَدَتْ قِمَّةُ مونْت كريسْتو شامِخَةً أَمامَ دانْتي ، مُحْمَرَّةً بِفِعْلِ أَشِعَّةِ ٱلشَّمْسِ ٱلَّتي غَمَرَتْها ، فَأَصْدَرَ أَوامِرَهُ إِلى ٱلبَحّارَةِ أَنْ يَتْرُكوا بيانوسا يَمينَهُمْ فَيَخْتَصِروا بِذٰلِكَ خَمْسَةَ كيلومِتْراتٍ .

وَسُرْعانَ ما رَأَوْا جَميعُهُمْ جَزيرَةَ مونْت كريسْتو ، فَنَظَرَ إِدْمون إِلى كُتْلَةِ ٱلصُّخورِ ٱلَّتي راحَتْ تَعْكِسُ كُلَّ أَلْوانِ ٱلمَساءِ بَدْءًا بِٱللَّوْنِ ٱلأَحْمَرِ

حَتّى ٱلأَزْرَقِ ٱلعَميقِ ، وَغامَتْ عَيْناهُ لِلَحْظَةٍ . كانَتْ هٰذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ في حَياتِهِ يُدْرِكُ فيها أَنَّ ٱلأَمَلَ قَدْ يَكونُ مَجْلَبَةً لِلْآلامِ .

وَحَلَّ ٱلمَساءُ فَتَوَقَّفوا عَنِ ٱلمَسيرِ . كانَتْ إِميلْيا ٱلصَّغيرَةُ هِيَ ٱلسَّفينَةَ ٱلَّتي وَصَلَتْ أَوَّلًا إِلى مَكانِ ٱلاجْتِماعِ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ دانْتي أَنْ يَنْتَظِرَ ، فَكانَ هُوَ أَوَّلَ مَنْ وَضَعَ قَدَمَهُ على ٱلشّاطِئِ . وَكانَ ٱلظَّلامُ حالِكًا ، غَيْرَ أَنَّ ٱلقَمَرَ ما لَبِثَ أَنْ ظَهَرَ حَوالى ٱلعاشِرَةِ ، فَغَمَرَ ضَوْءُهُ ٱلبَحْرَ ، وَكَسا ٱلأَمْواجَ لَوْنًا فِضِّيًّا .

وَلَم تَكُنِ ٱلجَزيرَةُ غَريبَةً عَلى بَحّارَةِ إِميلْيا ، فَقَدْ كانوا جَميعًا يَعْرِفونَها ، ٱلأَمْرُ ٱلَّذي دَعا دانْتي إِلى أَنْ يَسْأَلَ جاكوبو : « أَيْنَ سَنَقْضي ٱللَّيْلَةَ ؟ »

« عَلى ٱلسَّفينَةِ ، بِٱلطَّبْعِ . »

« أَلا يُمْكِنُنا أَنْ نَقْضِيَ ٱللَّيْلَ عَلى ٱلجَزيرَةِ ؟ أَلا توجَدُ كُهوفٌ بَيْنَ هٰذِهِ ٱلصُّخورِ حَيْثُ يُمْكِنُ لِلْواحِدِ مِنّا أَنْ يُمْضِيَ لَيْلَتَهُ ؟ »

« لا يوجَدُ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ . »

وَلَمْ يَسْتَطِعْ دانْتي أَنْ يَجْمَعَ شَتاتَ ذِهْنِهِ ، وَتَذَكَّرَ ٱلحُفْرَةَ . لا بُدَّ أَنْ يَكونَ ٱلأَميرُ سْبادا قَدْ أَخْفاها أَوِ ٱخْتَفَتْ هِيَ نَفْسُها بِمُضِيِّ ٱلزَّمَنِ تَحْتَ ٱلأَحْجارِ ٱلمُتَساقِطَةِ ، أَوْ نَمَتْ فَوْقَها ٱلأَشْجارُ وَٱلنَّباتاتُ .

كانَ أَوَّلُ شَيْءٍ يَنْبَغي أَنْ يَقومَ بِهِ دانْتِي أَنْ يَكْتَشِفَ ٱلْحُفْرَةَ ٱلْمُخْتَفِيَةَ ، وَما دامَ لَيْسَ في وُسْعِهِ أَنْ يَفْعَلَ ذٰلِكَ بِٱللَّيْلِ ، فَلْيَنْتَظِرْ إِذًا حَتّى صَباحِ ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي .

الحِجارَةُ المُعَلَّمَة

في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ ، وَعَلى مَسافَةِ كيلومِتْرٍ مِنَ ٱلشّاطِئِ ، شوهِدَتْ سَفينَةٌ قادِمَةٌ تَرْفَعُ بَعْضَ ٱلْأَعْلامِ ، فَما كانَ مِنْ إِميلْيا إِلّا أَنْ رَدَّتْ بِٱلْمِثْلِ ، إِذًا فَقَدْ حانَ وَقْتُ ٱلْعَمَلِ .

وَوَصَلَ أَحَدُ ٱلْقَوارِبِ ، وَوَقَفَ بِحِذاءِ ٱلشّاطِئِ ، ثُمَّ بَدَأَ ٱلشُّغْلُ . كانَ دانْتِي يَعْمَلُ شارِدَ ٱلذِّهْنِ . وَراحَ يَتَساءَلُ عَمّا إِذا كانَ قَدْ تَحَدَّثَ مَعَ جاكوبو أَكْثَرَ مِمّا يَنْبَغي ، وَعَمّا إِذا كانَ ٱلْبَحّارَةُ قَدْ لاحَظوا شَيْئًا غَريبًا في تَصَرُّفاتِهِ خِلالَ ٱلْأَيّامِ ٱلْقَليلَةِ ٱلْماضِيَةِ ، أَوْ أَنَّهُمْ عَرَفوا شَيْئًا عَنِ ٱلْكَنْزِ . وَظَلَّ يَتَساءَلُ عَلى ذٰلِكَ ٱلنَّحْوِ طَويلًا إِلى أَنْ هَدَأَ وَٱطْمَأَنَّ إِلى أَنَّ سِرَّهُ ما زالَ في أَمانٍ لا يَعْلَمُ بِهِ أَحَدٌ .

لَمْ يَبْدُ عَلى أَيٍّ مِنَ ٱلْبَحّارَةِ أَنَّهُ ٱلْتَفَتَ إِلى غِيابِ دانْتِي عِنْدَما أَخَذَ يَتَجَوَّلُ ، عَلى حينِ كانوا يَسْتَريحونَ مِنْ عَناءِ ٱلْعَمَلِ في صَبيحَةِ ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي .

تَسَلَّقَ دانْتِي ٱلصُّخورَ حَتّى وَصَلَ إِلى نُقْطَةٍ عالِيَةٍ بَدا لَهُ مِنْها ٱلْبَحّارَةُ

صِغارًا جِدًّا ، ثُمَّ ما لَبِثَ أَنْ وَجَدَ طَريقًا شَقَّهُ لِنَفْسِهِ مَجْرى ماءٍ بَيْنَ جِدارَيْنِ مِنَ ٱلصُّخورِ قادَهُ قَريبًا مِنَ ٱلْمَكانِ ٱلَّذي يَعْتَقِدُ أَنَّ ٱلْكَنْزَ مُخَبَّأٌ فيهِ .

وَبَيْنَما كانَ يَمْضي بِمُحاذاةِ ٱلشّاطِئِ يَتَفَحَّصُ كُلَّ شَيْءٍ بِعِنايَةٍ شَديدَةٍ خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ رَأى عَلاماتٍ مَحْفورَةً عَلى بَعْضِ ٱلْأَحْجارِ بِفِعْلِ فاعِلٍ .

وَلَمّا كانَتِ ٱلْأَشْجارُ وَٱلنَّباتاتُ قَدْ نَمَتْ نُمُوًّا كَبيرًا حَتّى غَطَّتْ بَعْضَ ٱلْأَحْجارِ ؛ فَقَدْ أَضْحى مِنَ ٱلصَّعْبِ أَحْيانًا ٱلْحُكْمُ بِما إِذا كانَ هُناكَ عَلامَةٌ عَلَيْها أَمْ لا . وَعِنْدَما وَصَلَ دانْتِي إِلى ٱلْحَجَرِ ٱلَّذي ٱعْتَقَدَ أَنَّهُ ٱلْحَجَرُ ٱلْحادي وَٱلْعِشْرونَ ؛ وَجَدَ أَنَّ ٱلْعَلاماتِ قَدِ ٱنْتَهَتْ ، وَمَعَ ذٰلِكَ ، لَمْ يَعْثُرْ دانْتِي عَلى أَيَّةِ حُفْرَةٍ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ . كانَ كُلُّ ما رَآهُ هُوَ صَخْرَةٌ كَبيرَةٌ بَدَتْ لَهُ ثَقيلَةً جِدًّا وَمُسْتَقِرَّةً تَمامًا في مَكانِها لِدَرَجَةِ أَنَّهُ ٱسْتَبْعَدَ أَنْ تَكونَ قَدْ زُحْزِحَتْ يَوْمًا مِنْ مَكانِها .

قالَ دانْتِي لِنَفْسِهِ : « عَلَيَّ إِذًا أَنْ أَبْدَأَ مِنْ جَديدٍ . » وَٱسْتَدارَ وَشَرَعَ يَعودُ إِلى أَصْدِقائِهِ .

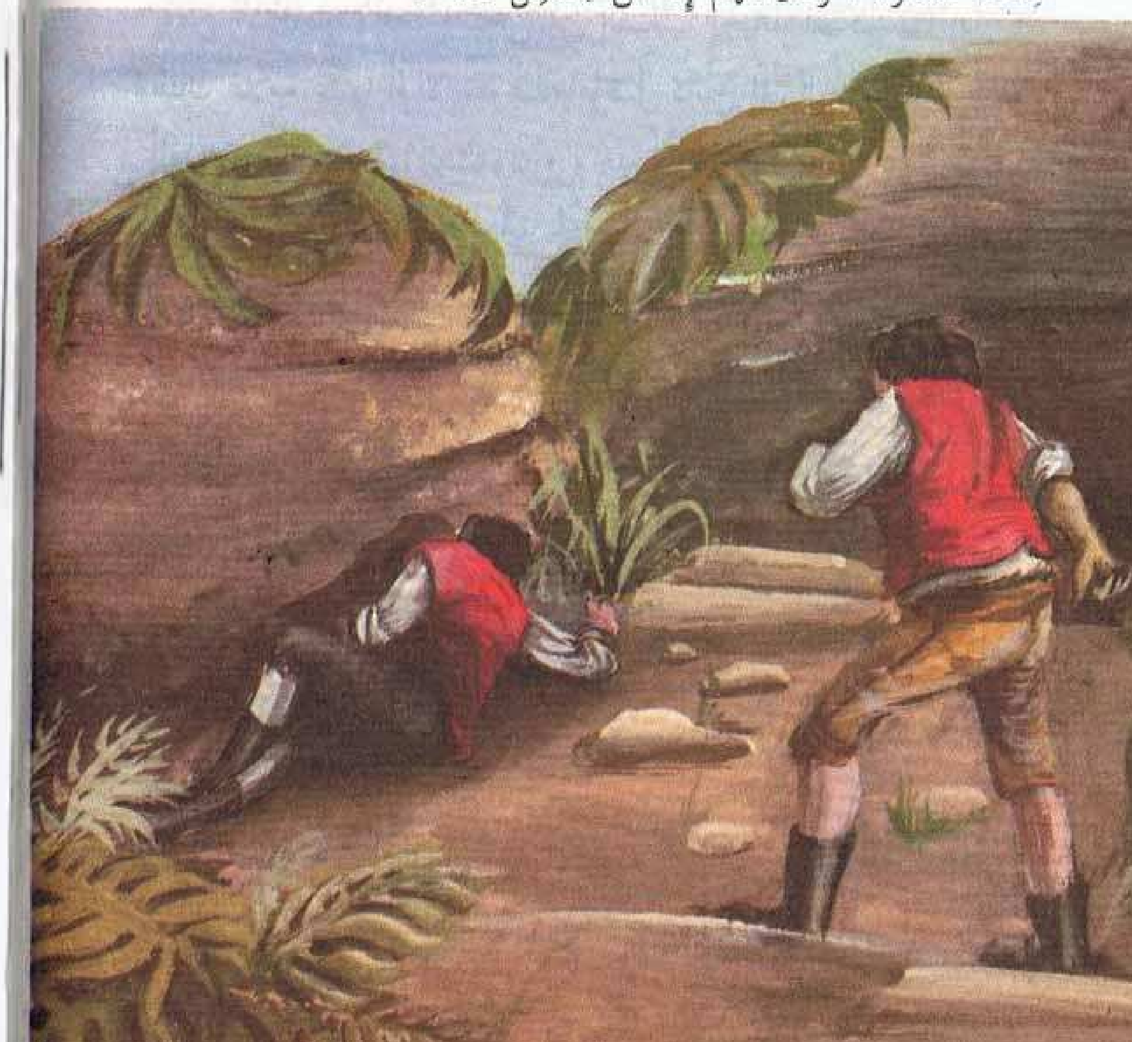
كانَ ٱلرِّجالُ قَدِ ٱنْتَهَوْا لِتَوِّهِمْ مِنْ إِعْدادِ وَجْبَةِ طَعامٍ ، وَتَأَهَّبوا لِلْجُلوسِ وَٱلْأَكْلِ عِنْدَما رَأَوْا دانْتِي يَقْفِزُ مِنْ صَخْرَةٍ إِلى أُخْرى مُتَّجِهًا إِلَيْهِمْ .

وَبَيْنَما كانَتْ كُلُّ ٱلْأَنْظارِ مُتَّجِهَةً إِلَيْهِ أَبْصَروهُ فَجْأَةً يَسْقُطُ عَلى

ٱلْأَرْضِ ، فَأَسْرَعوا جَميعُهُمْ إِلَيْهِ . وَكانَ جاكُوبُو أَوَّلَ مَنْ وَصَلَ لِنَجْدَتِهِ ، فَوَجَدَهُ راقِدًا كَأَنَّهُ جُثَّةٌ هامِدَةٌ .

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ فَتَحَ دانْتِي عَيْنَيْهِ وَقالَ لَهُمْ إِنَّهُ يُحِسُّ في رُكْبَتَيْهِ وَساقَيْهِ بِأَلَمٍ شَديدٍ وَبِثِقَلٍ في رَأْسِهِ .

وَلَمّا أَرادوا أَنْ يَحْمِلوهُ إِلى ٱلشّاطِئِ لَمْ يَسْتَطيعوا ؛ لِأَنَّهُ صَرَخَ مُتَأَلِّمًا عِنْدَما لَمَسوهُ ، وَقالَ لَهُمْ إِنَّهُ لَنْ يَحْتَمِلَ نَقْلَهُ .



وَلَمْ يَكُنْ بِطَبيعَةِ ٱلحالِ يُريدُ طَعامًا ، وَلٰكِنَّهُ طَلَبَ مِنَ ٱلآخَرينَ أَنْ يَذْهَبوا وَيَتَناوَلوا طَعامَهُمْ ، وَعِنْدَما يَعودونَ فَسَوْفَ تَكونُ حالَتُهُ قَدْ تَحَسَّنَتْ ؛ فَٱنْصَرَفوا .

بِمُفْرَدِهِ

عادَ ٱلرِّجالُ بَعْدَ ساعَةٍ ، وَكانَ إِدْمُون قَدْ تَحَرَّكَ حَوالى عَشَرَةِ أَمْتارٍ وَجَلَسَ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلى صَخْرَةٍ ، إِلّا أَنَّهُ لَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ أَيُّ تَحَسُّنٍ يُذْكَرُ ، بَلْ عَلى ٱلعَكْسِ ، بَدا كَأَنَّ آلامَهُ قَدْ زادَتْ .

وَلَمّا كانَ عَلى ٱلرُّبّانِ أَنْ يُبْحِرَ ذٰلِكَ ٱلصَّباحَ فَقَدْ سَأَلَ دانْتِي : « أَ لَنْ تُحاوِلَ ٱلوُقوفَ ؟ »

وَحاوَلَ دانْتِي أَنْ يَفْعَلَ ، غَيْرَ أَنَّهُ كانَ في كُلِّ مَرَّةٍ يَسْقُطُ وَهُوَ يَصْرُخُ مِنْ شِدَّةِ ٱلأَلَمِ .

قالَ ٱلرُّبّانُ في صَوْتٍ خَفيضٍ : « لا بُدَّ أَنَّ عَظْمَةَ ٱلسّاقِ أَوِ ٱلرُّكْبَةِ قَدِ ٱنْكَسَرَتْ . وَلٰكِنَّهُ إِنْسانٌ مُمْتازٌ ، فَيَجِبُ أَلّا نَتْرُكَهُ . فَلْنُحاوِلْ أَنْ نَحْمِلَهُ إِلى ٱلسَّفينَةِ . »

لٰكِنَّ دانْتِي قالَ إِنَّهُ يُفَضِّلُ ٱلمَوْتَ عَلى أَنْ يَتَحَرَّكَ .

فَقالَ ٱلرُّبّانُ : « لِنَنْتَظِرْ إِلى ٱلمَساءِ . فَلا يَنْبَغي أَنْ يُقالَ عَنّا إِنَّنا تَرَكْنا

خَلْفَنا زَميلًا ماهِرًا مِثْلَكَ فَوْقَ جَزيرَةٍ مَهْجورَةٍ . »

كانَ هٰذا ٱلقَرارُ مِنَ ٱلرُّبّانِ مَوْضِعَ دَهْشَةٍ وَٱسْتِغْرابٍ مِنْ جانِبِ ٱلبَحّارَةِ ؛ فَهُمْ يَعْرِفونَ رُبّانَهُمْ رَئيسًا صارِمًا . وَكانَتْ هٰذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَرَوْنَهُ عَلى ٱسْتِعْدادٍ لِتَضْييعِ وَقْتِهِ بِهٰذِهِ ٱلطَّريقَةِ .

وَلٰكِنَّ دانْتي رَفَضَ رَفْضًا باتًّا أَنْ تُكْسَرَ ٱلقَواعِدُ مِنْ أَجْلِهِ ، فَقالَ لِلرُّبّانِ : « كَلّا ! إِنَّها غَلْطَتي ، وَمِنَ ٱلعَدْلِ أَنْ أَتَحَمَّلَ نَتائِجَها . كُلُّ ما أُريدُهُ مِنْكُمْ هُوَ مَؤونَةٌ مِنَ ٱلطَّعامِ وَفَأْسٌ وَبَعْضُ ٱلأَشْياءِ ٱلَّتي تَلْزَمُني لِبِناءِ كوخٍ لي . »

« لٰكِنَّكَ سَتَموتُ مِنَ ٱلجوعِ يا دانْتي . »

« إِنَّ ٱلجوعَ أَفْضَلُ عِنْدي مِنْ ذٰلِكَ ٱلأَلَمِ ٱلشَّديدِ ٱلَّذي تُسَبِّبُهُ لِيَ ٱلحَرَكَةُ . »

اِلْتَفَتَ ٱلرُّبّانُ ناحِيَةَ سَفينَتِهِ ٱلَّتي كانَتْ تَنْتَظِرُ في ٱلخَليجِ مُتَأَهِّبَةً لِلإِبْحارِ ، وَتَساءَلَ : « ماذا يُمْكِنُنا أَنْ نَفْعَلَ ؟ نَحْنُ لا نَسْتَطيعُ أَنْ نَدَعَكَ وَحْدَكَ هُنا ، وَلٰكِنَّنا لا نَسْتَطيعُ أَيْضًا أَنْ نَبْقى . »

تَوَسَّلَ إِلَيْهِ دانْتي قائِلًا : « اِذْهَبْ ! بِرَبِّكَ ٱذْهَبْ ! »

رَدَّ ٱلرُّبّانُ : « إِنَّنا سَوْفَ نَتَغَيَّبُ أُسْبوعًا عَلى ٱلأَقَلِّ ، ثُمَّ نُغَيِّرُ مَسارَنا

وَنَأْتي إِلى هُنا لِنَلْتَقِطَكَ . »

أَجابَ دانْتي قائِلًا : « حَسَنًا ! إِذا مَرَّتْ بِكُمْ سَفينَةُ صَيْدٍ خِلالَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ ، فَٱسْأَلوهُمْ أَنْ يَحْضُروا إِلى هُنا لِيَأْخُذوني ، وَسَوْفَ أَدْفَعُ لَهُمْ أَجْرَ وُصولي إِلى لِيغْهُورن . أَمّا إِذا لَمْ يُصادِفْكُمْ أَيُّ قارِبٍ ، فَإِنَّهُ يُسْعِدُني جِدًّا أَنْ تَعودوا إِلَيَّ مَرَّةً أُخْرى . »

وَلَمْ يَبْدُ عَلى ٱلرُّبّانِ أَنَّ ٱلفِكْرَةَ راقَتْهُ ؛ فَقالَ جاكُوبُو : « اِذْهَبْ أَنْتَ أَيُّها ٱلرُّبّانُ وَسَأَمْكُثُ أَنا مَعَهُ لِأَعْتَنِيَ بِهِ . »

فَقالَ دانْتي عَلى ٱلفَوْرِ : « وَتَتَخَلّى عَنْ نَصيبِكَ مِنْ مَكاسِبِ ٱلعَمَلِيَّةِ ؟! »

قالَ جاكُوبُو بِدونِ تَرَدُّدٍ : « نَعَمْ ، بِٱلتَّأْكيدِ ! »

كانَ دانْتي قَدْ عَزَمَ عَلى أَنْ يَبْقى وَحْدَهُ عَلى ٱلجَزيرَةِ مَهْما كانَ ٱلسَّبَبُ . وَبَدَتْ عَلى وَجْهِهِ نَظْرَةٌ غَريبَةٌ وَهُوَ يَضْغَطُ عَلى يَدِ جاكُوبُو قائِلًا : « أَنْتَ صَديقٌ مُخْلِصٌ طَيِّبُ ٱلقَلْبِ . جَزاكَ ٱللهُ خَيْرًا عَلى هٰذا ٱلعَطْفِ ، وَلٰكِنَّني لا أُريدُ أَنْ يَبْقى مَعي أَحَدٌ . وَلَسَوْفَ أَكونُ بِخَيْرٍ بَعْدَ قَليلٍ مِنَ ٱلرّاحَةِ . »

وَتَرَكَ ٱلرِّجالُ لِإِدْمون كُلَّ ما طَلَبَهُ مِنْهُمْ ، وَٱنْطَلَقوا بِسَفينَتِهِمْ بَعْدَ أَنِ ٱلْتَفوا مُلَوِّحينَ لَهُ بِأَيْديهِمْ عِدَّةَ مَرّاتٍ ، فَكانَ يَرُدُّ بِتَحْريكِ يَدِهِ فَقَطْ

كَما لَوْ كانَ عاجِزًا عَنْ أَنْ يُحَرِّكَ باقِيَ أَجْزاءِ جَسَدِهِ .

قالَ دانْتِي بَعْدَ أَنِ آنْصَرَفوا : « مِنَ آلغَريبِ أَنْ يَجِدَ آلمَرْءُ مِثْلَ هٰذا آلعَطْفِ مِنْ ناسٍ مِثْلِ هٰؤُلاءِ ! »

وَصَعِدَ دانْتِي بِحَذَرٍ فَوْقَ أَعْلى آلصَّخْرَةِ ، وَمِنْ هُناكَ آسْتَطاعَ أَنْ يَرى آلبَحْرَ ، وَيُشاهِدَ آلسَّفينَةَ وَهِيَ تَتَأَهَّبُ لِتُغادِرَ آلجَزيرَةَ ، وَقَدْ بَدَتْ كَطائِرٍ أَبْيَضَ جَميلٍ ، ما لَبِثَ أَنِ آخْتَفى عَنِ آلأَبْصارِ بَعْدَ ساعَةٍ .

عِنْدَئِذٍ قَفَزَ دانْتِي واقِفًا ، وَأَسْرَعَ تُجاهَ آلصَّخْرَةِ آلَّتي آنْتَهَتْ عِنْدَها آلعَلاماتُ .

الفَصْلُ آلسّادِسَ عَشَرَ
الكَنْـــزُ

الصَّخْرَةُ آلثّانِيَةُ وَآلعِشْرون

هَبَطَ دانْتِي مِنْ فَوْقِ آلصَّخْرَةِ بِحَذَرٍ خَشْيَةَ أَنْ يَسْقُطَ فِعْلًا هٰذِهِ آلمَرَّةَ ، لا أَنْ يَتَظاهَرَ بِآلسُّقوطِ .

وَبَدَأَ يَتَتَبَّعُ سِلْسِلَةَ آلعَلاماتِ آلمَوْضوعَةِ عَلى آلحِجارَةِ . وَلاحَظَ أَنَّها تَبْدَأُ مِنْ خَليجٍ صَغيرٍ لا يَتَّسِعُ إِلّا لِسَفينَةٍ صَغيرَةٍ مِثْلِ تِلْكَ آلَّتي مِنَ آلمُمْكِنِ أَنْ يَكونَ قَدِ آسْتَخْدَمَها سْبادا ، وَتَنْتَهي عِنْدَ آلصَّخْرَةِ آلكَبيرَةِ آلمُسْتَديرَةِ .

وَتَساءَلَ دانْتِي كَيْفَ تَسَنّى لِلأَميرِ سْبادا أَنْ يَرْفَعَ صَخْرَةً كَهٰذِهِ وَيَضَعَها في هٰذا آلمَكانِ ؟ إِنَّهُ حِمْلٌ لا يَقْوى عَلَيْهِ عِشْرونَ رَجُلًا ، وَإِذا لَمْ تَكُنْ هِيَ آلصَّخْرَةَ آلمَقْصودَةَ فَأَيْنَ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ مَكانُ آلكَنْزِ ؟!

وَفَجْأَةً خَطَرَتْ لَهُ فِكْرَةٌ أُخْرى : « إِنَّ آلصَّخْرَةَ قَدْ أُسْقِطَتْ بَدَلًا

مِنْ أَنْ تكونَ قَدْ رُفِعَتْ ! » وَقَفَزَ بَعيدًا عَنِ ٱلصَّخْرَةِ لِيَفْحَصَ ٱلأَرْضَ ٱلَّتي تَعْلوها ؛ فَوَجَدَ عَلاماتٍ واضِحَةً تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ كانَ هُناكَ ذاتَ مَرَّةٍ مَجْرًى عَميقٌ ٱنْحَدَرَتْ فيهِ هٰذِهِ ٱلصَّخْرَةُ ، وَأَنَّ ثَمَّةَ حَجَرًا وُضِعَ في طَريقِها لِإيقافِها وَإِبْقائِها في مَكانِها ٱلحالِيِّ ، وَقَدْ غَطّى ٱلعُشْبُ ٱلحَجَرَ كُلَّهُ تَقْريبًا ، وَأَنَّ ٱلأَماكِنَ ٱلَّتي لَمْ تَسْتَقِرَّ فيها ٱلصَّخْرَةُ جَيِّدًا وَبَقِيَتْ فيها بَعْضُ ٱلفَجَواتِ ، قَدْ رُدِمَتْ بِقِطَعٍ مِنَ ٱلحِجارَةِ وَٱلتُّرابِ .

وَأَزالَ دانْتي قِطَعَ ٱلحِجارَةِ ٱلصَّغيرَةَ ٱلمَوْجودَةَ حَوْلَ ٱلصَّخْرَةِ . وَبَعْدَ عَشْرِ دَقائِقَ كانَ في ٱسْتِطاعَتِهِ أَنْ يَمُدَّ ذِراعَهُ إِلى داخِلِ ٱلحُفْرَةِ . وَأَخَذَ فَأْسَهُ وَقَطَعَ بِها أَقْوى شَجَرَةٍ في ٱلمَكانِ ، ثُمَّ نَزَعَ عَنْها أَغْصانَها ، وَأَدْخَلَ أَحَدَ طَرَفَيْها في ٱلحُفْرَةِ ، وَراحَ يَضْغَطُ بِأَقْصى طاقَتِهِ عَلى ٱلطَّرَفِ ٱلآخَرِ . وَظَلَّ يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتّى تَحَرَّكَتِ ٱلصَّخْرَةُ ؛ فَضَغَطَ عَلَيْها ثانِيَةً وَبِقُوَّةٍ أَكْبَرَ إِلى أَنِ ٱرْتَفَعَتْ مِنْ مَكانِها ، لٰكِنَّها عادَتْ ثانِيَةً إِلَيْهِ . وَجَلَسَ دانْتي وَنالَ قِسْطًا مِنَ ٱلرّاحَةِ ، ثُمَّ قامَ مِنْ جَديدٍ لِيَدْفَعَ ٱلصَّخْرَةَ بِأَقْوى ما في وُسْعِهِ ، حَتّى تَحَرَّكَتْ هٰذِهِ ٱلمَرَّةَ مِنْ مَوْقِعِها ، ثُمَّ تَدَحْرَجَتْ هابِطَةً سَفْحَ ٱلتَّلِّ إِلى أَنْ سَقَطَتْ في ٱلبَحْرِ .

وَرَأى دانْتي في مَكانِها حَجَرًا مُرَبَّعًا كَبيرًا في وَسَطِهِ حَلْقَةٌ .

الغُرْفَةُ ٱلأولى

أَطْلَقَ دانْتي صَرْخَةَ فَرَحٍ وَدَهْشَةٍ ، وَٱنْتَظَرَ دَقيقَةً لِيَسْتَرْجِعَ قُواهُ .



ثُمَّ قامَ وَوَضَعَ طَرَفَ ٱلشَّجَرَةِ في ٱلحَلْقَةِ ، وَضَغَطَ عَلى ٱلطَّرَفِ ٱلآخَرِ ، وَإِذا بِٱلحَجَرِ يَرْتَفِعُ مِنْ مَكانِهِ ، وَرَأى بِضْعَ دَرَجاتٍ تَقودُ إِلى حُجْرَةٍ سُفْلِيَّةٍ يَسودُها ٱلظَّلامُ .

وَتَساءَلَ عَمّا إِذا كانَ قَدْ جاءَ قَبْلَهُ أَحَدٌ : سيزار بورْجيا بِنَفْسِهِ مَثَلًا . وَلٰكِنْ لَوْ أَنَّ ذٰلِكَ قَدْ حَدَثَ ؛ فَهَلْ كانَ بورْجيا سَيُبَدِّدُ وَقْتَهُ وَجَهْدَهُ في إِعادَةِ ٱلصَّخْرَةِ إِلى مَكانِها ؟!

هَبَطَ ٱلدَّرَجَ فَوَجَدَ بَدَلًا مِنَ ٱلظَّلامِ ٱلَّذي كانَ يَتَوَقَّعُهُ ضَوْءًا أَزْرَقَ ، وَأَحَسَّ بِهَواءٍ مُنْعِشٍ . وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ ٱلضَّوْءَ وَٱلهَواءَ يَأْتِيانِ مِنْ خِلالِ فَجَواتٍ صَغيرَةٍ في ٱلصَّخْرَةِ ٱلَّتي تَعْلو رَأْسَهُ . وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَنَظَرَ خِلالَ ٱلفَجَواتِ لِيَرى ٱلسَّماءَ ٱلزَّرْقاءَ وَأَغْصانَ ٱلشَّجَرِ وَهِيَ تَتَمايَلُ . وَبَعْدَ عِدَّةِ دَقائِقَ ٱسْتَطاعَ أَنْ يُبْصِرَ كُلَّ أَرْجاءِ ٱلمَكانِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ هُناكَ شَيْئًا . عِنْدَئِذٍ تَذَكَّرَ كَلِماتِ ٱلخِطابِ : « اِقْتَحِمِ ٱلغُرْفَةَ ٱلثّانِيَةَ . » فَكانَ لا بُدَّ أَنْ يَعْثُرَ عَلى تِلْكَ ٱلغُرْفَةِ .

بَدَأَ يَطْرُقُ جُدْرانَ ٱلحُجْرَةِ بِفَأْسِهِ ، وَلاحَظَ في مَكانٍ ما أَنَّ ٱلصَّوْتَ يَخْتَلِفُ قَليلًا ، فَضَرَبَهُ بِقُوَّةٍ أَكْبَرَ ، وَإِذا بِشَيْءٍ غَريبٍ يَحْدُثُ : لَقَدْ سَقَطَ بِسُهولَةٍ ما كانَ يَبْدو أَنَّهُ صَخْرَةٌ جامِدَةٌ لِيَظْهَرَ خَلْفَها جِدارٌ مِنْ حِجارَةٍ بَيْضاءَ مُرَبَّعَةٍ . إِذًا لَقَدْ تَمَّ بِناءُ ٱلفُتْحَةِ وَطِلاؤُها بِحَيْثُ تَبْدو كَأَنَّها صَخْرَةٌ .

بَدَأَتْ قُوَّةُ دانْتي تَقِلُّ ؛ فَوَضَعَ ٱلفَأْسَ عَلى ٱلأَرْضِ ، وَمَسَحَ وَجْهَهُ بِيَدِهِ ، ثُمَّ صَعِدَ دَرَجاتِ ٱلسُّلَّمِ ، وَخَرَجَ إِلى ٱلهَواءِ ٱلطَّلْقِ . وَجَدَ كُلَّ شَيْءٍ هادِئًا في ضَوْءِ ٱلشَّمْسِ ٱلسّاطِعَةِ ، وَلَمْ يُشاهِدْ سِوى بِضْعِ قَوارِبِ صَيْدٍ بَعيدَةٍ فَوْقَ صَفْحَةِ ٱلبَحْرِ ٱلزَّرْقاءِ . وَمَعَ أَنَّهُ لَمْ يَذُقْ طَعامًا أَوْ شَرابًا لِعِدَّةِ ساعاتٍ إِلّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ بِٱلجوعِ . وَتَناوَلَ قِطْعَةً مِنَ ٱلخُبْزِ ، وَشَرِبَ جَرْعَةً مِنَ ٱلماءِ ، ثُمَّ عادَ لِيَسْتَأْنِفَ ٱلبَحْثَ . وَأَحَسَّ هٰذِهِ ٱلمَرَّةَ أَنَّ فَأْسَهُ قَدْ أَصْبَحَتْ خَفيفَةً ، وَٱكْتَشَفَ أَنَّ ٱلجِدارَ ٱلَّذي أَمامَهُ لَمْ يَكُنْ

غَيْرَ مَجْموعَةِ أَحْجارٍ رُصَّ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ ، فَٱنْتَزَعَها كُلَّها واحِدَةً واحِدَةً .

الصُّنْـــــدوقُ

اِسْتَطاعَ دانْتي أَخيرًا أَنْ يَدْخُلَ ٱلحُجْرَةَ ٱلثّانِيَةَ . وَكانَتْ أَصْغَرَ وَأَكْثَرَ ظَلامًا مِنَ ٱلحُجْرَةِ ٱلأولى . وَكانَتْ رائِحَةُ ٱلغُبارِ تَمْلَأُ هَواءَها ؛ فَٱنْتَظَرَ قَليلًا حَتّى يَتَجَدَّدَ ٱلهَواءُ داخِلَها ، ثُمَّ دَخَلَ .

كانَ ثَمَّةَ رُكْنٌ مُظْلِمٌ إِلى يَسارِ ٱلفُتْحَةِ ، غَيْرَ أَنَّ عَيْنَيْ دانْتي لَمْ تَعْرِفا شَيْئًا ٱسْمُهُ ٱلظَّلامُ ؛ فَتَلَفَّتَ في أَرْجاءِ هٰذِهِ ٱلغُرْفَةِ أَيْضًا ، لٰكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ فيها شَيْئًا .

لا بُدَّ أَنْ يَكونَ ٱلكَنْزُ ، إِذا كانَ ثَمَّةَ كَنْزٌ ، في ذٰلِكَ ٱلرُّكْنِ ٱلمُظْلِمِ .

وَأَدْرَكَ دانْتي أَنَّ ٱلوَقْتَ قَدْ حانَ لِيَعْرِفَ ٱلحَقيقَةَ . فَٱتَّجَهَ إِلى ٱلرُّكْنِ ٱلمُظْلِمِ ، وَٱسْتَجْمَعَ كُلَّ قُواهُ ، وَبَدَأَ يَحْفِرُ . وَفَجْأَةً ٱصْطَدَمَتِ ٱلفَأْسُ بِشَيْءٍ صُلْبٍ فَٱنْبَعَثَ مِنْهُ صَوْتٌ خَفَقَ لَهُ قَلْبُهُ خُفوقًا لَمْ يَكُنْ لِيَخْفِقَهُ وَلا حَتّى لِصَوْتِ ٱلجَرَسِ ٱلضَّخْمِ في قَلْعَةِ إِفْ . وَرَفَعَ فَأْسَهُ وَضَرَبَ بِها مَرَّةً أُخْرى ؛ فَٱنْبَعَثَ ٱلصَّوْتُ نَفْسُهُ .

وَصاحَ أَخيرًا : « إِنَّهُ صُندوقٌ خَشَبِيٌّ كَبيرٌ بِشَرائِطَ قَوِيَّةٍ مَتينَةٍ حَوْلَهُ ! »

فِي تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ رَأى دانْتِي شَبَحًا يَتَحَرَّكُ أَمامَ ٱلمَدْخَلِ ، فَأَمْسَكَ بِفَأْسِهِ وَأَسْرَعَ نَحْوَهُ صاعِدًا دَرَجاتِ ٱلسُّلَّمِ حَتّى ٱكْتَشَفَ أَنَّ ٱلأَمْرَ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ عَنْزٍ بَرِّيَّةٍ وَرَأى آثارَ أَظْلافِها ، وَكانَتْ تَأْكُلُ طَعامَها في هُدوءٍ بَيْنَ ٱلأَشْجارِ .

وَوَقَفَ دانْتِي يُفَكِّرُ ، ثُمَّ أَخَذَ غُصْنًا جافًّا وَأَشْعَلَهُ ، ثُمَّ هَبَطَ مَرَّةً أُخْرى . وَكانَ يُريدُ أَنْ يَرى كُلَّ شَيْءٍ ؛ وَعِنْدَما ٱقْتَرَبَ مِنْ مَكانِ ٱلحَفْرِ تَأَكَّدَ أَنَّ ما كَشَفَ عَنْهُ ٱلتُّرابَ بِفَأْسِهِ إِنَّما هُوَ غِطاءُ صُنْدوقٍ مَرْبوطٍ بِشَرائِطَ مَتينَةٍ .

فَثَبَّتَ فِي ٱلأَرْضِ ٱلغُصْنَ ٱلمُشْتَعِلَ ، ثُمَّ أَزاحَ ٱلتُّرابَ عَنِ ٱلغِطاءِ . وَكانَ طولُهُ يَبْلُغُ مِتْرًا وَعَرْضُهُ نِصْفَ مِتْرٍ ، وَكانَتْ مُثَبَّتَةً في وَسَطِهِ قِطْعَةٌ فِضِّيَّةٌ مَرْسومٌ عَلَيْها شِعارُ عائِلَةِ سْپادا .

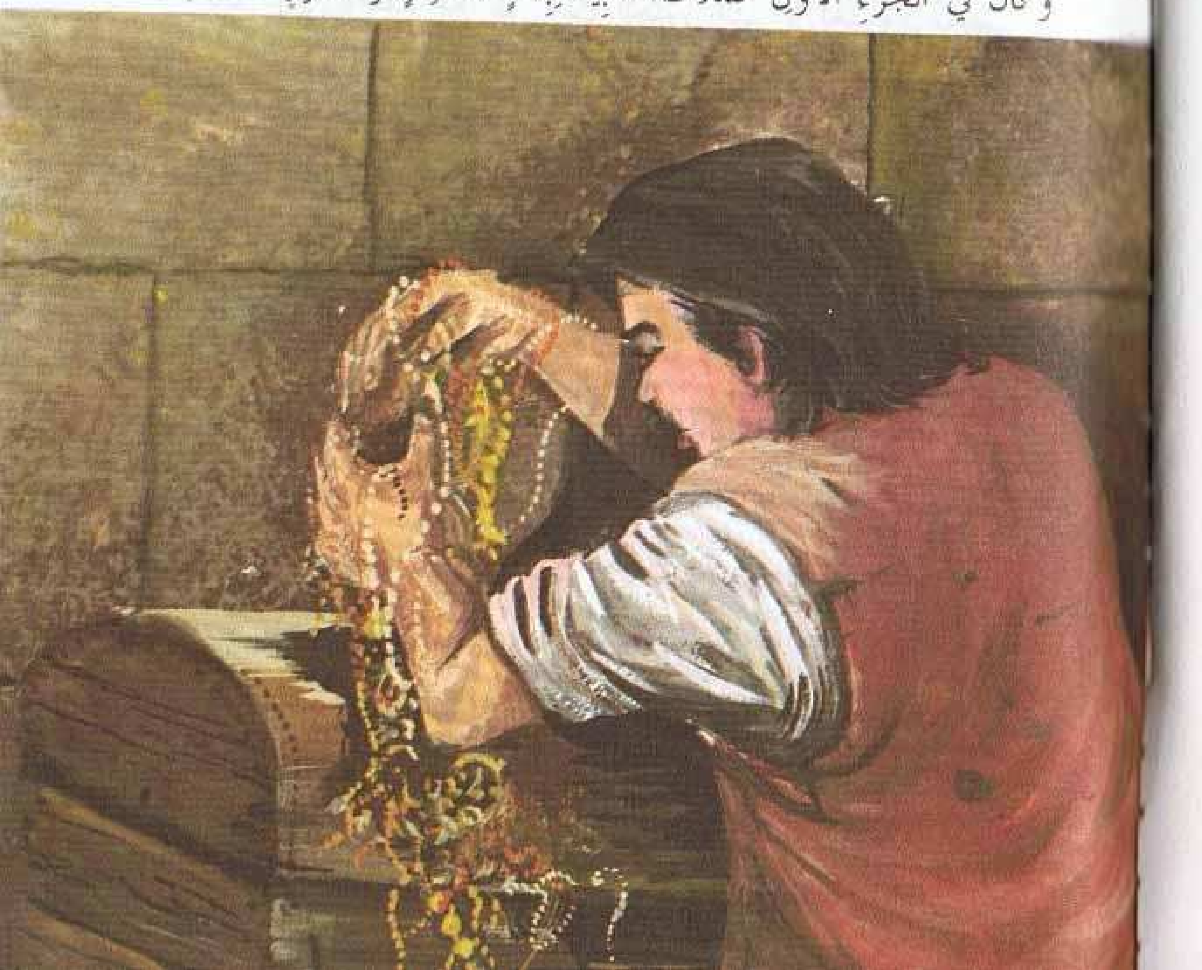
ذَهَبٌ وَجَواهِرُ

لَمْ يَعُدْ هُناكَ أَدْنى شَكٍّ في أَنَّ ٱلكَنْزَ صارَ حَقيقَةً واقِعَةً ، فَلا يُعْقَلُ أَنْ يَتَحَمَّلَ إِنْسانٌ كُلَّ ذٰلِكَ ٱلعَناءِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُخْفِيَ صُنْدوقًا فارِغًا .

وَحَفَرَ دانْتِي حَوْلَ ٱلصُّنْدوقِ ، ثُمَّ حاوَلَ أَنْ يَرْفَعَهُ ، لٰكِنَّ مُحاوَلَتَهُ باءَتْ بِٱلفَشَلِ . وَحاوَلَ أَنْ يَفْتَحَهُ دونَ أَنْ يَنْقُلَهُ مِنْ مَكانِهِ ، لٰكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ لَهُ مِفْتاحًا ؛ فَضَرَبَهُ بِٱلفَأْسِ . وَلَمّا كانَ خَشَبُ ٱلصُّنْدوقِ قَديمًا وَمُتَآكِلًا فَقَدْ تَهَشَّمَ غِطاؤُهُ بِسُهولَةٍ .

وَتَراجَعَ دانْتِي إِلى ٱلوَراءِ خُطُواتٍ ، وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ كَما يَفْعَلُ ٱلأَطْفالُ عِنْدَما يَنْظُرونَ إِلى آلافِ ٱلنُّجومِ ٱلمُتَلأْلِئَةِ في ٱلسَّماءِ في لَيْلَةٍ صافِيَةٍ ، ثُمَّ فَتَحَ عَيْنَيْهِ ثانِيَةً ، وَوَقَفَ كَأَنَّهُ في حُلْمٍ .

كانَ ٱلصُّنْدوقُ مُقَسَّمًا إِلى ثَلاثَةِ أَجْزاءٍ بِواسِطَةِ أَلْواحٍ مِنَ ٱلخَشَبِ . وَكانَ في ٱلجُزْءِ ٱلأَوَّلِ عُمْلاتٌ ذَهَبِيَّةٌ لِبِلادٍ مُخْتَلِفَةٍ وَعُصورٍ مُخْتَلِفَةٍ ،



وَكانَ مُعْظَمُها مِنْ أَيّامِ سيزار بُورْجيا . أَمّا ٱلْجُزْءُ ٱلثّاني فَكانَ يَحْتَوي
عَلى سَبائِكَ ذَهَبِيَّةٍ . وَمَدَّ دانْتي يَدَهُ وَٱغْتَرَفَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلثّالِثِ بَعْضَ
ما فيهِ مِنْ جَواهِرَ ، ثُمَّ أَسْقَطَها فَأَحْدَثَتْ صَوْتًا يُشْبِهُ نَقَراتِ حَبّاتِ
ٱلْمَطَرِ عَلى ٱلنّافِذَةِ .

وَبَعْدَ أَنْ لَمَسَ دانْتي كُلَّ هٰذِهِ ٱلْكُنوزِ ، وَتَحَسَّسَها ، وَمَلَأَ عَيْنَيْهِ
مِنْها رَجَعَ عائِدًا إِلى ٱلدَّرَجاتِ كَأَنَّ بِهِ لوثَةً . وَراحَ يَقْفِزُ إِلى صَخْرَةٍ
عالِيَةٍ ٱسْتَطاعَ أَنْ يَرى ٱلْبَحْرَ مِنْها مُمْتَدًّا أَمامَهُ .

كانَ دانْتي وَحْدَهُ مَعَ كُلِّ تِلْكَ ٱلْكُنوزِ ٱلَّتي لا تُعَدُّ وَلا تُحْصى ،
وَٱلَّتي لَمْ تَخْطُرْ عَلى بالِ أَحَدٍ . أَفي عِلْمٍ هُوَ أَمْ في حُلْمٍ ؟

وَأَخيرًا هَدَأَتْ مَشاعِرُهُ مَعَ ٱقْتِرابِ ٱلْمَساءِ . وَلَمْ يَكُنْ عَشاؤُهُ سِوى
كِسْرَةِ خُبْزٍ وَشَرْبَةِ ماءٍ . ثُمَّ تَمَدَّدَ بَعْدَها وَراحَ في سُباتٍ عَميقٍ فَوْقَ
ٱلْفَجْوَةِ ٱلَّتي تَقودُ إِلى غُرْفَةِ ٱلْكَنْزِ .

الفَصْلُ ٱلسّابِعَ عَشَرَ
فـي مارْسيلْيـا

دانْتـي يُـغادِرُ ٱلجَزيـرَةَ

عِنْدَما طَلَعَ ٱلنَّهارُ تَسَلَّقَ دانْتي إِلى قِمَّةِ أَعْلى صَخْرَةٍ في ٱلْجَزيرَةِ .
وَكانَ هَدَفُهُ أَنْ يَرى هَلْ هُناكَ أَيُّ بُيوتٍ أَوْ بَشَرٍ عَلى ٱلْجَزيرَةِ ، فَلَمْ
يَجِدْ . لَقَدْ كانَتْ ، في ٱلْواقِعِ ، جَزيرَةً مَهْجورَةً : مُجَرَّدَ صُخورٍ
صُلْبَةٍ ، مَعَ بَعْضِ ٱلْأَشْجارِ وَٱلْأَعْشابِ ٱلَّتي نَبَتَتْ في طَبَقَةِ ٱلتُّرْبَةِ ٱلرَّقيقَةِ
في سُطوحِ ٱلتِّلالِ وَٱلصُّخورِ .

وَعادَ إِلى مَكانِ ٱلْكَنْزِ ؛ فَدَخَلَ ٱلْغُرْفَةَ ٱلثّانِيَةَ ، وَأَخَذَ مِنَ ٱلْجَواهِرِ
بِقَدْرِ ما ٱسْتَطاعَتْ جُيوبُ مَلابِسِهِ أَنْ تُخْفِيَ بِداخِلِها ، ثُمَّ هالَ ٱلتُّرابَ
عَلى ٱلصُّنْدوقِ ، وَغَطّاهُ بِبَعْضِ ٱلرَّمْلِ حَتّى لا يَلْحَظَ أَيُّ إِنْسانٍ ، كائِنًا
مَنْ كانَ ، أَنَّهُ كانَ ثَمَّةَ حَفْرٌ في هٰذا ٱلْمَكانِ . ثُمَّ وَضَعَ حَجَرًا كَبيرًا
سَدَّ بِهِ ٱلْفُتْحَةَ وَغَطّاهُ بِٱلتُّرابِ ، ثُمَّ زَرَعَ فيهِ بَعْضَ ٱلنَّباتاتِ ٱلسَّريعَةِ
ٱلنُّمُوِّ ، وَراحَ يَتَجَوَّلُ في أَرْجاءِ ٱلْمَكانِ يُزيلُ كُلَّ أَثَرٍ لِأَقْدامِهِ .
وَعِنْدَما غادَرَ ٱلْمَكانَ بَدا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ حَوْلِهِ كَأَنَّما لَمْ تَطَأْهُ قَدَمُ

إِنْسانٍ مِنْ قَبْلُ . وَبَدَأَ يَعُدُّ نَفْسَهُ لِعَوْدَةِ أَصْدِقائِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ ٱلانْتِظارُ سَهْلًا ، كَذٰلِكَ لَمْ يُحِسَّ بِأَيَّةِ مُتْعَةٍ فِي ٱلجُلوسِ بِجِوارِ ٱلكَنْزِ وَمُراقَبَتِهِ ، بَلْ عَلى ٱلعَكْسِ ، فَإِنَّ رَغْبَتَهُ فِي أَنْ يَعيشَ بَيْنَ ٱلنّاسِ قَدِ ٱزْدادَتْ بِفَضْلِ ذٰلِكَ ٱلكَنْزِ ٱلَّذي هَبَطَ عَلَيْهِ . لَقَدْ عَرَفَ ٱلآنَ حَجْمَ ٱلقُوَّةِ ٱلَّتي مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ تَمْنَحَهُ إِيّاها تِلْكَ ٱلثَّرْوَةُ ٱلكَبيرَةُ . إِنَّ دانْغلَرْز وَكادِيرُوس وَحَتّى فِيلفُور لَنْ يَكونوا مِنَ ٱلآنَ شَيْئًا بِٱلنِّسْبَةِ إِلَيْهِ ، بَلْ مُجَرَّدَ ناسٍ حَقيرينَ لا يَسْتَحِقّونَ أَنْ يَشْغَلَ بِهِمْ بالَهُ .

وَتَساءَلَ أَيُّ عَمَلِ خَيْرٍ يُمْكِنُ أَنْ يَقومَ بِهِ مُسْتَعينًا بِذٰلِكَ ٱلمالِ ٱلوَفيرِ ؟! وَأَيَّةُ بَهْجَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يُدْخِلَها عَلى قُلوبِ أَحْبابِهِ ؟!

وَعادَتْ إِميلْيا ٱلصَّغيرَةُ بَعْدَ سِتَّةِ أَيّامٍ ، عَرَفَها دانْتي مِنْ بُعْدٍ مِنْ أَشْرِعَتِها وَمِنْ طَريقَةِ سَيْرِها ، فَهَبَطَ إِلى ٱلشّاطِئِ مُتَظاهِرًا بِأَنَّ ساقَهُ ما زالَتْ تُؤْلِمُهُ ، وَسَأَلَهُمْ عَنْ سَيْرِ ٱلأَحْوالِ فَأَجابوهُ بِأَنَّهُمْ أَفْرَغوا ٱلبَضائِعَ عَلى ٱلبَرِّ في أَمانٍ . لٰكِنَّهُمْ ما إِنِ ٱنْتَهَوْا حَتّى سَمِعوا أَنَّ سَفينَةً حُكومِيَّةً قَدْ غادَرَتْ طُولُون لِمُطارَدَتِهِمْ وَٱلقَبْضِ عَلَيْهِمْ فَأَسْرَعوا مِنْ فَوْرِهِمْ يَلوذونَ بِٱلفِرارِ . وَقالوا لَهُ إِنَّهُمْ كانوا يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَكونَ مَعَهُمْ ؛ إِذْ مِنَ ٱلمُؤَكَّدِ أَنَّ وُجودَهُ كانَ سَيَنْفَعُهُمْ كَثيرًا . كَما أَخْبَروهُ أَنَّهُمْ كادوا أَنْ يَسْقُطوا في أَيْدي ٱلشُّرْطَةِ لَوْلا حُلولُ ٱلظَّلامِ ٱلَّذي ٱنْتَهَزوهُ فَغَيَّروا مَسارَهُمْ عائِدينَ أَدْراجَهُمْ ، وَأَفْلَتوا بِذٰلِكَ مِنَ ٱلقَبْضِ عَلَيْهِمْ .

كانوا جَميعًا شَديدي ٱلأَسَفِ أَنَّ دانْتي حُرِمَ مِنْ نَصيبِهِ فِي ٱلمَكاسِبِ ٱلَّتي كانَتْ كَبيرَةً جِدًّا ، عَلى حَدِّ تَعْبيرِهِمْ ، وَمَنَعَ دانْتي نَفْسَهُ مِنَ

ٱلضَّحِكِ .

إِنَّ إِميلْيا ٱلصَّغيرَةَ عَلى أَيَّةِ حالٍ لَمْ تَأْتِ إِلى جَزيرَةِ مُونْت كريسْتو إِلّا لِكَيْ تَلْتَقِطَهُ ؛ فَنَهَضَ وَرَكِبَ ، وَٱنْطَلَقَتِ ٱلسَّفينَةُ إِلى لِيغْهُورْن .

اليخت

قَصَدَ دانْتي ، وَهُوَ فِي لِيغْهُورن ، بَيْتَ تاجِرٍ يَعْرِفُهُ ، وَباعَ لَهُ أَرْبَعًا مِنْ أَصْغَرِ ٱلجَواهِرِ ٱلَّتي مَعَهُ . وَكانَ يَخْشى أَنْ يَسْأَلَهُ ٱلتّاجِرُ عَنْ مَصْدَرِها ، وَهُوَ ٱلبَحّارُ العادِيُّ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلتّاجِرَ لَمْ يَسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ ، وَدَفَعَ لَهُ فيها ما هُوَ أَقَلُّ بِكَثيرٍ مِنْ قيمَتِها ٱلحَقيقِيَّةِ .

وَفِي ٱليَوْمِ ٱلتّالي ٱشْتَرى دانْتي لِجاكُوبُو سَفينَةً جَديدَةً وَمَنَحَهُ بَعْضَ ٱلمالِ ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلى ٱلرُّبّانِ وَأَخْبَرَهُ أَنَّ عَمَّهُ ، ٱلَّذي ماتَ لِتَوِّهِ ، قَدْ تَرَكَ لَهُ ثَرْوَةً كَبيرَةً مِنَ ٱلمالِ ، وَأَنَّهُ لِهٰذا ٱلسَّبَبِ يَرْغَبُ في أَنْ يَتْرُكَ ٱلسَّفينَةَ . وَكانَ ٱلرُّبّانُ حَزينًا لِفَقْدِهِ بَحّارًا ماهِرًا مِثْلَ دانْتي ، فَحاوَلَ بِكُلِّ ما أوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ أَنْ يَثْنِيَهُ عَنْ عَزْمِهِ ، وَلٰكِنْ عَبَثًا . ثُمَّ قَدَّمَ دانْتي هَدِيَّةً لَطيفَةً لِكُلِّ واحِدٍ مِنَ ٱلبَحّارَةِ ، فَدَعَوْا لَهُ مِنْ أَعْماقِ قُلوبِهِمْ بِٱلسَّعادَةِ .

بَعْدَ ذٰلِكَ غادَرَ دانْتي لِيغْهُورْن ، وَذَهَبَ إِلى جِنْوا .

وَفي جِنْوا رَأى صانِعَ سُفُنٍ يُجَرِّبُ في مِياهِ ٱلخَليجِ سَفينَةً صَغيرَةً جَميلَةً ٱنْتَهى لِتَوِّهِ مِنْ صُنْعِها ، كَيَخْتٍ لِأَحَدِ ٱلأَثْرِياءِ . وَكانَتِ ٱلسَّفينَةُ

صَغيرَةً جِدًّا إلى دَرَجَةِ أَنَّ دانْتِي كانَ مُتأَكِّدًا أَنَّهُ يَسْتَطيعُ أَنْ يُقلِعَ بِها وَحْدَهُ دونَ مُساعَدَةٍ مِنْ أَحَدٍ . كَما كانَتْ أَيْضًا سَريعَةً إلى دَرَجَةِ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُناكَ أَيَّةُ سَفينَةٍ أُخرى عَلى سَطْحِ ٱلماءِ تَسْتَطيعُ ٱللَّحاقَ بِها .

وَعَرَضَ دانْتِي عَلى ٱلرَّجُلِ مَبْلَغًا مِنَ ٱلمالِ يَفوقُ بِكَثيرٍ ثَمَنَها ٱلحَقيقِيَّ عَلى أَنْ يَسْمَحَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَعَ ٱلسَّفينَةِ كُلَّ أَوْراقِ ٱلمِلْكِيَّةِ . وَلَمْ يوافِقِ ٱلرَّجُلُ مُباشَرَةً ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَأْتِيَ صاحِبُها قَبْلَ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ . وَلَمّا كانَ عَلى ثِقَةٍ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلى صُنْعِ يَخْتٍ مُماثِلٍ قَبْلَ ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ فَقَدْ وافَقَ عَلى بَيْعِها لِدانْتِي .

وَعَرَضَ ٱلرَّجُلُ أَنْ يَبْحَثَ لِدانْتِي عَنْ بَحّارَةٍ يُعينونَهُ في ٱلعَمَلِ ، غَيْرَ أَنَّ دانْتِي رَفَضَ ذٰلِكَ مُعْلِنًا أَنَّهُ لا يَحْتاجُ إلى أَحَدٍ ، وَأَنَّ مُتْعَتَهُ ٱلحَقيقِيَّةَ في ٱلإبحارِ وَحْدَهُ ، وَفي ٱلقِيامِ بِنَفْسِهِ بِكُلِّ ما يَتَطَلَّبُهُ ٱلعَمَلُ في ٱلسَّفينَةِ . وَطَلَبَ مِنَ ٱلرَّجُلِ أَنْ يَصْنَعَ لَهُ عِنْدَ رَأْسِ سَريرِهِ بِٱلضَّبْطِ مَخْبأً مُقَسَّمًا إلى ثَلاثَةِ أَجْزاءٍ ، وَوَعَدَهُ ٱلرَّجُلُ بِأَنْ يَكونَ طَلَبُهُ جاهِزًا في ٱلغَدِ .

العَـوْدَةُ إلـى مارْسِيلْيـا

في ٱليَوْمِ ٱلتّالي أَبْحَرَ عَلى ٱلسَّفينَةِ بِمُفْرَدِهِ تارِكًا وَراءَهُ جِنْوا . وَتَجَمَّعَ عِنْدَ ٱلشّاطِئِ جُمْهورٌ غَفيرٌ لِيُشاهِدَ ذٰلِكَ ٱلثَّرِيَّ ٱلَّذي تَعَوَّدَ أَنْ يَقودَ يَخْتَهُ بِنَفْسِهِ . وَكانَ ٱلجَميعُ يُطْلِقونَ صَيْحاتِ إِعْجابٍ عالِيَةً وَهُمْ يَرَوْنَ

ٱلسَّفينَةَ تَتَحَرَّكُ طَوْعَ يَدَيْهِ ٱلماهِرَتَيْنِ في سُهولَةٍ وَيُسْرٍ . وَظَلَّ ٱلنّاسُ يُتابِعونَ ٱلسَّفينَةَ حَتّى غابَتْ عَنْ أَنْظارِهِمْ وَهُمْ يَتَساءَلونَ عَنْ وِجْهَتِها ، فَقيلَ لَهُمْ : « كورْسيكا » ، وَقيلَ لَهُمْ : « إِلْبا » . وَظَنَّ آخَرونَ أَنَّهُ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ تَكونَ « إِفْريقِيَّةَ » . غَيْرَ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يُفَكِّرْ في أَنْ تَكونَ جَزيرَةُ مونْتِ كريسْتو هِيَ ٱلوِجْهَةَ .

وَوَصَلَ دانْتِي إلى مونْتِ كريسْتو في ٱليَوْمِ ٱلتّالي بَعْدَ خَمْسٍ وَثَلاثينَ ساعَةً مِنْ مُغادَرَتِهِ جِنْوا .

وَراقَبَ دانْتِي ٱلشّاطِئَ بِعِنايَةٍ ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَرْسُوَ في ٱلمَكانِ ٱلمُعْتادِ دَخَلَ بِسَفينَتِهِ إلى ٱلخَليجِ ٱلصَّغيرِ . وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ أَحَدٌ بِٱلجَزيرَةِ ، وَلَمْ يَزُرْها أَحَدٌ مُنْذُ أَنْ غادَرَها . وَكانَ ٱلكَنْزُ في مَكانِهِ كَما تَرَكَهُ .

وَفي ساعَةٍ مُبَكِّرَةٍ مِنْ صَباحِ ٱليَوْمِ ٱلتّالي ، بَدَأَ دانْتِي يَنْقُلُ ٱلكَنْزَ إلى ٱلسَّفينَةِ ، وَقَبْلَ أَنْ يَحُلَّ ٱلظَّلامُ كانَ كُلُّ شَيْءٍ قَدْ تَمَّ نَقْلُهُ بِأَمانٍ ، وَوُضِعَ في ٱلمَخْبَإِ ٱلسِّرِّيِّ عِنْدَ رَأْسِ ٱلسَّريرِ .

وَذاتَ صَباحٍ مُشْرِقٍ ، وَصَلَ إلى ميناءِ مارْسِيلْيا يَخْتٌ جَميلٌ صَغيرٌ . وَرُبِطَ بِٱلضَّبْطِ بِجِوارِ دَرَجاتِ ٱلسُّلَّمِ ، ٱلَّتي نَزَلَها دانْتِي ذاتَ لَيْلَةٍ لا تُنْسى إلى ٱلقارِبِ ٱلَّذي أَقَلَّهُ إلى سِجْنِ قَلْعَةِ إِفْ .

وَصَعِدَ رِجالُ ٱلجَمارِكِ يَفْحَصونَ أَوْراقَ ٱلسَّفينَةِ . وَكانَ ثَمَّةَ جُنْدِيٌّ يَقِفُ بِجِوارِ دَرَجاتِ ٱلسُّلَّمِ ، وَحَتّى تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ كانَ مَنْظَرُ أَيِّ جُنْدِيٍّ كافِيًا لِيُلْقِيَ ٱلرُّعْبَ في قَلْبِ دانْتِي .

كانَ دانْتي قَدْ عَزَمَ عَلى أَنْ يَنْتَحِلَ ٱسْمَ شَخْصٍ ثَرِيٍّ ؛ فَقَدَّمَ لِرِجالِ ٱلجَمارِكِ أَوْراقَ ٱلسَّفينَةِ ٱلَّتي ٱبْتاعَها مِنْ جِنوا ، وَقَدْ سُجِّلَ فيها أَنَّ ٱليَخْتَ مِلْكٌ لِكونْت مونْت كريسْتو .

فَحَصَ رِجالُ ٱلجَمارِكِ أَوْراقَ دانْتي ، ثُمَّ قالوا وَهُمْ يُحاوِلونَ عَدَمَ إِزْعاجِهِ : « لِلسَّيِّدِ مُطْلَقُ ٱلحُرِّيَّةِ في أَنْ يَنْزِلَ إِلى ٱلشّاطِئِ في ٱلحالِ ، فَكُلُّ ٱلأَوْراقِ سَليمَةٌ . »

بَيْتُ والِـدِه

كانَ أَوَّلُ إِنْسانٍ قابَلَهُ عَلى ٱلشّاطِئِ هُوَ نيكولا ٱلعَجوزَ ، ٱلَّذي كانَ يَعْمَلُ مَعَهُ عَلى ٱلسَّفينَةِ فِرْعَوْن . فَٱتَّخَذَ طَريقَهُ إِلَيْهِ ، وَسَأَلَهُ عَنْ بَعْضِ ٱلأَشْياءِ ، وَأَخَذَ يُراقِبُ بِٱهْتِمامٍ تَعْبيراتِ وَجْهِهِ ، فَلَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ أَوْ يَتَفَوَّهْ بِما يَنِمُّ عَلى أَنَّهُ عَرَفَهُ ، فَمَنَحَهُ بَعْضَ ٱلنُّقودِ ، ثُمَّ مَضى . وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَكَدْ يَبْتَعِدُ عِدَّةَ خُطُواتٍ حَتّى سَمِعَ نيكولا يُناديهِ بِصَوْتٍ عالٍ ؛ فَٱلْتَفَتَ دانْتي إِلَيْهِ ، فَقالَ لَهُ ٱلعَجوزُ : « لا بُدَّ أَنَّكَ أَخْطَأْتَ يا سَيِّدي ! إِنَّكَ بَدَلًا مِنْ أَنْ تُعْطِيَني قِطْعَةً مِنَ ٱلفِضَّةِ أَخْطَأْتَ وَأَعْطَيْتَني تِلْكَ ٱلقِطْعَةَ ٱلذَّهَبِيَّةَ . »

قالَ دانْتي : « نَعَمْ أَيُّها ٱلرَّجُلُ ٱلطَّيِّبُ ، لَقَدْ أَخْطَأْتُ بِٱلفِعْلِ ، لٰكِنَّهُ خَطَأٌ صَغيرٌ ، وَما دُمْتَ قَدْ أَوْضَحْتَ لي ذٰلِكَ فَإِلَيْكَ قِطْعَةً أُخْرى مِنَ ٱلذَّهَبِ . »

تَمَلَّكَتِ ٱلرَّجُلَ ٱلعَجوزَ ٱلدَّهْشَةُ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ لَمْ يَفُهْ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ ، وَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلى دانْتي وَهُوَ يَمْضي في طَريقِهِ وَقالَ لِنَفْسِهِ : « لا بُدَّ أَنَّهُ واحِدٌ مِنْ أَثْرِياءِ ٱلهِنْدِ ! فَمَنْ سِواهُمْ يُنْفِقُ بِمِثْلِ هٰذا ٱلسَّخاءِ ؟ »

اِسْتَمَرَّ دانْتي في طَريقِهِ . وَكانَتْ كُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطوها تَحْمِلُ مَزيجًا مِنَ ٱلمَخاوِفِ وَٱلآمالِ ، وَكانَتْ كُلُّ شَجَرَةٍ ، وَكُلُّ شارِعٍ ، يَزْدَحِمُ بِذِكْرَياتِ ٱلماضي .

وَٱسْتَمَرَّ في سَيْرِهِ حَتّى لاحَ لَهُ بَيْتُ أَبيهِ ، وَهُنا أَحَسَّ بِساقَيْهِ تَكادانِ تَعْجِزانِ عَنْ حَمْلِهِ بِسَبَبِ طُغْيانِ ٱلذِّكْرَياتِ وَتَفْكيرِهِ في أَبيهِ وَفي حُبِّهِ لَهُ . وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ واصَلَ ٱلسَّيْرَ وَلَمْ يَتَوَقَّفْ حَتّى وَجَدَ نَفْسَهُ عِنْدَ بابِ ٱلبَيْتِ .

وَفَتَحَ ٱلبابَ ، وَرَأى شَيْئًا أَبْيَضَ — خِطابًا — مُلْقًى عَلى ٱلأَرْضِ . فَٱلْتَقَطَهُ وَلٰكِنَّهُ أَخَذَ يُرَدِّدُ : « هَلْ أُصِبْتُ بِٱلعَمى ؟! إِذا لَمْ يَكُنِ ٱلأَمْرُ كَذٰلِكَ ، فَلِماذا إِذًا لا أَسْتَطيعُ قِراءَةَ ٱلاسْمِ ٱلمَكْتوبِ عَلَيْهِ ؟! لِماذا لا أَسْتَطيعُ قِراءَتَهُ صَحيحًا ؟! يَبْدو كَأَنَّهُ مِرْسيدِيس لٰكِنْ لِماذا ؟! لا بُدَّ أَنّي أَحْلُمُ . »

المَحْــبوبانِ

وَصَلَ دانْتي إِلى بابِ حُجْرَةِ أَبيهِ فَوَجَدَهُ مُغْلَقًا ، لٰكِنَّهُ سَمِعَ أَصْواتَ أَقْدامٍ تَغْدو وَتَروحُ في ٱلحُجْرَةِ في هُدوءٍ وَلُطْفٍ ، ثُمَّ تَبِعَ ذٰلِكَ لَحْظَةَ

صَمْتٍ بَدَّدَتْها صَرْخَةُ أَلَمٍ واهِنَةٌ .

وَوَصَلَ إلى سَمْعِهِ صَوْتٌ واهِنٌ بَعيدٌ ، كَما لَوْ كانَ صَوْتَ طائِرٍ ضَلَّ طَريقَهُ في ٱلظَّلامِ .

وَتَناهى إلى سَمْعِهِ صَوْتٌ رَقيقٌ يَرُدُّ قائِلًا : « نَعَمْ ، حالًا ، ٱلآنَ ! وَلٰكِنِ ٱبْقَ هادِئًا ، فَأَنْتَ في حاجَةٍ إلى كُلِّ قُوَّتِكَ . »

مَدَّ دانْتي يَدَهُ لِيَفْتَحَ ٱلبابَ ، لٰكِنَّ يَدَهُ هَوَتْ إلى جانِبِهِ ، أَمّا قَدَماهُ فَقَدْ تَسَمَّرَتا في ٱلأَرْضِ ؛ إذْ سَمِعَ ٱلصَّوْتَ ٱلواهِنَ مَرَّةً أُخْرى وَهُوَ يَقولُ : « لَقَدْ قُلْتُ لَكِ إنَّهُ هُنا ، فَلِماذا لا تَذْهَبينَ وَتَأْتينَ بِهِ ٱلآنَ ؟ »

« حاوِلْ أَنْ تَغْفُوَ ٱلآنَ قَليلًا . وَرُبَّما عِنْدَما تَسْتَيْقِظُ ... »

« قُلْتُ لَكِ إنَّهُ هُنا . لَقَدْ رَأَيْتُهُ قادِمًا في ٱلشّارِعِ حَتّى وَقَفَ تَحْتَ هٰذِهِ ٱلنّافِذَةِ يَنْظُرُ إلَيْها بِعَيْنَيْهِ ٱلحَبيبَتَيْنِ . لَقَدْ تَغَيَّرَ . تَغَيَّرَ كَثيرًا . »

« نَعَمْ ، لا بُدَّ أَنْ يَكونَ قَدْ تَغَيَّرَ . »

« أَخْبِريهِ أَنْ يُسْرِعَ . وَقولي لَهُ إنَّ ٱلمَوْتَ يَقِفُ عَلى رَأْسِ أَبيكِ يَنْتَظِرُهُ حَتّى يَراكَ ، وَعِنْدَئِذٍ يَخْطِفُ روحَهُ . » ثُمَّ ٱرْتَفَعَ ٱلصَّوْتُ بِكُلِّ ما في صاحِبِهِ مِنْ حَلاوَةِ ٱلرّوحِ : « قُلْتُ لَكِ ٱفْتَحي ٱلبابَ وَٱئْتي بِهِ إلَيَّ . »

فَسَمِعَ دانْتي وَقْعَ أَقْدامٍ ، ثُمَّ فُتِحَ ٱلبابُ . كانَتْ مِرْسيدِيس واقِفَةً هُناكَ وَعَيْناها قَدْ أَضْناهُما ٱلسَّهَرُ عَلى أَبيهِ وَتَمْريضُهُ . فَنَظَرَتْ إلَيْهِ غَيْرَ

مُصَدِّقَةٍ ؛ إذْ وَجَدَتْهُ قَدْ تَغَيَّرَ كَثيرًا . ثُمَّ خَطَتْ إلَيْهِ وَقَدْ نَدَّتْ عَنْها صَرْخَةُ أَلَمٍ مِنْ فَرْطِ سَعادَتِها ٱلغامِرَةِ ، فَأَمْسَكَتْ بِيَدِهِ قائِلَةً لَهُ : « هَيّا ! تَعالَ بِسُرْعَةٍ حَتّى يَسْتَطيعَ أَنْ يَراكَ . »

وَتَطَلَّعَتْ إلَيْهِ عَيْنا أَبيهِ ٱلعَجوزِ ٱلذّابِلَتانِ وَٱلجَميلَتانِ بِما فيهِما مِنْ نَظْرَةِ حُبٍّ صامِتَةٍ أَخيرَةٍ .

ثُمَّ أُغْلِقَتِ ٱلعَيْنانِ وَهُوَ يَقولُ : « قَبِّلْني ! ضُمَّني بَيْنَ ذِراعَيْكَ يا إدْمون ! وَٱلآنَ أَيُّها ٱلمَوْتُ ، يُمْكِنُكَ أَنْ تَأْتي . »

وَعِنْدَ عَوْدَةِ نابُلْيون عامَ ١٨١٥ ، كانَ دانْغلَرْز قَدْ غادَرَ فَرَنْسا ، وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مَرَّةً أُخْرى ، وَٱعْتَقَدَ ٱلنّاسُ أَنَّ سَفينَتَهُ قَدْ حَطَّمَتْها عاصِفَةٌ ، أَمّا فِرْنان فَقَدْ قُتِلَ في مَعْرَكَةِ ووتَرْلو . وَفي ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ كانَ كادِيرُوس قَدْ أَصْبَحَ عَجوزًا لا يَقْدِرُ عَلى ٱلاشْتِراكِ في ٱلحَرْبِ وَكانَ لا يَزالُ حَيًّا ، كَما قالَتْ مِرْسيدِيس ، وَلٰكِنَّهُ مُعْدَمٌ .

قالَ نيكولا ٱلعَجوزُ لِلْجُنْدِيِّ ٱلواقِفِ عِنْدَ ٱلدَّرَجِ : « أُنْظُرْ . »

كانَ في ٱلأُفُقِ ، عِنْدَ خَطِّ ٱلْتِقاءِ ٱلبَحْرِ بِٱلسَّماءِ ، شِراعٌ أَبْيَضُ في حَجْمِ جَناحِ طائِرٍ .

وَمَضى نيكولا ٱلعَجوزُ قائِلًا : « لَقَدْ رَحَلَ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلُ ٱلثَّرِيُّ . »

أَجابَهُ ٱلجُنْدِيُّ : « نَعَمْ . لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَرْحَلُ ، وَرَأَيْتُها أَيْضًا تَرْحَلُ مَعَهُ . »



© الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان
١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي–الجيزة

الطبعة الأولى ١٩٨٩

رقم الإيداع : ١٩٨٩/٢٧٦١
الترقيم الدولي : ١-٢٢-١٤٤٦-٩٧٧ ISBN

رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198108

طبع بمطابع أخبار اليوم

الروايات المشهورة

١ — جين إير
٢ — فرانكنشتاين
٣ — مونفليت
٤ — دراكولا
٥ — لورنادون
٦ — دكتور جيكل ومستر هايد
٧ — شي الملكة الأسطورة
٨ — كونت مونت كريستو
٩ — الرجل الخفي
١٠ — الزمن العصيب



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت